تاريخ المصريين ٣٦

المجتمع الإسلامى والغرب

تأليف

هاملتون جِب

و هارولد بُووِين

ترجمة

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

الجزء الثانى



تاريخ المصريين

٣٦

رئيس التحرير
د . عبد العظيم رمضان

الاخراج الفنى وتصميم الغلاف : اسامة سعيد

المجتمع الإسلامى والغرب

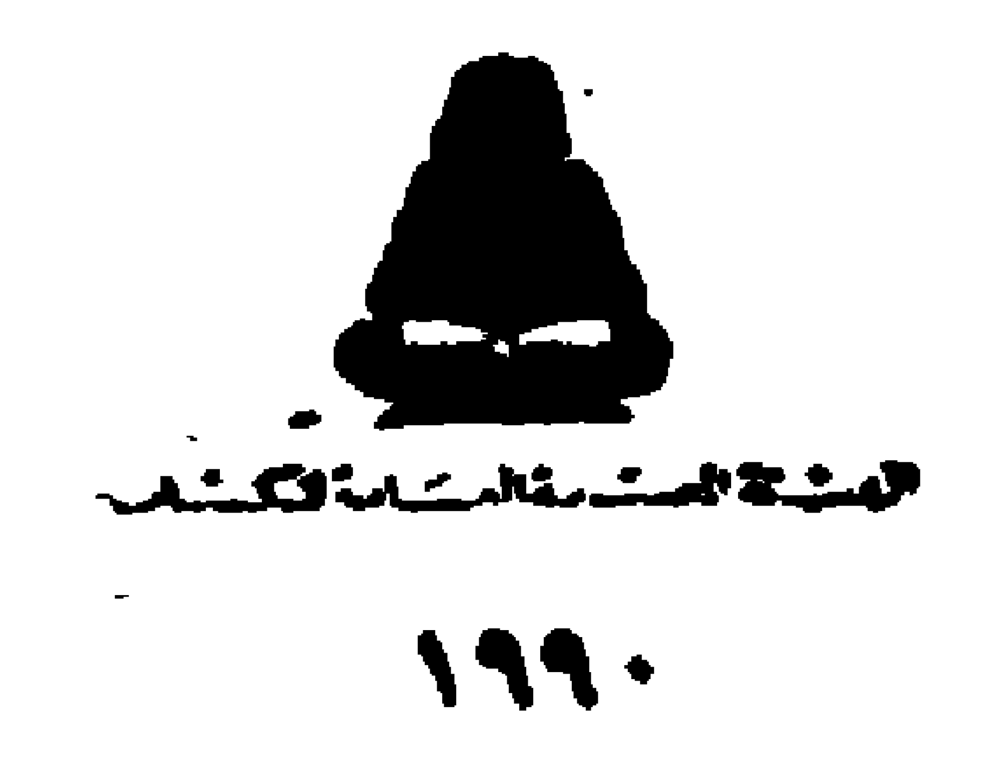
تأليف

هاملتون جب ، هارولد بووين

ترجمة

د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

الجزء الثانى



١٩٩٠

الفصل الخامس

التعليم

من الممكن أن نستدل من نظام التعليم على العامل الرئيسى للتنظيم الدينى والمصدر الرئيسى لأثره على السلطات العلمانية . ففى صدر الاسلام قام الفقهاء بجهود متصلة مكنتهم فى نهاية الأمر من احتكار الاشراف على التعليم ، ومنذ تأسيس الامبراطورية العثمانية ـ ان لم يكن قبل ذلك ـ كان النمط الوحيد من التعليم فى البلاد الاسلامية يقوم فقط على التعليم الدينى بل يكاد يقتصر عليه . وكانت مدارس القرآن هى الأساس العام لكل أنواع التعليم ـ المدنى والادارى والفنى ، بل والدينى . ويتضح من اهتمام أجيال متعاقبة من الخيرين فى كل مجالات الحياة بانشائها والانفاق عليها أنها كانت ذات أهمية كبيرة معترفا بها . ويحتمل أنه لم يوجد أى تنظيم اجتماعى آخر نجح فيه الروح العالمى للاسلام نجاحا كاملا فى فرض التماثل فى طول أراضيه وعرضها ـ اذ أن موضوعات التعليم الأولى وطرائقه التقليدية المتبعة كانت سائدة فى النيجر ومصر والهند على حد سواء .

ومن الطبيعى أن يتم التعليم الاجتماعى للطفل فى المنزل حيث كان يتشرب النظـام واحترام الأكبر سنا فى كل مكان أيا كانت الاختلافات فى المركز والطبقة (١) • ولا يجب أن نتجاهل هــذا الأساس الاجتماعى للتعليم بمعناه الضيق ـ فهو الذى كان يحدد مسبقا كل سلوك التلميذ ازاء مدرسه وموضوعات دراسته وأضفى على عقليته ذلك الاستعداد لقبول السلطة الذى كان الطابع العام لكل فروع التعليم الاسلامى • وفى منازل الأغنياء كانت المبادىء الأولى للتعليم الرسمى تبدأ كذلك فى المنزل على يد مرب أو شيخ زائر (٢) ـ ولكن كان من النادر أن تختلف بأى شكل من الأشكال عن نوع التعليم الذى كان يلقن فى مدارس القرآن (٣) • ولما كانت هذه المدارس قد بقيت حتى أيامنا ، فمن نافلة القول أن نعرض لها بالتفصيل (٤) • فقد كان التلميذ يلقن كيف يرتل بعض أجزاء القرآن من الذاكرة ، وكان تعلـم القراءة والكتـــابة الحد الأقصى للتعليم ، وأحيانا ما كان التلميذ يلقن مبادىء الحساب ، ولكن فى أحيان أكثر كان يتعلم ذلك من القبانى أو مساح القرية •

---

(١) راجع : S. Lane-Poole, *Social Life in Egypt*, p. 80.
كما كان التعليم الدينى يبدأ فى البيت لا فى المدرسة •
(٢) راجع المرادى ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ •

(٣) ونحن نستعمل هذا الاصطلاح للاشارة الى الكتاب (أو المكتب) بدلا من الاصطلاح الفرنسى المعتاد (المدرسة الأولية) ، لأن الاصطلاح الأخير كان يستعمل فى فترة تالية للاشارة الى نوع من المدارس يختلف تماما ويقوم على سياسة تعليمية مغايرة لذلك •

(٤) انظر بوجه خاص : طه حسين : **الأيام** ، لين : المصريون المحدثون ، الفصل الثانى ، لين بول ، ص ٨١ ـ ٨٢ والرسم ، لاحظ تعليق دينون الساخر (Travels, iii, 242 ,Plate xivii) « هنا يتعلمون قراءة القرآن وضرب أقدامهم بالنبـوت ؟) •

وكانت مدارس القرآن بوجه عام وفيرة في المدن وأحيانا ما كانت في الدور العلوى من السبيل الملحق بالمسجد • وفي القرى كان المسجد ذاته يوفر مدرسة فيما لو اقتضى الأمر • ولكن كان باستطاعة المدرس الخاص أن يلقى درسه في أى مكان مناسب ولم تكن الحكومة تنفق على المدرسين أو على المبانى بأى حال من الأحوال • وكانت المدارس التي تقام لتحقيق هذا الغرض الخاص تدين بوجودها الى كرم الأغنياء الذين أنشأوها وأوقفوا الأوقاف للانفاق عليها ، وفي بعض الأحوال كانت تكفى أيضا لاطعام عدد من التلاميذ الفقراء (١) وكسوتهم • وحيثما كان المدرس (أو الفقيه) يعتمد على ما يربحه كان الآباء يدفعون له مبلغا صغيرا يتراوح ما بين ثلاث بارات وعشرين بارة (٢) كل أسبوع ، ويبدو أنه لم يكن يوجد أى نظام للتفتيش على تعليم الفقهاء أو لمراقبته ــ فحين كانت ترصد الأوقاف على أية مدرسة كان الاشراف عليها وتعيين مدرسيها في يد ناظر الوقف وهو عادة من نسل من أوقف الوقف ، وكان للقاضى حق عام في الاشراف ، ولكن يحتمل أن المراقبة المفروضة في كلتا الحالتين كانت قاصرة على المسائل المالية • ويبدو أن ثمة اتفاقا عاما على أن الفقيه العادى كان جاهلا خرب الذمة • وكان كبار العلماء (٣)

---

(١) يلحظ جومار (Description de l'Egypte, ii, 2, 681-2) ان هذه الأوقاف كانت تحظى عادة بالاحترام من الناحية الدينية •

(٢) انظر بوجه عام : شابرول ، ٦٢ ــ ٦٦ • ومن الواضح أن العامة استعملوا اصطلاح فقى بدلا من كلمة فقيه (دارس للقانون) التي كانت تستعمل للاشارة الى رجال الدين بوجه عام • ولم يكن المفتى ــ كقاعدة ــ « طالبا » في احدى كليات اللاهوت ، وذلك رغم أنه كان من الممكن أن يكون قد تلقى دراسات أولية في الأزهر أو في أية مدرسة أخرى لفترة عامين أو ثلاثة أعوام •

(٣) وهناك من قبيل الاستثناء ملحوظة عن معلم في مؤلف المرادى (جـ ١ ، ص ٧٣) : أبو يزيد الحلبى « العابد المجتهد في العبادة المبارك الدين النظيف الصالح ــ كان يربى الأطفال في مسجد بمحلة المشارقة من رآه أحبه يتبارك به الناس ويأخذون منه التمائم فيجدون بركتها » •

يحتقرون المهنة ، برغم أن العامة كانوا لا يزالون يحترمونها بعض الشيء • ويحتمل أن حصر عدد مدارس القرآن وعدد الأطفال الذين كانوا يترددون عليها (١) من الأمور المستحيلة • ووفقا لما يذكره شابرول كان باستطاعة ما يتراوح بين ربع سكان القاهرة وثلثهم أن يقرأوا ويكتبوا ، ولكن من المؤكد أن نسبة الأمية خارج القاهرة وفى البلاد على وجه العموم كانت أعلى من ذلك بكثير • ويحتمل أن الوضع فى سوريا كان شبيها بوضع مصر (٢) •

ويحتمل أن من النادر جدا أن يستكمل أى طفل ، لا يوهب للحياة العملية أو للادارة ، دراسته بعد أن يترك الكتاب • ولكن أيا كان النقد الموجه الى الكتاب من وجهة نظر الكفاءة والتدريب الفعلى ، فمن المهم أن نلاحظ أنه حقق الأهداف المعلقة عليه بما فيه الكفاية من ناحيتى الأسلوب والفحوى • كان التلاميذ الذين يواصلون المراحل العليا من تعليمهم يتعلمون اللغة الكلاسيكية (رغم تعذر فهمهم لتركيبها النحوى ـ اذ من المحتمل أن توضيح قواعد اللغة العربية كان فوق مقدور الفقى المتوسط) وكانوا يدربون على مهمة الاستظهار التى كان مقيضا لها أن تصبح أهم أوجه نشاطهم فى

---

(١) ونحن نشك كثيرا فى رقم أكثر من مائة مدرسة فى القاهرة الذى يورده جومار ـ سواء فى حد ذاته أو فيما يتعلق بمحتواه ـ من حيث صلاحيته لأن يكون أساسا يبنى عليه •

(٢) لا شك فى ندرة العثور على الاشارات الواضحة الى مدارس القرى فى سوريا • ولكن يتضح من الملحوظات العربية (على سبيل المثال المرادى ، جـ ١ ، ص ١٣٤ و ٢٥٩) أنها كانت توجد فى معظم المقاطعات (ان لم يكن فيها كلها) • ومن الواضح أن ما يذكره روسو (ص ١٦) عن عدم وجود مدارس خاصة بالاطفال فى بغداد لا يتميز بالدقة ـ ذلك أن المدارس (راجع المرادى ، جـ ٢ ، ص ٩ ، جـ ٣ ـ ص ٨٤ ـ ٨٦ ، ١٧٩) كانت تعتمد على تلاميذ مدارس تحفيظ القرآن . عن الموصل وكركوك انظر ما يلى ، بل ان نيبور يشير الى وجود عدد كبير من المدارس وبعض الكليات فى شبه جزيرة العرب (١٧٧٤ ، ص ٩١ ـ ٩٢) •

الكليات الدينية • وعند هذه المرحلة يكون من ينتهى تعليمهم الرسمى قد تلقوا قاعدة للثقافة الدينية والأخلاق مما يعدهم لأن يحتلوا فى الجماعة الاسلامية المركز الذى يتمشى مع مكانتهم فى الحياة • وفى معظم الأحوال كانوا ينخرطون فى سـلك طوائف الحرف والطرق الصوفية التى كانت التزاماتها التقليدية والطقوس الصوفية المتصلة بها تفرض فى النهاية على الشاب المبتدىء التدريب الدينى الخاص بالاسلام ـ ومن هنا كان مفهوم الواجب يرتبط بتقاليد الكبار التى كانت تنتقل عن طريق تعاليم كبار المتصوفة (١) •

ومن وجهة النظر الدينية كانت مدارس تحفيظ القرآن التى أنشئت فى شتى ربـوع « الوطن » العثمانى الأصـلى منذ أقدم العصور ـ من الناحية التربوية ـ تفوق مدارس الولايات العربية من حيث عدم وفائها بحاجيات سكانها المسلمين • فرغم أن الأطفال الذين كانوا يترددون على هـذه المدارس الأخيرة لم يتلقنوا اللغـة العربية الكلاسيكية الخاصة بالقرآن والصلوات التى كانوا يؤمرون باستظهارها ، كانت اللغة العربية على الأقل لغتهم المحلية ، فى حين أنها لم تكن كذلك بالنسبة الى الأغلبية العظمى للسكان المسلمين والوطن التركى • ويمكن القول بأن هذه المدارس قد حققت أغراضها فى الواقع ـ اذ أنها وفرت الوسيلة التى كانت تمكن الأطفال المسلمين فى هذه الولايات من التعرف على النصوص المقدسة ولقنتهم كيفية تأدية طقوس صلواتهم • ولكن لما لم تكن تلقن فى مكتب « الوطن » أية لغة عربية سواء أكانت فصحى أم عامية (٢) ، ولما لم تكن قد

---

(١) راجع شهادات السماح بدخول طائفة صانعى الأقواس التى يشير اليهـا الجبرتى (جـ ٢ ، ص ٢١٤ ـ ١٥) •

(٢) وقد تأسس أول مكتب سلطانى طبقا لوقفية السلطان عبد الحميد الاول (انظر ما يلى : تعليم العربيـة والفارسـية ـ دون التركيـة ـ فى عام ١٧٨١ (بعد نهاية دراستنا) ـ انظر عثمان نورى اركين ، تركيه معارف تاريخى ، جـ ١ ، ص ٧٢ •

بذلت فيها محاولة قوية لتفسير النصـوص التى كان يستظهرهـا التلاميذ عن ظهر قلب، ورغم أنه كان بامكان النابهين منهم أن ينجحوا فى استظهار فقرات طويلة من القرآن ان لم يستظهروه كله (١) ، فقد كان من الممـكن أن تكون لديهم فكرة قليلة ـ ان وجـدت على الاطلاق ـ عن معنى آياته البليغة • والحق أنه يبدو أن فهم معنى الآيات كان يعتبر أقل أهمية من المقدرة على ترتيلها جيدا ، فقد كان العامة يظنون أن لها سحرا • يضاف الى هذا أن التلاميذ الذين كانوا لا يفهمون اللغة العربية لم يكونوا يجنون من استظهار هـذه النصوص الكلاسيكية نفس الفـائدة التى كانت تعود على تلاميذ ولايات كمصر ، ولو حدث وتعلموا الأبجدية العربية ـ وهو ما يبدو أنه كان يحدث عادة ـ فان هذا لم يكن يفيدهم الا باعتباره وسيلة تساعدهم على الاستظهار • فرغم ما هو مؤكد من أن اللغة التركية العثمانيـة كانت تكتب بالحروف العربية فانهم لم يتلقنوهـا هى الأخرى • وفى الربع الأخير من القرن الثامن عشر أنشأت والدة السلطان محمود الأول (١٧٣٠ ـ ٥٤) مكتبا فى غلطة كان التلاميذ يتعلمون فيه الكتابة (٢) (ومن الواضح أن هذه أول مرة يحدث فيها ذلك فى تاريخ المكاتب العثمانية) • ولكن الفن الذى تلقنوه هو تحسين الخط لا التهجى ، ولما كانوا لا يتعلمون العربية أو التركية ، برغم أنه كان من الممكن أن يتركوا هذه المؤسسات وقد أمكنهم نسخ المخطوطات وكتابة النصوص بتشكيلة من الأساليب الجميلة ـ اذ أن تحسين الخط كان فيما بعد يدخل فى منهج المكاتب الأخرى (٣) ،

---

(١) نفس المرجع ، ص ٧٠ ، هامش ٢ ـ حيث اقتبست فقرة من خواطر احسان سنكو الذى ولد فى عام ١٨٨٢ • وقد حفظ القرآن كله عن ظهر قلب دون أن يتعلم القراءة •

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٠ •

(٣) أى الذى اسسه السلطان عبد الحميد الأول وسبقت الاشارة اليه •

فقد كان بالامكان أن لا يلموا بكيفية تركيب أو تهجي أقصر الكلمات أو الرسائل (١) • وفي الحق كان تعليم تحسين الخط هدفا آخر غير تمكين التلاميذ من تسجيل أو تبادل أفكارهم الخاصة أو أفكار الغير • كما كان ذا صفة دينية خالصة بحكم أنه مكنهم من أن يكتبوا على الورق التراكيب والصلوات المقدسة التي لولا ذلك لأنفقوا وقتهم في استظهارها عن خوجاتهم •

ولهذا فان مكاتب الأراضي العثمانية الأصلية كانت لا تقوم الا بالقليل من حيث تزويد الأطفال الذين يترددون عليها حتى بعناصر التعليم العـام ذلك رغم وفائها بالغرض الذى أنشئت لأجله • أما المعلومات الأخرى التي كانوا يتلقنونها ، كمبادىء الحساب ، فقد كان عليهم أن يأخذوها عن أسرهم أو عمن يشغلونهم • ولهذا فان الأغلبية العظمى من السكان ، وبخاصة في الريف بطبيعة الحال ، ظلوا أميين تمـــاما ، ولهذا السبب كان كل من يعرف القراءة أو الكتابة ـ وبوجه خاص اذا ما كان من العلماء ـ يتمتع باحترام عام لم تكن مواهبهم تخلعه عليهم باسـتمرار في مجتمع أكثر تمرسـا بالتعليم القائم على الكتب •

وكانت كل المكاتب تدين بوجودها في البلاد العثمانية الأصلية لسخاء الأفراد ، شأنها في ذلك شأن الولايات العربية • حقيقة أن السلاطين أنشأوا بعضها ، الا أنهم كانوا يقومون بذلك بصفتهم أشـــخاصا عاديين • ولم تكن مكاتبهم مدارس دولة بأى حال من الأحوال • وكانت لا تختلف عن المدارس التي يؤسسها أشخاص أدنى مركزا كالقادينات والباشـــوات (٢) الا في كونهـــا أكبر

(١) نفس المرجع ، ص ٧١ •

(٢) يحصى اركين (جـ ١ ، ص ٧٥ ـ ٧٦) سبعة واربعين مكتبا انشأتهـا القادينات في استانبول وسبعة وثلاثين انشأها باشوات وخمسة واربعين انشأها

وأكثر موردا • وكان تأسيس هذه المكاتب « عملا خيريا » لا يقل أثرا عن تزويد المسافرين بالخانات أو بناء الكباري والسبل وهو ما نستشفه – على سبيل المثال – من وقفية مدارس القرآن التي أسسها في استانبول السلطانان محمد الثاني وبايزيد الثاني – وأولاهما توضح أن القصد من مدرسة محمد هو تعليم الأطفال اليتامى ، وأطفال الفقراء فيما لو لم يوجد من اليتامى العدد الكافي ، على حين أن الثانية تشترط على الأطفال أن يدعوا لمؤسسها قبل أن يتفرقوا ليلا (١) • وكما هو الحال في كثير من أمثال هذه المدارس في الولايات العربية ، كان تلاميذ المدارس القائمة في الأراضي العثمانية يزودون عموما بالملابس والطعام وكانوا يشبهون طوائف التجار في حصولهم على اجازة مرة كل عام • وفي المكاتب المؤسسة « أو في نطاق العمارة (عمارت) مطبخ توزيع الطعام على الفقراء ، كما هو الحال بالنسبة الى المكاتب السلطانية في العاصمة ، كانت تقدم لهم وجبات الطعام صباحا ومساء • وفي المكاتب العادية كان المؤسس عادة يشترط عليها أن تستبدل ذلك باعانة مالية (٢) •

بكوات وجلبية وأفندية وتسعة وخمسين أنشأتها الطوائف (أصناف) والأغوات •• ومعنى ذلك أن عشرة من هذه قد تم انشاؤها على أيدى السلطان – وبلغ عددها جميعا ١٩٨ • في أوائل القرن العشرين كانت هذه المنشئات لا تزال باقية وتحمل أسماء مؤسسيها وفي بعض مدن الولايات كان عدد المكاتب كبيرا جدا في بعض الأحيان ، فمثلا يسجل أوليا جلبي (في الربع الثاني من القرن السابع عشر) وجود ١٢٠ في البوسنة – سرايي (سراييو) – عن كلمة بوسنة سراى انظر : I.A.

(١) اركين ، ج ١ ، ص ٦٩ ، ص ٧٣ •

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣ – ٧٤ • وقد ورد في وقفية بايزيد الثاني نص خاص بوجبات صباحية ومسائية ، كما ورد في وقفية سليمان نص خاص بدفع أقجات لشراء ملابس التلاميذ ، وكانت تقدم لهم مرتين في السنة ، على حين أن وقفية مدرسة أنشئت قرب نهاية فترة دراستنا (في عام ١٧٥٥) قدمت قائمة محددة بنوع الملابس التي كان يجب أن يتسلمها كل تلميذ •

ومن الواضح انه كان يقصد من المكاتب بوجه عام أن تحتضن الأطفال الذين كان آباؤهم عاجزين عن الانفاق على تعليمهم الخاص ، وكان من المفهوم أن على الأثرياء أن يرصدو جزءا من مواردهم الخاصة للوفاء بهذا الغرض (١) • وكان بناء المكتب النموذجي يتكون من صالة كبيرة لها قبة تتصل بها غرفة صغيرة خاصة بالخوجة ومساعديه • وكان كل التلاميذ يتعلمون سويا ، وبدلا من أن يوضعوا في صفوف ، كان كل منهم يجلس مقرفصا على حشية أمامها درج منخفض (٢) •

وكان التعليم العالي في كل البلاد الاسلامية يقوم في كليات المساجد وفي المدارس (٣) ، وكل منها تختلف اختلافا كبيرا عن الأخرى في الحجم وهيئة التدريس والأهمية تبعا لاختلاف وحجم الوقف المرصود عليها •

وسرعان ما أصبح تأسيس مثل هذه الكليات موضع اهتمام السلاطين العثمانيين الأول ، فتحول دير في ازنق (نيكايا) الى كلية بعد أن احتلها أورخان في عام ١٣٣١ (٤) • وفي بورصة التي ما لبثت أن حلت محل ازنق باعتبارها عاصمة العثمانيين أسس مراد الأول وخلفاؤه المدارس الثلاث (٦) • ولم يقتصر آخر هؤلاء – وهو مراد الثاني – على تحويل دير آخر في قلعة أدرنه ، العاصمة العثمانية الثانية ، الى مدرسة بل انه أضاف واحدة الى مسجد أوج – شرفلي (٧) الذي بناه في أحد أحياء المدينة وأسس ثالثة في حي

---

(١) راجع دوسون ، جـ ٤ ، ص ٤٧٧ •

(٢) اركين ، جـ ١ ، ص ٧٦ •

(٣) وتنطق مدرسة في التركية •

(٤) I.A. – كلمة ازنق : Iznik

(٥) نفس المرجع – كلمة بورصة Bursa •

(٦) بمعنى أن له مآذن ذات ثلاث شرفات •

آخر • وأنشأت زوجة أحمد باشواته رابعة ، وبعده أسس كل من محمد الثانى وبايزيد الثانى وسليم الثانى مدرسة أخرى ، على حين أن مبانى المسجد الكبير الذى أقامه سليم الثانى الذى وضع تصميمه المعمارى الشهير سنان ، لم يضم فقط مدرستين بمعنى الكلمة (١) بل أيضا دارا للقراء (٢) ومكتبا للصبيان (٣) . وبالاضافة الى كل هذا كانت المدينة تزود بأشخاص يشرفون على ما لا يقل عن كليتين أخريين كما أن حجمها كان يجعل منها مركزا للتعليم (٤) • ولهذا السبب ولأن تنظيم المدرسة فى أدرنه كان يتبع عاصمة سابقة فانه احتفظ بوضع خاص — وكذلك الحال بالنسبة الى تنظيم المدرسة فى بورصة • ورغم أن أساتذة كلياتها كانوا أدنى مرتبة من أساتذة استانبول الا أنهم كانوا أرفع قدرا من أساتذة المدارس التى تأسست فى أماكن أخرى أو كانت قائمة بها (٥) •

وفى أماكن أخرى فى ولايات الأراضى العثمانية الأصلية كانت كل المدن الكبرى هى الأخرى مزودة بمدارس ، وفى الولايات التى كانت تحت السيطرة الاسلامية قبل الفتح العثمانى كان بعضها قد تأسس قبل الفتح العثمانى — ومن هذه المدن قونيه عاصمة سلاجقة الروم (٦) وديار بكر وأماسيا اللتين كانتا مركزين بارزين من مراكز العلم (٧) وأنقره وقسطمونى • ولكن فى هذه المدن وفى مدن أخرى

---

(١) وتسمى دار الحديث (راجع ما يلى) ودار التدريس •

(٢) دار القراء — وكان القراء المعينون متخصصين فى ترتيل القرآن وفهم الفواصل والنقط الخاصة بكتابته وتشكيله •

(٣) وتسمى دار الصبيان •

(٤) I. A. art. Edirne

(٥) Hammer, Staatsverfassung, ii, 405.

(٦) Encyc. of Islam, s.v.

(٧) يصف G. Perrot أماسيا فى كتابه :

Souvenirs d'un voyage en Asie Mineure (1861), p. 453.

باعتبارها أكسفورد الأناضول •

فى الأناضول بنيت مدارس أخرى كثيرة فى العهد العثمانى ، كما هو الحال أيضـــا بالنسبة الى مدن الولايات الأوربيـــة كبلغراد ــ وبوسنة ــ سرايى (١) ٠

ومن الطبيعي أن تكون أكثر هذه المدارس فى استنابول ذاتها ــ فكل السلاطين الذين بنوا مساجد سلطانية هناك بنوا أيضا عددا من المدارس وألحقوها بها ٠ وهكذا نجد أن كنيسة أياصـــوفيا قد زودت أيضا بمدرسة بعد أن تحولت الى مسجد (٢) وكذلك الحال بالنسبة الى كثير من المساجد الكبرى التى بناها الخيرون على حسابهم الخاص (٣) مما ترتب عليه أنه كان يوجد فى الأحياء المختلفة من المدينة فى القرن الثامن عشر ما لا يقل عن ٢٧٥ مسجدا (٤) ٠ وكانت أهم هذه المنشئات المدارس التى بناها محمد الثانى وبايزيد الثانى وسليمان القانونى ، وبالاضافة الى المدارس الملحقة بأياصوفيا بنى محمد ما لا يقل عن ١٦ مدرسة حول مسجده ، وكل منها يسمى « فاتح » نسبة اليه ، وبعد حوالى ٧٠ سنة أحاط سليمان مسجده المسمى بمسجد السليمانية ، بمدارس أخرى ٠ وفى هاتين المجموعتين من المدارس بالاضافة الى مدارس مسجد بايزيد الثانى كان كبار العلماء يتلقون مرانهم مما أضفى عليهم أهمية خاصة ٠ وقد بنى محمد الثانى مدارسه على مرحلتين فقد بدأ ببناء أربعة شمالى مسجده وأربعـــة جنوبية ٠ وكانت هـــذه المدارس تعرف باسم مدارس

---

(١) انظر التعريف بهذه المدن فى : .I. A

(٢) انظر : T.O.E.M., No. 13, p. 20 عن الاشارة اليها فى قانون نامه محمد الثانى ٠

(٣) انظر ــ على سبيل المثال ــ قائمة المدارس التى بناها سنان فى أحمد رفيق : معمارستان ، ص ٦٧ ــ ص ٦٨ ٠ وطبقا لهذه القائمة لم يبن أقل مما مجموعه ٢٥٥ منها عدد كبير فى استانبول أنشأه أشخاص ليسوا سلاطين ٠

(٤) يحصى هامر : : Geschichte ix (ص ١٤٥) هذا العدد ٠

الصحن (١) وبالتالى عرف الصحن باسم (صحن الثمانية) (٢) •
ولكنه أحس بعد ذلك بضرورة بناء ثمان أخرى ، بنفس الترتيب ،
ولما كانت مخصصة للدراسات الأولية فقد أطلق عليها فيما بعد
أما اسم موصلة الى الصحن (٣) أو تكميلية (٤) • وكانت
كل مدرسة من مدارس المجموعة الأولى التى كانت غرفها
تعلوها قباب تحتوى ـ الى جانب الصحن الرئيسى الذى كان يقدم
فيه التعليم فى بداية الأمر ـ على ١٥ غرفة منفصلة للطلبة ،
وغرفتين لمساعدى المدرسين وأخريين للبوابين والخدم ، على حين
أن الخدمة التى كانت تزود بها المدارس التكميلية كانت أكثر
تواضعا • وكانت كل من هذه المدارس لا تضم سوى ثمانى غرف
ليست عليها قباب بكل منها ثلاثة من الطلاب • ومن هنا كان بامكان
مدارس محمد الثانى أن تؤوى ما مجموعه ٣١٢ تلميذا فى وقت
واحد (٥) • وخصصت اثنتان من المدارس التى كانت تكون جزءا
من مجمع السليمانية للدراسات الخاصة فكانت بها دار الحديث
المخصصة لدراسة السنة ودار الطب المخصصة لدراسة الطب (٦)

---

(١) صحن مدرسلرى •

(٢) صحنى ثمان •

(٣) موصلتى صحن •

(٤) تتمه •

(٥) Ergin, 82-86.

(٦) بالاضافة الى خمس مدارس أخرى تسمى خوامس سليمانية : هكذا يذهب اركين فى كتابه معارف ، ص ٨٦ ـ وفى كتابه بلديه : ج ١ ، ص ٢٦٩ الذى الفه قبل ذلك • وفى نفس الوقت نجده فى كتابه الأخير (ص ٢٧١) يعرض كذلك للمجمع باعتباره يتكون من أربع مدارس ودار الحديث وعدد غير محدود من المدارس التجهيزية التى عرفت جماعيا باسم موصلتى سليمانية (راجع موصلتى صحن) •

ولهذ كانت كل المدارس فى مسجد بايزيد مخصصــــة لدراسـة القانون (١) ٠

وبعد بناء مدارس السليمانية نظم التعليم فى كل هذه المدارس بصورة نهائيــة فى ١٢ مرحلة (٢) ٠ وكان على كل تلميذ فى كل

ويبدو فى هذا المجال أنه يأخذ عن جودت (ج ١ ، ص ١١٠) الذى يضيف أن المدارس الأربع كانت هى التى كان يحصل فيها التلاميذ على المرحلة الحادية عشرة من دراستهم ، وكانت المرحلة تسمى مجرد (سليمانيه) ٠ واذا كان ذلك كذلك فلابد أن الخوامس كانت غير ذلك ، وفى الواقع ان جودت (ج ١ ، ص ١١١) يشير اليها باعتبارها لم تعد توجد فى أيامه ٠ ولا يحصى أحمد رفيق (ص ٦٧) الا ست مدارس بناها سنان فى السليمانية ٠

(١) دوهسون ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، ج ٤ ، ص ٤٨٧ ،

Hammer, Staatsverfassung, ii, 402-3.

(٢) كانت تسمى : أ ـ ابتدائى خارج (بداية الخارج) ، ب ـ حركتى خارج (حركة الخارج) ، ج ـ ابتدائى داخل ٠ د ـ حركتى داخل ٠ هـ ـ موصلئى صحن (موصل الى الصحن) ٠ و ـ صحنى ثمان (صحن الثمانية) ٠ ز ـ ابتدائى التمشلى (التمشلى بمعنى بداية ـ انظر ما يلى) ـ ح ـ موصـــــلئى سليمانيه (الموصل الى السليمانية) ط ـ خوامسى سليمانيه (خمســـــة السليمانيه) ى ـ سليمانيه ـ ك ـ دار الحديث ـ انظر اركين : بلديه ، ج ١ ، ص ٢٧٠ ، معارف ، ج ١ ص ٨٥ ٠ ولا يشير دوسون (ج ٤ ، ص ٤٨٧) الا الى عشر مراتب ، فيحذف الرتبتين (ز) و (ك) اللتين سبقت الاشارة اليهما ٠ ولا يشير قانون نامه عبد الرحمن توقيعى (M.T.M., i, 539) (الا ســـبع لاعتبــــارات خاصة بالأسبقية) ، فيحذف ـ بالاضافة الى ذلك ـ مرتبتى الحركة الأخريين (ب) و (د) والمرتبة (ى) ٠ وعلى أى حال فرغم أنه كانت لكل مدرس المدرسة الخاصة به ، فيبدو أن هذه المراتب لم تكن مقابلة تماما لكليات محددة أو مجموعات من الكليات ، بل كانت تتميز بالكتب التى يضعها المدرسون ورواتب هؤلاء الأخيرين ٠ ومن الواضح أن مراتب الالتمشلى كانت تسمى بهذا الاسم لأن المدرسين المعنيين كانوا يتقاضون (فى الأصل على أى حال) من ٥٠ الى ٦٠ أقجة فى اليوم ـ انظر هامر ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ ٠

مرحلة من المراحل الإحدى عشرة الأولى أن يحصل على « اجازة » تعلن أنه على علم تام بأى مؤلفات يكون قد درسها من الأســاتذة المختصين قبل أن ينتقل الى المرحلة التالية . وحين كان ينتقل الى المرحلة السادسة بمعنى صحن الثمانية ، كان يسمح له أثناء مواصلة دراساته في المدارس العليا بأن يعمل مساعدا فى المدارس الدنيا فيعيد مع التلاميذ ما يكونون قد تعلموه بالفعل من معلميهم ومن ثم كان يطلق عليه اسم « معيد » (١) . وعند هذه المرحلة أيضا لم يعد يصـــبح « سفته » كمـا كان يسمى المبتدئون بل أصـــبح « دانشمند » (٢) . وبعد ذلك اذا ما وجـــد أى أمل في تولى أعلى الوظائف فى سلسلة الوظائف القضائية ، كان عليه أن يمر بمعظم ، ان لم يكن كل ، المراحل الست الباقية وبذلك ، كبداية ، كان هو ذاته يصبح مدرسا (٣) . يضاف الى ذلك أنه كان عليه بعد أن يصبح مدرسا أن يبدأ فى أسفل السلم مرة أخرى وأن يشق طريقه من جديد باعتباره مدرسا عبر ما لا يقل عن تسع من المراتب الاثنى عشرة الموصلة الى القمة ، ودون ذلك كان لا يصلح لشغل مولوية « كبرى » (٤) . ولما كان النفوذ والصلاحية الأكاديمية يلعبان دورا فى حصوله على احداها فقد ترتب على ذلك أن عددا قليلا نسبيا من

---

(١) اركين ، بلديه ، جـ ١ ، ص ٢٦٧ .

(٢) اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ٨٤ . وكلمة سفته مستقاة عادة من الكلمة الفارسية سخته بمعنى محروق أى تستهلكه الحماسة للتعلم . على ان آركين (المرجع والصفحتان السابقتان) يسخر من هذا الاستنباط الذى يبدو فى الواقع بعيـــد الاحتمال ويرى أن يستبدل به الصلة بين كلمة سفته والكلمة اليونانية Sophos (هذا أيضا موضع للشك) . وكلمة دانشمند فى الفارسية بمعنى « مثقف » .

(٣) مدرس ومدرسة وتدريس من الكلمة العربية درس .

(٤) انظر ما سبق .

السفتة الذين يلتحقون بالمدارس السفلى كانوا يواصلون دراساتهم ٠ وبدلا من ذلك كان بامكانهم أن يختاروا أن يصبحوا نوابا أو قضاه عاديين أو مفتين في الولايات بعد أن يترددوا على مدارس مسجد بايزيد في مرحلة ما ، وهي وظائف كانت كلها مفتوحة أيضا أمام « الدارسين » في المدارس الأخرى خارج نطاق هذه الخطة المركزية (١) ٠ أما الذين يستمرون ويحصلون على مدرسلقات في المدارس « المركزية » ، فقد كانوا يتأهلون لدخول فئة كبار الموظفين الذين يسمح لهم بحضور الاستقبالات التى يعقدها الصدر الأعظم قبل ديوان الجمعة وتلك التى كان يعقدها كل من الصدر الأعظم وشيخ الاسلام أيام الأعياد (٢) ٠ على أن هذه المدرسلقات كانت بدورها تنقسم الى ثلاث مراتب ٠ ولما كانت أدنى المدرسلقات التى كان يمكن منها الحصول على مولوية « كبرى » تتبع المرتبة التاسعة فان أعلى الدرجات كانت تضم المدرسين المختصين بهذه المرتبة والمراتب الأعلى منها وكلها كانت تخضع لاشراف مدرس دار الحديث٠

---

(١) ولم يكن باستطاعة الدانشمندات أن يصبحوا ملازمين ـ بمعنى مرشحين للوظائف ـ الا بعد التخرج من مدارس بايزيد ٠ واذا ما فضلوا الاستمرار فى دراساتهم واختيار مهنة التدريس ، كان عليهم أن يواجهوا تدريبا آخر لمدة سبع سنوات فى الكليات العليا ٠ ولكن ما أن يصبحوا ملازمين حتى كانوا يبدأون فى تقاضى مرتبات ٠

اركين ، بلديه ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ـ ٨ ، دوسون ، ج ٤ ، ص ٤٨٦ ـ ٩ ؛ جيشروا ، ج ١ ، ص ٢٩ ٠

(٢) Ency. of Islam, s. vv. (قانون نامه عبد الرحمن توقيعى) ٠ على أنه تم الاستغناء عن حضور المدرسين (وكبار الملاك) أمام الديوان وذلك فى عام ١٦٥٦ ، حين تولى الصدارة العظمى كوبريلى محمد باشا ـ والسبب فى ذلك هو ضغط الأعمال ٠ عن حضورهم أعياد الأضحى انظر المرجع السابق ، ص ٥٢٠ ٠

وكانت الطبقة التالية تضم مدرسى المراتب السادسة والسابعة والثامنة وكانت الطبقة الثالثة تضم البقية الباقية (١) ٠

وهكذا كان شغل مناصب التدريس فى هذه المدارس الخاصة فى استانبول يعتبر فى المحل الأول استعدادا لمنصب القضاء ٠ وفى القرن الخامس عشر كانت المدرسلقات هى الأخرى تعتبر مراحل انتقال لبعض الوظائف الكتابية فى نظام الحكم مثل وظيفتى النيشانجى والدفتردار (٢) ٠ على أنه يبدو أن الوظيفة الأخيرة كان يشغلها قيوقولو فيما بعد بشكل شبه مستمر وبعد ذلك كانت المدرسلقات لا تؤدى الى الانخراط فى سلك الملالى ٠ وسار هذا التطور جنبا الى جنب مع ضيق مدى التعليم الذى كانت توفره هذه المدارس وربما المدارس بوجه عام ٠ اذ يبدو أنها ـ منذ عهد محمد الثانى وحتى عهد سليمان القانونى ـ كانت تدرس فيها الى حد ما العلوم المعروفة باسم العقلية(٣) وكذلك العلوم الدينية. ولكن يبدو أن العلماء منذ منتصف القرن السادس عشر كانوا فى الأحوال العادية يكرسون كل اهتمامهم للنوع الأخير من هذه المدارس وبوجه خاص للفقه الدينى والعلوم القانونية (٤) . وكان الذين يواصلون الانخراط فى دراسات كالرياضيات والفلك والتاريخ الطبيعى انما يقومون بذلك

---

(١) اركين ، بلدية ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ ـ ١ ٠ وكان مدرسو المراتب العليا ، لا مدرسو الطبقة الثالثة ، هم الذين يحضرون احتفال البيعة الذى كانت تقدم فيه فروض الولاء للسلطان الجديد ـ دوسون ، جـ ٤ ، ص ٥٥٠ ٠

(٢) والحالات المعنية هى قرمانى محمد باشا فى عهد محمد الثانى وجعفر جلبى فى عهد بايزيد الثانى ٠

(٣) عقل من عقل ٠

(٤) انظر على سبيل المثال دوسون ، جـ ٢ ، ص ٤٦٦ ، سيد مصطفى ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ٠

جريا وراء ميل خاص لا لمصلحة مهنية ، مما أدى بمرور الزمن الى اضمحلال مثل هذه الدراسات (١) • وليس من الواضح الى أى مدى كونت جزءا من الدراسات النظامية التى كانت تتوفر في المدارس في العهد العثماني • ويقال ان رئيس أول مدرسة عثمانية في ازنق قد دعم العلوم « العقلية » (٢) • ومن عهد أورخان الى عهد مراد الثاني كان حوالى ستة علماء عثمانيين يؤلفون ، وفى حالة واحدة يترجمون ، مؤلفات فى الرياضيات والفلك والتاريخ الطبيعى (٣) ، ومن المحتمل أنهم كانوا يقومون بتدريسها • وفى عهد محمد الثاني الذى كان ذاته ذا عقلية محبة للاستطلاع ودارسا لكتاب بطليموس فى الجغرافيا (٤) عين على قوشجو ـ وهو من مواطني بلاد ما وراء النهر ، حيث أصبح مديرا لمرصد في سمرقند ـ في مدرسة أياصوفيا باعتباره أستاذا للفلك والرياضيات ووضع أبحاثا فى الفلك والحساب والجبر يقال انها أصبحت لفترة طويلة مؤلفات مقررة فى هذه الموضوعات فى المدارس (٥) • وحدث مرة أخرى فى عهد بايزيد الثاني أن عين رياضي وفلكي في احدى مدارس الصحن ، ولكن رغم احتضـان السلطان له فقد أعـدم بتحريض من بعض المتهوسين من زمـلائه العلماء (٦) باعتباره مفكرا حرا • ورغم أن بعض المؤلفات الخاصة

---

(١) دوسون ، ج ٤ ، ص ٤٧٦ •

(٢) Abdülhak Adnan La Science chez les Ottomans, pp. 9-10.

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢ ـ ١٣ ، ص ١٩ •

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٦ •

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٣ ـ ٣٤ •

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٥ •

ببعض العلوم العقلية ظلت توضع (١) فى القرن السادس عشر فان العلم الوحيد الذى اتضح فيه نشاط بارز جدا هو الجغرافيا (٢) ٠

وقد أثار كشف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح الى الشرق الاهتمام بهذا العلم برغم انعزال العالم العثمانى ، وظهرت عدة مؤلفات تناولت موضوعات جديدة مثل « بحرية » القبطان بيرى رئيس (٣) ٠ ولكن يبدو من المستبعد أن يكون التعليم فى المدارس قد تأثر كثيرا ، ان كان قد تأثر على اطلاق ، بمثل هذه المؤلفات ٠ ومن المشكوك فيه على الأقل ما اذا كانت احدى المدارس التى أنشأها سليمان تهدف بوجه خاص ، كما يزعم أحيانا ، الى حفز دراسة أى علوم « عقلية » باستثناء الطب (٤) ٠ وكان من السهل استثارة العلماء ضد المباحث غير المعهودة ـ وقد اتضحت سهولة اثارة العلماء فى عهد مراد الثالث حين تم تدمير أول مرصد عثمانى كان قد بنى على التلال التى كانت تعلو طوبخانة فى حى غلطة حيث كانت توجد حفرة ضيقة عمقها ٤٠ قدما ـ كان القصد منها أن تقوم مقام تلكسوب بدائى لمراقبة السماء فى النهار ـ بكل محتوياته بايعاز من شيخ الاسلام فى ذلك الوقت بحجة أن الملاحظات الفلكية كانت مصدرا للنحس (٥) ٠

والعلم الوحيد غير الدينى الذى كان يحاط ببعض الاهتمام من

---

(١) وخصوصا على يد المدعو ميرم بك ، وهو حفيد لكل من قوشجو ورياضى فلكى آخر هو قاضى زادئى رومى (المتوفى فى عام ١٤١٢) ـ نفس المرجع ، ص ١٢ ، ص ٤٧ ٠

(٢) راجع نفس المرجع ، ص ٥٥٠ ٠

(٣) نفس المرجع ، ص ٦٣ ـ ٧٤ ٠

(٤) انظر اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ٠

(٥) عدنان ، ص ٧٨ ـ ٧٩ ٠

جانب الجامدين من العلماء هو الطب ، ربما لأن مظهره خيري ــ وقد اعتبر انشاء المستشفيات لفترة طويلة من « الأعمال الخيرية » الجديرة بالثناء • وكانت توجد فى الأراضى العثمانية الأصلية ــ على الأقل فى سبع مدن فى الأناضـــول ــ مستشفيـــات ترجـع الى أيام السلجوقيين (١) • وقد عزز السلاطين وغيرهم هذه المستشفيات فى شتى البقاع التى فتحها العثمانيون • ويبدو أن الطب قد أدرج فى الموضوعات التى كانت تدرس فى الأصل فى مدارس الصحن التى أنشأها محمد الثانى (٢) ، ومن المؤكد أن احدى المدارس السليمانية قد خصصت لذلك وسميت دار الطب (٣) ، كما كان المبنى يضم مستشفى (٤) • ولكن يبدو أن مواد التدريس كانت ترجع الى أيام العصر الذهبى للاسلام فى العصور الوسطى (٥) ، ورغم أن مؤلفا يبدو فيه بعض الابتكار قد وضع فى أوائل القرن السادس عشر (٦)• فقد دب الاضمحلال بالفعل بعد انشـاء كلية السليمانيـة لسبب مربك : فقد كانت توقف أوقاف مغرية على مناصب الأستاذية فيها بحيث جرى وراءها المغامرون وفى أحيان كثيرة كانت توقف على من

---

(١) ورغم أن اركين يحذف أية اشارة اليها حين خطط مناهج هذه المدارس ، نجد عدنان (ص ٣٦) يذكر أن احدى مدارس الصحن كانت تكرس للدراسات الطبية وانها ألحقت بها مستشفى • كما يشير اركين الى هذه المستشفى فى كتابه « معارف » (ص ١٢٤) •

(٢) يورد اركين فى كتابه « معارف (ص ٨٦ و ص ١٢٥) وقفية المجمع • ولا تزال بعض الأجهزة الأصلية محفوظة فى الكلية •

(٣) اركين ، بلدية ، ج ١ ، ص ٢٦٩ •

(٤) انظر اركين ، معارف ، ج ١ ، ص ١٢٥ •

(٥) يادكار ابن شريف ــ عدنان ، ص ٥٣ ــ ٥٤ •

(٦) نفس المرجع ، ص ٨٥ •

لا يستحقون • وربما لم يساعد على الجرى المنتظم وراء الدراسات الطبية أن حكيم باشية السلاطين بدلا من أن يكونوا أساتذة فى الطب كانوا أعضاء عاديين من هيئة كبار العلماء الذين كان بامكانهم ، قبل تولى هذا المنصـــب وبعد اطراحهم له ، أن يقوموا بواجبات أخرى تختلف عن ذلك اختلافا تاما (١) • ورغم ذلك فان ثلاثة على الأقل من حكيم باشيه محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ٨٧) كتبوا أبحاثا طبية حث أحدها على التجربة مع اتباع الطريقة التقليدية وأشار الاثنان الآخران الى التجديدات التى أدخلها الأوربيون فى حقل الطب (٢) • وفى أوخر عهد أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ٣٠) ، حين كانت المؤثرات الأوربية قوية نسبيا بعض الوقت ، كانت النظريات الطبية التى خرج بها باراكلسوس Paracelsus تلقى رواجا لدى بعض الأطباء المسلمين فى استانبول ، وان تكن الجهات الرسمية قد رفضت الأخذ بها لدرجة أن أحد حكيم باشية أحمد أغراه بأن يطلب من ممارسى هذا الطب « الجديد » أن يخوضوا امتحانا قبل أن يسمح لهم بعلاج المرضى ، فى حين كان يحرم تحريما باتا على الأطبـــاء الأجانب أن يمارسوا المهنة • ورغم ما يبدو من أن هذا التحريم قد أبطل بعد وقت قصير فقد حدث قبيل انتهاء عهده أن صدرت الأوامر الى حكيم باشى آخر بأن يراقب كل الأطباء وان لم تصدر أى اشارة خاصة الى هذه النظريات (٣) • ويبدو من المحتمل أن ارتباط الطب بالتقاليد كان يقل قليلا عن ارتباط مهن أهل العلم الأخرى لأن وجود المستشفيات فى كل مكان كان يشجع على اجراء التجارب فى العلاج • ومما تجدر

---

(١) اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ١٢٥ •

(٢) عدنان ، ص ٩٤ و ص ٩٦ و ص ٩٨ ـ ٩٩ •

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٨ ـ ٣٠ • وطبقـــا لما يذكره Russell فى كتابه : Natural History of Aleppo, p. 97. كان يتم الحصول على شهادة بالممارسة من الحكيم باشى فى مقابل « بضعة سكوينات » •

الاشارة اليه أن التطعيم ضد الجدرى كان يمارس فى تركيا قبل أن يلتفت الغرب الى أهميته (١) . ومن ناحية أخرى نجد أن عقبة ضارة كانت تعترض طريق الأطباء المسلمين - اذ كان يحرم عليهم تشريح الجثث ، وهكذا فحتى الميول الدينية لم تكن من القوة بحيث تمنع أثرياء المسلمين ، وعلى رأسهم السلطان ذاته ، من تفضيل علاج الأوربيين أو اليونانيين الذين دربهم الأوربيون (٢) .

ومنذ النصف الثانى من القرن السادس عشر لم يقتصر أمر التعليم الذى كان يتلقنه التلاميذ فى المدارس على القانون والفقة الديني وحدهما بل تدهورت نوعيته وامتد الى المدارس ما تميز به نظام الحكم منذ عهد مراد الثالث حين خفت القيود الخاصة بتعيين شاغلى الوظائف ودخل اليها عدد كبير من الأشخاص غير الأكفاء والجهلة . وكان الطلبة فى المدارس لا يزالون يرغمون على دخول الامتحان ولكن عند نقطة التحول فى تطورهم نحو وضع المدرس ، حين كان من الممكن أن يمنحوا ملازمات بعد استكمال دراساتهم فى مدارس بايزيد ، وجدوها حينئذ تخلع بشكل متزايد على منافسين لم يكونوا قد مروا بالتدريب الشاق الذى مروا به هم أنفسهم ، بل كانوا يتصلون أو يرتبطون بشكل آخر اما بأعضاء ذوى نفوذ من أهل العلم أنفسهم أو بأعضاء أكثر نفوذا من رجال البلاط أو من موظفى الحكومة . ومن هنا فبمرور الزمن أصبح يشغل أكبر المدرسلقات أحيانا أشخاص جهلة تماما برغم كونهم من الرعايا الذين يفترض أن يتلقوا عليهم العلم . وبطبيعة الحال كان همهم هو الحصول على مولويات ، ولكن كان باستطاعتهم فى نفس الوقت أن

(١) عدنان ، ص ١٣٦ .

(٢) دوسون ، جـ ١ ، ص ٣٤٧ .

يتقاضوا المرتبات المربوطة بهذه المناصب المرتبطة بالتدريس. على أنهم لما كانوا لا يصلحون للاضطلاع بالمهام التي كانت تتضمنها هذه المناصب فإنهم أنابوا عنهم في عملهم بعض « خريجي » المدارس. وهكذا أمكن الحيلولة دون حدوث انهيار تام في النظام · ونجح هؤلاء الأشخاص البديلون – وكانوا يعرفون باسم الخوجات (١) – في المحافظة عليها بدرجة معقولة · ورغم هذا لم يعد المدرسون يحظون بالتكريم الذي تمتعوا به في الماضي · وفي الحق لقد تزايد اعتبار المدرسلقات مجرد مصادر للدخول، ويقال ان شاغليها لم يكونوا أحيانا يعرفون أين توجد المدارس التي كان عليهم أن يدرسوا فيها – بل انهم في حالات معينة كانوا يعينون في مدارس لم تعد موجودة كما زاد عدد المدرسلقات المركزية في الدرجات الأدنى من الصحن التي ظلت تضم ما لا يعدو ثمانية · ولما كان المدرسون الذين يزيدون على ذلك لا تتولى المؤسسات الأصلية الانفاق عليهم فقد منحوا قضاءات يتعيشون من مواردها – وقد وضعت ادارتها هي الأخرى في أيدي مندوبين عنهم · وقد أدت هذه الزيادة بدورها الى انكماش الترقي الى حد كبير بحيث أصبحت الترقيات آلية ولا ترتبط ارتباطا قويا بالجهد · ثم حدث بالتدريج أن أصبح أعلى ثمانية من المدرسين (٢) يمنحون بانتظام مولويات (٣) سنوية لمدة سنة . ثم يحل محلهم الثمانية الذي يلونهم في القائمة (٤) · وفي القرن الثامن

---

(١) راجع ما سبق ·

انظر دوسون ، جـ ٤ ، ص ٤٩١ ·

(٢) بمعنى مدرسي دار الحديث ومدرسي مدارس السليمانية الأربع وثلاث آخرين ·

(٣) ادنى ثمانية التي اصبحت لهذا السبب تسمى مخرج (اذا كانت هذه المناصب هي التي تمخضت عنها) ·

(٤) قوجي بك ، رسالة (ترجمة برناور Bernhauer ، ١١٧١) ، ص ٢٩٠ وما بعدها · راجع جودت ، جـ ١ ، ص ١١٢ – ١٥ ، اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ٢٧١ – ٢ ·

عشر كان الدانشمندات الذين يكملون الدراسات التى تؤهلهم لأن يصبحوا ليس فقط مدرسين يعينون أحيانا حتى يحصلوا على قضاءات (الطريقة العادية) في مدارس من الطبقات الاثنى عشرة بل أيضا على مراكز في وظيفة شيخ الاسلام وقضاة العسكر وقاضي استانبول (١) وتعليم السفته وأطفال الفقراء في المساجد (٥) • والحق أنه ما أن حل هذا الوقت حتى أصبح من المعتاد أن يقدم كل التعليم في المساجد التى كانت المدارس مبنية حولها لا في المدارس نفسها التي خصصت حينئذ لايواء الطلبة (٣) • وفي القرن الثامن عشر بدا أن المدرسين قد استرجعوا احترام الناس الى حد كبير ، (٤) ولا شك أن من أسباب ذلك النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به كبار العلماء خلال هذه الفترة •

وقد حدث خلال القرن السادس عشر قبل أن يدب هذا التدهور أن أبدى العلماء دلائل على الهوس المتزايد • فبعد وفاة سليمان أصروا على استبدال بعض المؤلفات المقررة التى كانت قد شكلت أساس دراسة القانون في المدارس بأخرى خالية من الفلسفة التى لمسوها في الأولى (٥) • وفي النصف الأخير من القرن أعدم ثلاثة من أهل العلم بتهمة الفكر الحر ـ وكان أحدهم مدرسا في احدى مدارس العاصمة قال بأبدية العالم وقدرية الأحداث (٦) • وكان الخطر على استيراد الكتب المطبوعة يعترض أى محاولة لاستفادة العالم

---

(١) مثل مراكز الفتوى أميني والتلخيصجي •

(٢) دوسون ، جـ ٤ ، ص ٤٩٠ •

(٣) اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ٨٥ •

(٤) دوسون ، جـ ٤ ، ص ٤٩٤ •

(٥) اركين ، بلدية ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ •

(٦) عدنان ، ص ٨٨ ـ ٨٩ •

العثمانى من التقدم المعاصر الذى أحرزته المعارف الأوربية (١) • يضاف الى هذا أن الطباعة لدى المسلمين ذاتها كانت محرمة حتى بداية القرن الثامن عشر ، وهذا وحده يؤكد أن العلم العثمانى قد كتب عليه الجمود • ورغم ذلك فقد استمر وضع المؤلفات فى الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب حتى القرن السابع عشر (٢) • على أن واضعى هذه المؤلفات لم يكن يشترط أن يكونوا قد تلقوا تعليمهم فى المدرسة • وأشهر هؤلاء المؤلفين مصطفى بن عبد اللاه المعروف باسم حاجى خليفة أو كاتب جلبى (٣) الذى كان ابنا لأحد الخيالة الثابتين وكان هو ذاته سكرتيرا فى أحد مكاتب الباب العالى • وقد نعى اهمال علماء المدرسة للعلوم العقلية واستطاع أن يحصل من مصادر أخرى على معرفة واسعة فى الطبيعيات والفلك والهندسة والجغرافيا وأن يلقى فيها دروسا بنفسه وأن يؤلف عددا من المؤلفات البارزة • وعلى حين أن العلماء كانوا يحتقرونه لعدم حصوله على تعليم فى المدرسة فانه كان فى الواقع أول رجال العلم العثمانيين الذين كانوا على صلة بالفكر العلمى الأوربى وحاولوا ادخاله فى أملاك السلاطين (٤) • والحق انه يتضح أن دراسات كثير من المواد التى أهملوها كانت مستمرة فى الواقع فى أماكن أخرى بالرغم من انحدار المدارس الى مستوى مجرد معاهد دينية لا تتصف بالكفاءة •

وعلى سبيل المثال نجد أن المدارس المخصصة للعجمى أو غلانات والاج أو غلانات (٥) من خدم قصور السلطان كانت متفوقة فى بعض

---

(١) نفس المرجع ، ص ٨٧ •

(٢) نفسه ، ص ٩١ وما بعدها •

(٣) سمى حاجى خليفة لأنه كان قد أدى فريضة الحج ـ وكان خليفة (= تلقه) فى الادارة الحكومية التى كان يعمل بها •

(٤) عدنان ، ص ١٠٣ ـ ٢٠ •

(٥) انظر ، الجزء الثانى ـ الملاحق •

النواحي على المدارس . وكان التلاميذ يتلقون فيها هي الأخرى العلوم (الدينية) ، وكان أوليا جلبي يعتبر التعليم الديني الذي كان يتلقنه الاج أو غلانات في أيامه ــ اذ كان هو واحدا منهم ــ أحسن من التعليم الذي كانت توفره المدارس المعاصرة (في أواسط القرن السابع عشر) . وبالاضافة الى اللغة العربية كانت كل من اللغتين الفارسية والتركية تلقن ليس فقط في مدارس الاندرون ، بل أيضا في مدارس العجمي أو غلان . ورغم أن كثيرا من وقت الغلمان كان يستهلك في الحصول على المهارات اليدوية التي يحتاج اليها الأمر في شتى خدمات القصور وفي التمرس في ركوب الخيل وضرب النبل وقذف الحربة (١) . فقد تعلموا كيف يتخاطبون بطريقة مهذبة وأن يكتبوا الشعر والنثر وأن يؤلفوا ويعزفوا القطع الموسيقية . ويبدو أن هذه المدارس أيضا هي التي خرجت معظم المعماريين والنحاتين والرسامين وكاتبي الحوليات والخطاطين الذين تركوا المؤلفات الرائعة التي نالت اعجابنا (٢) . وكانت مدارس العجمي أوغلان وغيرها من المؤسسات العسكرية والبحرية مثل الطوبخانة والترسانة (٣) هي التي خرجت صانعي المدافع ومصممي وبناة السفن وغير ذلك ممن كانت تحتاج اليهم قوات السلطان المسلحة . كذلك كانت بعض تكايا الدراويش تحقق غرضا تعليميا . وهكذا كانت تكايا البكتاشية مراكز لترويج الموسيقى على حين كان يفد المتعلمون الى تكايا المولوية ليس فقط لدارسة وعزف الموسيقى الأكثر تعقيدا بل أيضا لدراسة مؤلفات كبار المتصوفة وبوجه خاص

---

(١) الرمي بالحراب المصنوعة من جريد النخل وكانت تسمى « جريد » انظر :
Oppenheim, Der Djerid und das Djerid-Spiel ; Islamica, ii, (4), 490-617.

(٢) اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ٨ ــ ١١ ، ص ٢٣ ، ص ٢٨ .

(٣) انظر الجزء الثاني ــ اللاحق .

ـ بطبيعة الحال ـ المثنوى المشهور الذى وضعه مولانا جلال الدين الرومى ذاته (١) ٠

وحتى أوائل القرن الثامن عشر كان الشعر العثمانى التركى مستبعدا تماما من منهج المدارس رغم اصطناعه النماذج الفارسية ورغم أن الالمام باللغة الفارسية كان لا غنى عنه بالنسبة الى الشعراء الأتراك ٠ وكان ثمة سبب لذلك ـ فقد كان أكثر المشايخ جمودا يكرهون اللغة الفارسية بسبب ارتباطها بالتصوف ، وكان أكثر السفته جهلا أو تعصبا يقطعون بكونها « لغة الجحيم » (٢) ٠ على أنه بعد عقد معاهدة بساروفتز فى عام ١٧١٨ وقعت مقاليد الحكومة لمدة تقرب من اثنى عشر عاما ـ فى عهد أحمد الثالث ـ فى يد الصدر الأعظم داماد نوشهرلى ابراهيم باشا ، وفى المدرسة التى أسسها هذا الوزير الجذاب المستنير فى عامى ١٧٢٠ ـ ١ استلزم الأمر تدريس اللغة الفارسية والرياضيات (٣) ٠ وهذه الفترة القصيرة جدا ، المعروفة باسم لاله دورى ـ عصر الزنبقة (لأن زراعة الزنابق حينئذ أصبحت شائعة لدى الموسرين) ـ كان من الممكن أن تؤدى الى نهضة عثمانية ، لولا انتهائها فجأة فى عام ١٧٣٠ بسبب الثورة التى كلفت أحمد الثالث عرشه وابراهيم باشا حياته ٠ ولكن أثناء هذه الفترة بذل ابراهيم كل التشجيع الممكن لأهل العلم ٠ فلقد ألف لجنة تتكون من ٢٥ باحثا لترجمة المؤلفات التاريخية العربية والفارسية الى اللغة التركية ، وجعل المؤلفات العلمية والأدبية سهلة التداول وشديدة الوفرة فى المكتبات العامة التى افتتحت خمس منها فى ذلك الوقت (٤) ٠ وأهم من هذا كله أنه هو الذى شجع على

(١) اركين ، معارف ، جـ ١ ، ص ٢٠ ٠

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٣ ـ ٤ ٠

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٢ وص ١٢٨ وص ١٣٤

(٤) عدنان ، ص ١٣٦ ٠ راجع :
E. Z. Karl, art. 'Ahmed III, in I.A.

تأسيس أول مطبعة عثمانيـة إسـلامية وهي المطبعة التي صنعها الترنسلفاني الذي اعتنق الاسلام المدعو ابراهيم المتفرقة . وكانت توجد بالفعل مطابع عثمانية يونانية وأرمنية ويهودية وبعضها كان يطبع المؤلفات بالحروف العربية . ولكن العلماء كانوا حتى عصر الزنبقة كما سبق أن ذكرنا قد عارضوا طبع المسلمين للكتب . وحتى حين خول ابراهيم المتفرقة نهائيا أن ينشيء مطبعته ــ بالتعاون مع سـعيد محمد أفندي الذي بعد أن رافق والده (١) في بعثة دبلوماسية الى باريس ، رجع أكثر تأثرا بالثقافة الغربية ــ قررت فتوى أنه لا يسـتطيع أن يطبع الا القواميس والمؤلفـات العلمية والتاريخية . وقـد حرم عليه نشر أي كتـاب من الممكن أن يعتبر دينيا . وربما كان عداء العلماء أيضا هو السبب في اطراح المشروع بعد وفاته في عام ١٧٤٥ الى أن بعث من جديد قرب نهاية القرن. والحقيقة أن ذلك لم يتعد كونه مشروعا فرديا . فلم يكن ابراهيم مجرد مؤسسة ومديره بل أيضا روحه المحركة ــ فكان يقوم بنفسه بتصميم وقطع الحروف ، وكتابة مقدمات المؤلفات التي تنشر ، وتزويدها بقوائم المحتويات ورسم خرائط لتوضيحها . وفوق ذلك كان هو الذين يقوم باختيارها . لم ينشر سوى ١٧ مؤلفا ربما كان أهمها « كونيات » كاتب جلبي ــ الجهانوما ــ والاضافات التي وضعها هو عليه والتي استعان فيها بمصادر أوربية ، بل ووضع اشارات دقيقة الى أنظمة كوبيرنيكوس وتيشو براه Tycho Brahe وجاليليو وديكارت . وحين أشار الى نظرية كوبيرنيكوس لاحظ أن الاعتقاد في هذه المبادىء لم يكن اجباريا . وقال ان العلماء المسلمين

---

(١) ومن الغريب أنه كان يسمى يكرمى ــ سكز محمد جلبي (أي الثامن والعشرين) . انظر : كرال ــ المقال المذكور .

ـ على العكس من ذلك ـ باستطاعتهم أن يرفضوها وبذلك يستطيعون أن يدعموا آراء بطليموس التي يعترفون بفعاليتها (١) ·

ويتضح مما سبق عدم استعداد كبار العلماء في ذلك الوقت للسماح بانتشار أية آراء جديدة بين مسلمي الامبراطورية · وفي الحق يبدو أن مشروع ابراهيم قد ثبت فشله في تنوير الطبقات الحاكمة العثمانية بأي درجة معقولة خلال القرن الثامن عشر · وطبقا لما يذكره البارون دي توت الذي أرسلته الحكومة الفرنسية لبذل النصيحة للباب العالي في نهاية فترة دراستنا ، كان الوزراء العثمانيون في ذلك الوقت من الجهل بجغرافية أوربا ـ على سبيل المثال ـ بحيث اعتقدوا بعجز أي سفن روسية عن دخول البحر المتوسط من جهة الغرب (٢) · وبرغم أن بامكاننا أحيانا أن نتجاهل بعض تعليقاته العدائية على اعتبار أن مردها سوء الفهم وروح العداء ، يبدو من المحتمل أنه لا يبالغ كثيرا في تصوير المسلمين العثمانيين في ذلك الوقت بأنهم بوجه عام شديدو الجهل بالمعلومات الصحيحة نتيجة لاتجاهاتهم السلبية ·

أما فيما يتعلق بالولايات العربية فهناك شواهد كافية على وجود تقاليد نشطة في العراق وسوريا ومصر · ونحن نخطيء تماما حين نركز على كلية ـ مسجد الأزهر في القاهرة باعتباره الهيئة الوحيدة من هذا النوع ، برغم أنه لا شك كان أهم هذه الهيئات في البلاد العربية (لأنه كان أغناها) · وفي هذه الفترة كان الأزهر ينعم بهيئة تدريس كافية ويتمتع بأوقاف وفيرة ـ اذ كان يضم عددا يتراوح بين ٦٠ و ٧٠ أستاذا (بالاضافة الى عدد من صغار

---

(١) T. Hala i Kun, art. Ibrahim Muteferrika in I. A.

راجع عدنان ، ص ١٣١ ـ ٥ ·

(٢) Memoirs, iii, p. 14.

المدرسين والموظفين) (١) ، وعددا كبيرا من الطلبة الوافدين عليه من القاهرة ذاتها ومقاطعات مصر ، ومن بلاد اسلامية أخرى · وبسبب شهرته العظيمة أصبحت المدارس الأخرى وكليات مساجد القاهرة الأخرى (٢) تدور في فلكه · ورغم أنهما كانت تحتفظ ببعض الاستقلال من حيث أوقافها فان وظائف التدريس كان يشغلها مشايخ الأزهر كقاعدة عامة · وبالاضافة الى هذا كان يوجد عدد يتراوح ما بين ١٨ و ٢٠ مدينة في مصر بها كليات ـ مساجد يتراوح عددها ما بين واحد وسبعة أو حوالى ذلك · وفي هذه الكليات بدورها كان كبار المدرسين بوجه عام مشايخ محليين تلقوا دراساتهم في الأزهر ـ ولكنهم بدورهم كانوا يمدون الأزهر بعدد كبير من أبرز دارسيه (٣) · وكانت أنشط مدارس الأقاليم توجد في رشيد ودمياط ودسوق والمحلة والمنصورة وطنطا في الدلتا وطهطا في الصعيد (٤) ·

وكان التعليم في سوريا أقل مركزية ـ فبالاضافة الى المركزين الرئيسيين في حلب ودمشق كانت توجد مدارس هامة في الولايات في القدس ونابلس وكليات مساجد في كل المدن (٥) · والى جانب

---

(١) شابرول ، ص ٦٧ ـ ٧٠ ، يقدر عدد الأساتذة ما يتراوح بين أربعين وخمسين ـ ولكن أثناء الاحتلال الفرنسى نقصت هذه الأعداد الى حد كبير بسبب هرب الكثيرين واعدام الآخرين · ويقدر نابليون عددهم بستين ·
(Commentaries, ii, 362-3) quoted chavvin, Légende, 22).

(٢) يشير الجبرتى الى حوالى عشرين مدرسة وحوالى هذا العدد من المساجد التى كانت مراكز للتعليم ، وفي بعضها كان لا يوجد أكثر من مدرس واحد ، ولكن واحدة أو اثنتين منها كانت مؤسسات هامة الى حد كبير ·

(٣) ومما تجدر ملاحظته بهذا الصدد أنه لم يكن يوجد بين كبار مشايخ الأزهر في القرن الثامن عشر قاهرى واحد ·

(٤) اشارات مستقاة من الجبرتى والمعلومات الواردة في كتاب على باشا مبارك : الخطط التوفيقية ·

(٥) عن القدس لاحظ بوجه خاص المرادى ، جـ ١ ، ص ١٧٥ ، مما يتضح

المسجدين الرئيسين في دمشق وحلب ـ وكانا طبقا للتقاليد القديمة مركزين رئيسيين للتعليم ـ كان يوجد في كلتا المدينتين عدد من مدارس المساجد والمدارس ، وبعضها مرتبط بالمساجد الرئيسية وبعضها الآخر مستقل عنها • ويشير المرادى خلال القرن الثامن عشر الى ما لا يقل عن ٤٥ مدرسة في دمشق بخلاف المساجد ، ويحتمل أن عدد المدارس في حلب لا يقل كثيرا عن ذلك (١) • وكان من الواضح أن الطلبة السوريين أكثر استعدادا من الطلبة المصريين للسفر خارج حدودهم ، وبطبيعة الحال كان عدد كبير منهم يتوجهون الى الأزهر حيث كان الرواق السورى من أنشط الأروقة (٢) على حين كان بعضهم الآخر يتجه الى مكة والمدينة وعدد كبير ـ وبخاصة من شديدى الطموح ـ يتجهون الى استنبول جريا وراء الانخراط في الادارات التركية (٣) ومن ناحية أخرى كانت دمشق مركزا مرموقا لدى طلاب البلاد الأخرى ربما بسبب جاذبية وقوعها على طريق الحج •

أنه كان من الممكن الحصول على تعليم كامل هناك ، وكانت نابلس مركزا رئيسيا للتعليم الحنبلى (راجع المرادى ، جـ ١ ، ص ٨٢ و ص ١٩١ ـ ٢ ، جـ ٣ ، ص ٤١ ، جـ ٤ ، ص ٣١ ـ ٢) • ومن المدن التى ترد الاشارة الى وجود كليات بها : الرملة وحمص وغزة وصيدا وحماة وادليب وعكا وطرابلس وبعلبك •

(١) ملحوظات فولنى عن التعليم لدى مسلمى سوريا (وفى دمشق كان رجال القانون لا يستغلون علمهم المجرد بأى شكل من الأشكال : جـ ٢ ، ص ٢٩٦) ويجب أن لا نكترث باشارته السخيفة الى المكتبات (جـ ٢ ، ص ٩١٠ ، لأنه يتضح لنا ، وبخاصة في الفصلين الرابع والثلاثين والخامس والثلاثين من كتابه ، أنه كان يجهل الحياة الداخلية التى كان يحياها السكان المسلمون • ويقدم رسل (ص ٩٦ وما بعدها) صورة صادقة عن أوجه النشاط العقلى فى حلب •

(٢) عن الأروقة انظر ما يلى •

(٣) المرادى ، جـ ١ ، ص ٢٢ ، ص ٥٠ ، ص ٥١ ، ص ٦٩ ، ص ١٠٧ ، ص ١٧٦ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢٦٠ (شافعى ، بشكل استثنائى) ، جـ ٢ ، ص ٢٧ ، ص ٧٣ ، (أصبح قاضى عسكر الأناضول) ـ وفى أجزاء متفرقة من كتابه •

وكان العراق أقل حظا بعد أن استطاع بصعوبة أن يحافظ على تقاليده خلال القرون المضطربة التي أعقبت الاحتلال المغولي في عام ١٢٥٨ . ورغم ذلك فقد كانت توجد مدارس بامكانها تخريج طلبة معترف بهم في بغداد (١) والموصل ـ وفي الحق أن بعض كبار المسافرين الأذكياء في القرن الثامن عشر كانوا من الموصل (٢) ـ ويرد ذكر آخر في البصرة وشهزور وغير ذلك . يضاف الى هذا أن الكليات الشيعية الكبرى في النجف وكربلاء كانت تجتذب الطلبة الشيعة ليس فقط من فارس بل أيضا من الهند وسوريا ، الا أن العلاقات المضطربة بين السنة والشيعة جعلت أي احتكاك تعليمي أمرا بعيد المنال . وأخيرا فان المدينة ومكة كانتا لا تزالان مركزين

---

(١) راجع المرادي ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ، ج ٣ ، ص ٨٤ ـ ٨٦ و ص ١٧٩ . وتختص ثاني هذه الفقرات بالشيخ عبد الله بن حسين السويدي (١٦٩٢ ـ ١٧٥٦) الذي أحرز سمعة مدوية لنجاحه في ترؤس المؤتمر الذي انعقد في الحلة في عام ١٧٤٣ بحضور نادرشاه للتوفيق بين التعاليم السنية والشيعية ـ انظر :

L. Lockhart, Nadir Shah, London 1938, 232-3 and A. E. Schmidt, Zur Geschichte der sunnitisch-schiitischen Beziehung (in Russian) in : 'Ikd al-Cuman (Barthold — Festschrift) Tashkent, 1927; 67-107.

وقد طبع عدد كبير من أعمال عبد الله السويدي الأدبية ، بما في ذلك رحلاته في نجد ، ونحن نجد أن البحاثة العراقي محمود شكري الالوسي يأخذ ـ فيما كتبه عن حياة الباحثين العراقيين تحت عنوان « المسك الأذفر » (بغداد ، ١٩٣٠) ـ يردف ما كتبه عن الشيخ عبد الله (٦٠ ـ ٦٤) بملحوظات خاصة بابنائه وأحفاده وأبناء أحفاده (٦٥ ـ ٨٦) الذين برزوا باعتبارهم باحثين وكتابا .

راجع أيضا :

C. Brockelmann, Geschichte der arbischen Litterature, Supplement band ii, (Leiden, 1938), 501, 508, 895.

(٢) المرادي ، ج ٢ ، ص ٧ ـ ٨ ، ص ١٠٦ ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، ج ٣ ، ص ١١٧ وغير ذلك .

لبعض النشاط التعليمى الذى كان يباشره المشايخ المقيمون والزائرون من بلدان أخرى (١) .

ومن الناحية العمليـة كان ينفق على كل المدارس ومنـاصب التدريس من أوقاف الأراضى والمبانى التى اشتركت فيها أجيال من الخيرين . وكانت قوة الأزهر راجعة الى ثروته وتنوع أوقافه بالاضافة الى تلقيه هبات من الحكومة (٢) ، وهى ميزة استثنائية لم تشترك فيها الا مكة والمدينة . وفى كثير من الأحيان أيضـا كان الأمراء والبكوات والمواطنون الأثرياء يقدمون الهدايا الى العلماء (٣) وكان سلطان مراكش يرسل هدية سنوية (٤) . وكان مؤسس المدرسة يقوم باستمرار برصد الأوقاف اللازمة للانفاق عليها وعلى الطلبة أيضا ، ولكن ليس باستمرار على المدرسين . وكانت أحوال هؤلاء تختلف اختلافا كبيرا : فبعضهم كان ينعم بدخل كبير من دخـول الأوقاف أو ادارتها (٥) ، ولكن يحتمل أن الأغلبية كانوا لا يحصلون

---

(١) على سبيل المثال المرادى ، جـ ٣ ، ص ٢٠٣ . وكثيرا ما كان الباحثون قبل أو بعد أداء فريضة الحج يقضون بعض الشهور أو السنوات فى الحجاز حيث كانوا يقومون بالدراسة والتدريس .

(٢) وطبقا لما يذكره شابرول (ص ٦٨) كان المسجد يتلقى سنويا ٥٦٠٠٠ أردب من القمح لتوزيعها على التلاميذ . ولم يكن التلاميذ يتلقون مؤنا . بل قليلا من الاعانات . ويتضح من البيان المالى الذى قدمه ستيف (٣٧٧ ــ ٨) أن حسابا ماليا قدره ٥٩٨ر٢٩٦ بارة خاصة بالأزهر كان يقسم كالآتى : ٥٧٦ر٠٣٠ للعلماء (أى المدرسين) ، ١ر٧٧٧ لشراء الشموع و ٢٠ر٤٨٩ لتوزيع الأرز والعسل سنويا على الفقراء والعميان خلال شهر رمضان . ويحتمل أن المشايخ كانوا يشاركون أيضا فى توزيع مبلغ ١ر٢٩٥ر٥٣٤ بارة كانت مخصصة للمشايخ والعلماء ، ولكنه كان يدفع لهم ، شأنه فى ذلك شأن المخصصات الأخرى ، بورقة مشكوك فى أمرها (انظر ما سبق) .

(٣) على سبيل المثال الجبرتى ، جـ ٤ ، ص ١٦٠ ، ص ١٦١ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(٥) وفى سوريا على الأقل كان التعيين لهـــذه الوظائف (ويسمى توالى

بصورة مباشرة الا على مبالغ قليلة من التعليم ، وكانوا يعيشون على المصادر غير المباشرة التي كانت تعود عليهم من مناصبهم (١) ٠

وليس ثمة دليل على التدهور الخطير في مستويات التعليم أو وسائله في الولايات العربية خلال القرن الثامن عشر فيما لو قارناه بالقرنين السابع عشر والسادس عشر ٠ حقيقة كان يوجد تذبذب دائم في أوضاع المدارس تبعا لريع أوقافها ونزاهة القائمين عليها ٠ ولكن على حين أن بعض المدارس اضمحلت أو أغلقت أبوابها لهذه الأسباب(٢) فان العجز كان يتم تعويضه بوجه عام بانشاء مؤسسات جديدة ٠ وفي هذا المقام كما هو الحال بالنسبة الى نواح أخرى ، حافظ الأمراء المماليك على تقليدهم القديم الخاص برعاية الدين والعلم (٣) برغم أن أعمالهم الخيرية أحيانا ما تتعرض لنقضها أو تقلصها على أيدي خلفائهم وبخاصة في ربع القرن الأخير (٤) ٠

وبمجرد دخول الطالب كلية المسجد أو المدرسة كان يتم ربطه بمؤسسة كانت تزوده بجرايات أو مرتبات صغيرة أو بكليهما ،

وتدريس) يتم بشهادة يقدمها الموظف المناسب في استانبول ـ ولكن لا توجد اشارة الى أن التعيينات في وظائف التدريس المأجورة في مصر كانت تحول الى استانبول ٠

(١) هناك اشارة واحدة فقط الى شيخ يطلب أجرا من التلاميذ ، وهو الرياضي حسين المحلي (الجبرتي ، جـ ١ ، ص ٢١٩ ـ هامش) ٠ راجع أيضا شابرول ، ص ٦٨ ـ ٦٩ ٠

(٢) انظر ما يلي ، الفصل الثاني عشر ، حول مناقشة عامة لادارة الأوقاف ـ انظر أيضا رسل ، ص ٩٧ ٠

(٣) عن ملخص للمباني والاصلاحات الجديدة في هذه الفترة انظر :
S. Lane-Poole, The Story of Cairo (London, 1906), pp. 297-302.

(٤) وهكذا استولى المماليك على مصادر الدخل التي خصصها محمد بك أبو الذهب لمدرسته الجديدة (التي وصفها لين بول ، ص ٣٠١) بعد وفاته في عام ١٧٧٥ ، وسرعان ما اضمحلت المدرسة (الجبرتي ، جـ ١ ، ص ٤١٨ ـ ١٩) ٠

ويبدو أن التلاميذ في معظم المدارس كانوا يسكنون المبنى أو مكانا قريبا منه تحت اشراف كبير المفتشين · على أن أعدادهم كانت كبيرة في الأزهر (١) ولهذا كانوا يوزعون على مختلف الأروقة التي كانت تحشد على أساس جغرافي في معظم الأحوال وكان لكل منها شيخه ، وهيئة تدريسه بحيث كان يشكل تنظيما منفصلا (٢) · وكانت أهم الأروقة الأجنبية رواق الأتراك ورواق الشوام ورواق المغاربة · وكان رواق الطلبة العميان من أكبر الأروقة ، وكانت الخصومات بين الأروقة أمرا عاديا ، وكان الطلبة بوجه عام يشتركون أحيانا في مظاهرات عنيفة (٣) ·

ولم يوجد بأية كلية أو مدرسة برنامج محدد للدراسات ، ولما كان معظم الطلبة يبدءون دراساتهم في سن مبكرة ولم يكونوا يتلقنون سوى الدراسات التي توفرها مدارس القرآن ، كانت السنوات القليلة الأولى تنفق بوجه عام في دراسات تمهيدية (بما في ذلك اللغة) تحت اشراف صغار المدرسين (٤) · وفي مرحلة

(١) يكاد يكون من المستحيل تقدير العدد الكلي لطلبة الأزهر خلال القرن الثامن عشر ، ولكن يحتمل أنه كان يقل عن ٣٠٠٠ ، يحتمل ان الفا منهم كانوا من خارج مصر ·

(٢) ويحتمل أنه كان يوجد في ذلك الوقت ما يقرب من ٢٥ رواقا ، من بينها أروقة الأكراد الأتراك والعراقيين والتكروريين (من حوض النيجر) والبورنيين والصوماليين والهنود والجاويين والافغانيين والخراسانيين وعدة أرقة للطلبة من شتى محافظات مصر ومن سوريا ومن شبه جزيرة العرب · انظر أيضا : لين ، المصريون المحدثون ، الفصل التاسع ·

(٣) الجبرتي ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ، ص ١٠٢ · وكان من المتعذر السيطرة على الطلبة العميان بوجه خاص ·

(٤) وفي سوريا على الأقل يبدو ان بعض مدرسي اللغة العربية على الأقل لم يكونوا من المشايخ بل من العلمانيين : راجع المرادي ، جـ ٣ ، ص ٨٦ · ومن المحتمل أيضا ان كلا من أروقة الازهر كانت له هيئة تدريس خاصة بصغار الطلبة ·

متقدمة كان الطالب يحضر محاضرات كبار المشايخ في الفروع المعنية من العلوم الدينية والقانون التي كان يود تعلمها • وكان مدى الدراسات – كما هو الحال في معظم المعاهد الدينية – (١) ضيقا نسبيا ، فكان يقتصر على العلوم اللغوية العربية بما في ذلك البلاغة والنثر ، والعلوم الدينية والفقه الديني والمنطق ومبادىء الرياضيات وفي سوريا وشبه الجزيرة العربية وفي المدارس التابعة للطرق الدينية كانت المؤلفات الصوفية تدرس كذلك (٢) • وكان الذين يودون أن يصبحوا كتبة وسكرتيرين يمرون أيضا بقسط وافر من الدراسات الدينية العادية ، ولكنهم كانوا ينتهون بمنهج خاص من الدراسات على أيدي خطاطين (٣) • وكان الطلبة الآخرون ينهون دراساتهم بمجرد أن ينتهوا من الحصول على الأساس الضروري اللازم لمستقبلهم باعتبارهم أئمة للمساجد وقضاة ومفتين وما شابه ذلك • وواصل عدد قليل منهم دراساتهم ليصبحوا في النهاية مدرسين وأساتذة بعد اجتياز بعض الاختبارات التمهيدية التي كان يجريها زملاء المستقبل وبطبيعة الحال لم تكن توجد امتحانات أو شهادات عامة • وكان كل طالب يدرس كتابا مع مدرس يتلقى منه اجازة بأن يدرس هذا الكتاب ، ولكن قبل أن يسمح له بالتدريس في الأزهر كان من الواضح أن الأمر يتطلب تفويضا من الشيخ الأكبر لجامع الأزهر الذي كان يرأس هيئة العلماء في مصر (٤) •

---

(١) وحتى الازهر لم يكن جامعة بالمعنى الغربي •

(٤) راجع حياة عبد الغني النابلسي في المرادي ، جـ ٢ ، ص ٣٠ – ٣٨ • وسنشير فيما يلي الى بعض فروع العلم النادرة •

(٣) راجع المرادي ، جـ ١ ، ص ٧٣ ، ص ٩٧ – وغير ذلك • وكان الخطاطون يكونون طائفة على درجة كبيرة من الأهمية ، وكان شيخها من الأتراك ، ويحتمل ان معظم اعضائها كانوا أيضا من الاتراك • (راجع الجبرتي ، جـ ١ ، ص ٣٨٤ ، جـ ٢ ، ص ٢١١) •

(٤) شابرول ، ص ٧٠ •

وباستثناء بعض القيود التي كان يفرضها العرف والعادات يبدو أن الكليات كانت تتمتع بقسط طيب من الحرية . وبعد أن يكون المدرس قد وطد أقدامه في المسجد أو المدرسة ، كان يقوم بتدريس نص معين لمن يهتمون بالحضور اما بالاملاء أو بالتعليق (١)، وكان معيد يقوم بوجه عام باعادة الدرس على الطلبة الأصلاء . وفي خلال الدرس كان الحاضرون أحرارا في أن يسألوا المدرس أو في أن يجادلوه (٢) ، وفي الحق ان النجاح في مثل هذه المجادلات هو الذي أضفى على صغار المدرسين شهرتهم الى حد كبير .

وبعد هذه النظرة العامة الى النظام التعليمي في المدرسة يتبين لنا ما كان يتضمنه من ملامح حسنة عديدة .

وقد كتب أحد المراقبين في أواخر القرن التاسع عشر « أن تنظيم جامعة الأزهر كامل بشكل مثالي . فأفقر الشباب الذين يأتون اليه موضع للترحيب المباشر ويتلقون كل ما يعرفه الأساتذة .. وهم يتلقون أعلى تعليم بامكان المسلم أن يتلقنه ـ وفقا للطرائق الاسلامية دون أن يطلب منهم دفع قرش واحد » (٣) .

ولكن كان ثمة كثير مما يمكن أن يحد من هذه الصورة المثالية ـ فكان من الممكن أن تنخرط نسبة من الطلبة في الأزهر أو في المدارس الأخرى لمجرد الاشتراك في التوزيع المجاني للطعام مما كان يتمتع به التلاميذ . ولكن اذا كانت أبواب تعليم المدرسة من الناحية المثالية مفتوحة أمام كل طلاب العلم ، فان وظيفة المشايخ من الناحية

---

(١) وقد وصلتنا نماذج لمدرس كان يحضر دروسه ٥٠٠ تلميذ (المرادي ، جـ ٢ ، ص ٢٧٢ ، جـ ٤ ، ص ٥٠) ومن ناحية أخرى نسمع عن « مدرسين » في الأزهر لم يكن لديهم احيانا تلميذ واحد . (الجبرتي ، جـ ٢ ، ص ٩٩) .

(٢) شابرول ، ص ٦٩ .

(٣) S. Lane-Poole, Social Life in Egypt, p. 84.

العلمية كادت تكون وراثية . ونفهم من المصادر أن ذلك كان يفوق في مصر ما هو موجود في سوريا حيث كان التنظيم من المرونة بحيث يسهل على من لا ينتمون الى هذه المهنة أصلا أن يلتحقوا به .

ولنفس السبب نجد أن الارتباطات الأسرية بوجه عام كانت أكثر أهمية من مواهب التلميذ الشخصية . كما أن المدرسين أنفسهم لم يخلوا من مساوىء النظام شبه الوراثي . ويلحظ المؤرخ المرادى أن أبناء الأسر البارزة كانوا أحيانا يعينون في وظائف التدريس دون مؤهلات ، وكانوا لا يقومون بأى تدريس على الاطلاق ، وأنه برغم أن شاغلي وظائف الأساتذة كان عليهم أن يدرسوا بانتظام أو كان عنيهم أن يعهدوا بعملهم الى نواب عنهم ، فان الأحوال ما لبثت أن عادت الى أوضاعها القديمة . وكانت المهزلة تصـــل أحيانا الى حد أن يعهد الأستاذ بتصحيح محاضراته مقدما الى بعض مستمعيه وكان بعد ذلك يقوم بقراءتها ، وحين كانت تصدر عنه معلومات خاطئة حول أى مسألة أو كان يرتكب خطأ كان لا يقوم أحد بتصحيح ما يقوله ، ولما كانوا جميعا رجالا مرموقين وشرفاء فانهم كانوا يستمعون في صمت لأنه اعتاد أن يقدم لهم هدايا ثمينة ولم يكونوا يريدون أن ينتقصوا من قدره (١) . وانتشر فساد تعدد الوظائف ، فقد كان بامكان الشيخ ذى النفوذ أن يشغل وظائف تدريس متعددة في نفس الوقت وأن يقبض المرتبات المربوطة عليها ، ولكنه كان اما أن يهمل أداء واجبه تماما أو يعهد به الى نواب عنه (٢) . على أن أهم منارات

---

(١) المرادى ، جـ ٢ ، ص ٢٨٢ ـ ٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٣٩ ، جـ ٤ ، ص ١٢١ . وكانت من نفس النوع المساوىء المتصلة بمنح اجازات « فخرية » كانت في الأصل مخصصة لمكافأة الدارسين المبرزين (على سبيل المثال المرادى ، جـ ١ ، ص ١٦٨ ، جـ ٣ ، ص ٣١) . وما لبث العلماء البـــارزون أن رجوهم أن يمنحوها لأبنائهم (نفس المرجع) ، جـ ٢ ، ص ٢٦ ، ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٩ وغير ذلك) ، بل لقد سجل أن شيخا مراكشيا

النقد هو تحديد كل من الموضوعات والأفق فمن المهم أن نشير الى ضيق الطابع المهنى الذى اتصف به التعليم فى الأزهر وفى كل الهيئات المماثلة • وكان كل من المدرس والتلميذ يعتبره ، وسيلة لمجرد الحصول على قدر معين من المعرفة – اذ أن مثل هذه المعرفة كلها كانت كمية معروفة أو من الممكن معرفتها ولها حدود ثابتة تماما • وكان تخطى هذه الحدود أو مناقشتها بأى شكل مجلبة لشك الزملاء من العلماء ومعارضتهم • وفى بعض الحالات كان ذلك يؤدى الى طردهم من هيئتهم وفقدانهم وسيلة معيشتهم بالاضافة الى انهيار سمعتهم •

وكانت النتيجة التى لابد منها لمثل هذا النظام الذى لم تهب عليه رياح السرعة منذ بداية القرن السادس عشر على الأقل (١) هى الامعان فى تضييق نطاق التعليم ذاته وأفق عقليات

طالب يمنح اجازة لابنه الذى لم يتعد عمره فى ذلك الوقت عامين (نفس المرجع ، جـ ٤ ، ص ٩١) •

(١) ولم تسترع الحركة الاصلاحية التى قام بها محمد بن عبد الوهاب فى اواسط شبه الجزيرة العربية الا اهتماما قليلا فى الخارج ، وذلك رغم بدئها فى عام ١٧٤٤ • ولم يشر الجبرتى الى الحركة الوهابيـــة للمرة الأولى الا فى مايو ١٨٠٢ (جـ ٣ ، ص ٢٢٠) فى لهجة يشتم منها أنها تطور حديث جدا ، ولكنه لا يعبر عن رأيه سواء معها أو ضدها ، ولم تكن هذه الحركة هى الأولى من نوعهـا فى القرن الثامن عشر • فنحن نجد أن الجبرتى (جـ ١ ، ص ٤٨ – ٤٩) يذكر أن مبشرا تركيا فى القاهرة ندد فى عام ١١٢٣/١٧١١ بتقديس الأولياء ودعا الى هدم القباب المقامة فوق أضرحتهم • على ان علماء الأزهر أصدروا فتوى تعلن أن باستطاعة الأولياء أن يصنعوا المعجزات بعد وفاتهم ، وناشدوا الباشا أن يعاقب المبشر ، فنفى هذا الأخير وعوقب الذين اشتركوا فى القلاقل • ومن الواضح أن الرأى العام فى مصر قد انحاز الى المشايخ ضد المبشر ، وذلك رغم أن الشاعر حسن الحجازى كتب قصيدة يسخر فيها من تقديس المخرفين باعتبارهم أولياء ومن قبول العلمـــاء لعقيدتهم (الجبرتى ، جـ ١ ، ص ٧٨ – ٧٩) •

المتعلمين (١) وتشتمل تواريخ حياة المشايخ والطلبة على قوائم طويلة من الكتب والمقالات التي لا يبدو منها أي تدهور في الكمية من وجهة النظر الأدبية السائدة في القرون الأولى ، بل حتى في نطاق مجالات الدراسة التي كانت لا تزال قائمة ، كالقانون والعلوم الدينية - ونحن نشك في محافظة أكثر من جزء منهـــا على طابع المســـتوى القديم (٢) • واذا كان انهيار أي مجتمع يتم حين لا تستطيع القوى الاجتماعية أن تكون من الفعالية بحيث تؤثر على تطويره أو توجيهه ، فيجب الاعتراف بأن هذا الانهيار قد فعل فعله في المجتمع الاسلامي منذ وقت بعيد - فلم يعد التعليم يضـع نصب عينيه حتى أمل توجيه المجتمع صوب مثله العليا ، وهبط الى مستوى مجرد المحافظة على تماسك المجتمع بفرض التقاليد •

ولكن يبقى شيء في الجانب الآخر من الصورة - فلو تغاضينا عن مساوىء النظام الوراثي وغلبة التعليم المهني ، كانت لا تزال توجد بين نسبة كبيرة من المتعلمين حماسة أصيلة للمعرفة وتفان فيها • فالعالم المسلم النموذجي يبقى طالبا حتى آخر حياته وسواء رحل الى القاهرة أو الى مكة أو استانبول أو بقي في منزله ، فهو يبحث دائما عن أبرز الدارسين ويحضر محاضراتهم • وكان الشيخ

(١) وكانت المسألة الرئيسية التي نوقشت في الدوائر الدينية أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر هي قانونية التدخين : راجع المرادى ، ج ١ ، ص ٢٥٤ ، الجبرتي ، ج ١ ، ص ٤١٥ • بل ان أحد باشوات مصر قد وصل به الأمر الى حد تحريم التدخين علنا : نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٥١ •

(٢) وسنتناول آداب هذه الفترة بالتفصيل فيما بعد • ويبدو في الواقع أن العدد الذي لا يزال محفوظا من آلاف المؤلفات المذكورة في المصادر قليل جدا - وهو دليل على أن القليل منها هو الذي قرىء بوجه عام ، ويحتمل أنها في كثير من الحالات لم تخرج على الاطلاق عن نطاق مخطوطة المؤلف • ولهذا السبب أيضا يجب الاعتراف بأن الحكم الذي أصدرناه في النص مبني على المصادر لا على التحريات الشخصية المفصلة •

الرحالة يلقى استقبالا من اخوانه ، وكان واثقا من تبوئه مكانته سواء في منازلهم أو في احدى المدارس (١) • وهكذا تأكد استمرار الاحتكاك ووجد باستمرار احساس قوى بالتضامن بين العلماء كان سببا في المحافظة على مستوى المهنة • وعلى حين أن بعض أوجه نشاطهم الذهنية كانت سيئة التوجيه ، وعلى حين أن عنصر المبادرة لديهم كان يحد منه المجال الضيق لتحركاتهم ، فعلى المؤرخ أن يقر بأنهم ـ هم ومنجزات الطرق الدينية ـ قد حافظوا على الحضارة الاسلامية وحموها من الانحدار الى المهاوى التى انحدرت اليها فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى • واذا ما وضعنا ذلك نصب أعيننا استطعنا أن نفهم ونغتفر ضيق أفقهم وتمسكهم بالتقاليد ، لأن واجبهم كان فى الواقع هو المحافظة على تماسك المجتمع فى فترة اضطراب واضمحلال اقتصادى لم يكن باستطاعتهم أثناءها أن يجازفوا بالمخاطرة العقلية •

وعلى حين أن المهمة الاجتماعية للتعليم يجب تبعا لذلك أن تحظى باعتراف كامل ، فانه يجب علينا أن نصدر حكمنا النهائى على قيمتها الفكرية وفقا لطابع آثارها • على أننا بهذا الخصوص لا نجد من العدل أن ننتقد « الطابع » الوسيط للعالم الاسلامى فى حد ذاته ، ففى عزلته عن بقية العالم المتحضر ، ولما كان ينقصه الاحتكاك بأوربا الغربية باستثناء أكثر الاحتكاكات سطحية (ولم تتم هذه الا فى استانبول) ، فقد كان من المحتم أن يحافظ على كل تلك المشخصات الوسيطة التى كانت حينئذ فى طريق الاضمحلال ولو ببطء حتى فى الغرب • ومن بين هذه المشخصات الاعتقاد فى التنجيم وقراءة الطالع ، وهو ما يمكن أن نقدم عنه أمثلة متعددة (٢) ، وكذلك

(١) راجع المرادى ، ج ٤ ، ص ٦١ •

(٢) على سبيل المثال : المرادى ، ج ١ ، ص ٩ ، ج ٣ ، وص ١٥٤ • وفى نفس الوقت كانت لا تزال توجد نسبة من المصنفات الفلكية العلمية ، انظر :
Brocklemann, Ges. d. arab. Litt., II, 357-60 :

ما يرتبط بهذا كله من فنون السحر التى انقسمت الى حوالى ستة « علوم » • وساعدت الطرائق الشعبية والسحرية التى كان يمارسها المتصوفة على شدة انتشــار السحر بنجاح كبير أدى من الناحية العملية الى اسكات كل ألوان النقد والمعارضة • وفى الواقع لقد أحيط عدد كبير من المشايخ باحترام شديد بسبب كتاباتهم المتصلة بهذه الموضوعات ، ولمهارتهم فى كتابة الأحجبة والتمائم - ولم يكن هذا الاحترام يصدر من جانب العامة وحدهم بل أيضا من جانب المتعلمين (١)• والنقد الحقيقى الذى يمكن توجيهه الى الثقافة العقلية الاسلامية فى القرن الثامن عشر أنها هبطت كثيرا عن مســتوياتها الوسيطة . وكان يبدو أنها لا تحس اطلاقا بالاضمحلال • وربما كان أبرز مثال لذلك هو الطب من الناحيتين النظرية والتطبيقية • ففى بداية القرن السابع عشر كانت لا تزال ثمة بقية من العلم الاسلامى الوسيط (٢) ، برغم أنه كان قد ارتبط بالفعل بالتنجيم والسحر ، وكانت المقالات والمختصرات لا تزال تكتب فى مصر وســوريا (٣) (وينقل المرادى اشـــادة بطبيب منجم فى الموصـــل كتبها أحد مواطنيه) (٤) •

« بطل فى صحبة الآداب منتصر فى النضـــال بين أعز أبناء

---

(١) على سبيل المثال الجبرتى جـ ١ ، ص ١٥٩ - ٦٠ ، ص ١٦١ ، المرادى ، جـ ١ ، ص ٤٥ ، جـ ٣ ، ص ٥٩ (شيخ حنبلى) ، ص ١٠٥ - وغير ذلك • انظر أيضا لين : الفصل الحادى عشر ، وعن الطلاسم الخاصة بالزراعة انظر عبد الغنى النابلسى ، علم الفلاحة ، ص ٢٢٠ وما بعدها •

(٢) انظر المقالة الخاصة بالأنطاكى (داوود بن عمر) المتوفى ١٥٩٩ فى دائرة المعارف الاسلامية •

(٣) وربما كان أكثر استرعاء للانتباه مؤلف طبى نقله من التركية الى العربية طبيب من غزة (توفى فى عام ١٧١٨) : المرادى ، جـ ٤ ، ص ٥٩ •

(٤) هو الشيخ محمد العبدلى الذى تلقى قدرا من دراسته فى مصر ، وقد توفى فى عام ١٧٥٣ : المرادى ، جـ ٤ ، ص ١٢٥ •

العرب وغير العرب ، أبو قراط الحكمة كان عبده وأفلاطون الحكمة أحد خدامه ، لقد محا ذكرى بطليموس بمؤلفاته العجيبة وحول سيناه ابن سينا الى شظايا حين استعرض أضواء بروقه ، ولم يكن الفارابي سوى نقطة من بحره ، ولم يكن الأبهرى سوى قطرة من هذا البحر . لقد أزال الآثار السيئة لشطحات الجهل بألمعية علمه وأصلح أسس الفضيلة والأدب بألمعية فهمه » .

وفى نفس الوقت كتب فولني عن الطب فى مصر وسوريا ما يلي : « من الصعب أن نجد شخصا يعرف كيف يفصد بالنار ـ فبعد أن ينظم الدواء الكاوى ويستعمل النار أو يشخص الوصفة العامة . كان عمله ينضب : كما أن فراشى الأوربيين يستشارون باعتبارهم من أتباع اسكلبيوس (اله الطب Esculapeus » (١) .

وكالعادة يبدو أن الحقيقة تكمن بين طرفى النقيض ، ويحتمل أنها كانت أقرب بقليل الى فولني منها الى سيد أبوقراط . وكانت حرفة الطب كغيرها من الحرف الأخرى وراثية الى حد كبير مما وفر ضمانا ضد اختفاء العلم القديم نهائيا . ومن ناحية أخرى لم يكن أمرا غير عادى أن نجد قاضيا أو عالما رئيسا لهيئة الأطباء (٢) ، وآخرين من رجال الدين يمارسون الطب (٣) . ولكن من الصعب اكتشاف المضمون الحقيقى لهذه الحقائق بسبب وجود ما يسمى « بالطب النبوى » الى جانب الدراسة العلمية للطب التى أخذت عن الاغريق ـ ومعنى هذا الطب النبوى دراسة المعلومات الطبية التى تحتويها الأحاديث النبوية ومن ثم كانت تدخل فى العلوم الدينية .

---

(١) فولني ، جـ ٢ ، ص ٢٩١ ـ ٢ . ورغم أن رسل يتميز بالنقد بهذا الصدد ، فانه اقل احتقارا : Natural History of Aleppo, pp. 97-99.

(٢) على سبيل المثال المرادى ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠ ، جـ ٤ ، ص ٣٧ ـ راجع أوليا أفندى ، ترجمة هامر ، جـ ٢ ، ص ١١٦ ، على أن أكبر اطباء دمشق كان علمانيا : المرادى ، جـ ٤ ، ص ٢٦٤ ـ ٥ .

(٣) المرادى ، جـ ٤ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ ، رسل ، ص ٩٦ ـ ٩٨ ، راجع ما سبق .

ونحن نجد أول المعلومات الأكيدة بهذا الخصوص - كما هو الحال في المجالات الأخرى - في كتاب وصف مصر الذى ضمنه روييه Royer وصفا دقيقا لعلم الطب القائم فى تلك الفترة (١) . ومن كلماته الصريحة يتضح لنا أن علم الصيدلة كان قد اضمحل كثيرا فى الواقع (٢) . وتتضح نفس النتيجة من كل المعلومات المتوفرة لدينا عن طرائق حلاقى الصحة (الذين كونوا هيئة مستقلة) وعن أحوال المستشفى العام أو المارستان (٣) الذى كان فى نفس الوقت مستشفى وملجأ للمجاذيب . ولكن ثمة شك فيما اذا كان الطب فى سوريا ، بسبب علاقاتها الوثيقة مع استانبول ، أحسن حالا منه فى مصر من الناحيتين النظرية والتطبيقية ، برغم أنه كان لا يمكن ملاحظة الاختلاف ، ان كان ثمة اختلاف . على أن الأطباء الأوربيين كانوا يوجدون فى القاهرة ودمشق فى أواخر القرن الثامن عشر ، وفى القاهرة على الأقل كان يلجأ اليهم عدد معين من المسلمين والأقباط (٤) . يضاف الى ذلك أن ما لا يقل عن مؤلفين فى الطب قد ترجما الى اللغتين التركية والعربية (٥) .

---

(١) Notice sur les medicamens usuels des Egyptiens : i, 1217-32.
انظر أيضا : Clot Bey, Apercu, ii, 383-4.

(٢) وهو يلحظ أيضا أن الطلب قد اشتد بوجه خاص على العقاقير المؤدية الى السمنة والمنشطة للباه .

(٣) انظر : Bowring's Report, 141 (from : Clot-Bey).

(٤) Royer, 222-3. : كانت توجد ثلاث صيدليات فى القاهرة ، احداها يديرها يونانى واثنتان يمتلكهما بنادقة ، وكان معظم رواد هذه الصيدليات الثلاث من الأوروبيين والمسيحيين السوريين . وكان الطبيب الفرنسى فى دمشق هو الأوروبى الوحيد الذى يقطن هذه المدينة (١٧٩٤) : أوليفييه ، جـ ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٥) انظر : C. E. Daniels. La version orientale, Arabe et Turque, des deux premiers livres de Herman Boerhaave, in Janus (Leiden, 1912), 295-312.

ويتضح من المؤلفات الأدبية فى القرن الثامن عشر ككل نفس مشخصات التدهور برغم أننا نجد فى هذا المقام أن جدب الفترة قد بولغ فيه الى حد كبير . ويقاس هذا الاضمحلال أحيـــانا بالتركيز الشديد على المؤلفات المدرسية والدينية التى ليست على أى حال سوى جزء من الحقيقة . وفى الحق ان الحصيلة المدرســية كانت وافرة جدا ، ولا تتضمن كثيرا من الابتكار . ولكن ما كان لنا أن نتوقع الكثير فيما عدا ذلك ، لأن تدعيم الأدب العلمانى كان يتوقف الى حد كبير على تشجيع رعاة الأدب ، وقد أدى خضوع الولايات العربية للسيطرة العثمانية الى حرمانه من هذا التشجيع مع بعض الاستثناءات القليلة (١) . وأحرى بنا أن نستشـــف الأســباب الرئيســية لهذا الاضمحلال الذى حـل بالآداب من الأحوال التى أحاطت بها ، وبوجه خاص لعدم وجود أى احتكاك مثمر بينها وبين العالم الخارجي . ولما كان يعوزها الحافز السليم أو النقد البنـاء من الخارج ، فقد خيم عليها نوع من الانطواء والتمسك بالماضى . وكانت علاقاتها حتى مع الآداب التركية والفارســية واهية جدا باستثناء حلب كما هو محتمل . وهناك سبب آخر للضعف هو ضيق الدائرة الأدبية مما تمخض عن النتيجة الحتمية الخاصـــــة بالمســتويات السطحيــة التى اهتمت بالقــالب اللغوى وعرقلت الاختراع والأصالة .

على أننا يجب أن نميز بين الانتاج الأدبى فى كل من مصر وسوريا . فباستثناء بعض الشعراء القلائل كانت آداب مصر كلها من انتاج المشايخ ، على حين أننا نجد فى سوريا والى حد ما فى العراق أيضا ، أن رجال الطبقات العلمانية من المثقفين من الكتبـة

---

(١) عن الأمثلة الخاصة برعاية البكوات المماليك للتوفر على الدراسة . انظر الجزء الثانى ، وعن التعليم والأدب فى مصر بوجه عام فى القرن الثامن عشر انظر .
J. Heyworth-Dunne, Intdoduction to the History of Education in Modern Egypt, 1-87.

والسكرتيرين كانوا يقومون بدور بارز في كل من الشعر والآداب ـ بل ان بعض أفراد الأسرات العسكرية قد أحرزوا لأنفسهم شهرة في الآداب (١) ، كما كان السوريون ـ كما سبق أن لاحظنا ـ أنشط من المصريين فى مجال الرحلات ، وقام عدد كبير منهم بكتابة أوصاف لرحلاتهم • يضاف الى ذلك أنه على حين أن مصر كانت الى حد كبير جدا مكتفية ذاتيا ومنطوية على نفسها كانت سوريا على اتصال وثيق بالبلدان التركية والبلدان العربية الأخرى• وقد أدى هذا الى الابقاء على بعض تفتح الأفق لدى الكتاب السوريين (٢) ، وحتى فى نطاق التعليم الدينى أتيح لبحاثه وشاعر غير عادى مثل الشيخ الصوفى عبد الغنى النابلسى (المتوفى فى عام ١٧٣١) أن يبدى بعض الابتكار الخلاق (٣) • وكانت تقاليد كتابة السير بوجه خاص وهى الكتابة التى أرسيت قواعدها فى دمشق منذ القرن الثالث عشر ، والتى يمثلها المرادى وسلفه المحبى ، لاتزال فرعا حيا وحيويا من الآداب ، تستلهم مفهوما جليلا لرسالة الاسلام التاريخية واستمراره (٤) ، ولهذا لايوجد مبرر لانكار أى دلالة أو قيمة للأدب العربى فى القرن الثامن عشر • بل يمكننا أن نتمادى فنقول ان ذلك مما يؤكد فكرتنا العامة عن مجتمع كان قد استهلك منابعه الخاصة وكان ينتظر حافزا جديدا آخر ليعيد اليه نشاطه المثمر •

---

(١) على سبيل المثال المرادى ، ج ١ ، ص ٩٧ ـ ١٠٦ وص ١٨٣ ـ ٤ ، ج ٤ ، ص ١٦٦ •

(٢) ويتضح هذا تماما ، على سبيل المثال ، من مقارنة مؤلفات المرادى والجبرتى ، برغم أننا يجب أن نذكر أن الأخير كان قبل كل شىء يكتب تاريخا لمصر •

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة الجديدة ، وما يلى •

(٤) ولا يخفى الجبرتى ذاته أنه اضطلع بتأليف تاريخه ازاء الحاح المرادى الذى كان يسنده العلماء الأتراك •

الفصل السادس

الأوقاف

برغم استمرار العلاقات الوثيقة جدا بين التنظيم الدينى والدولة فى النظام الاسلامى ، وبخاصة فى النظام العثمانى ، لم يحدث على الاطلاق أن أعتبر الانفاق على الخدمات والمنشئات الدينية من واجبات الدولة . فقد كانت النفقات اللازمة للقيام بمثل هذا العمل باهظة ، ومن ثم كانت العناية بها تقع فى المحل الأول على عاتق أولئك الذين كانوا يديرونها . حقيقة منذ وقت مبكر نسبيا كان الخلفاء والسلاطين قد درجوا على تخصيص جزء من موارد الجيب الخاص للمسائل الدينية . الا أن القسط الأكبر من موارد المؤسسات الدينية كان مصدره احسان الأشخاص ، واتخذ معظمه شكل الوقف الدائم للأرض والأملاك الثابتة . وكانت الأملاك الموقوفة أو المحبوسة لاتخضع لأى تحويل جديد فى الملكية ، وكان ريعها يخصص لغرض خاص يحدده الواقف . ومنذ

فجر الاسلام اشترك عدد لا حصر له من الحكام والأشخاص الآخرين في رصد هذه الأوقاف لصالح المساجد والمدارس والتكايا والأعمال الخيرية من كل نوع ، وكانت من الناحية النظرية نافذة المفعول باستمرار ٠

وفى أراضى الامبراطورية العثمانية الأصلية كانت الولايات التى سبق أن وقعت فى قبضة الحكام المسلمين قبل أن يستولى عليها السلاطين تعج بالأوقاف التى ترجع الى ما قبل العثمانيين ـ وقد احترم الحكام الجدد شروطها (١) ، وفى الولايات التى ضموها لأول مرة الى دار الاسلام كانت الهيئات والأغراض الدينية والخيرية توجد فى كل مكان باستثناء الأملاك التى يقتصر أمرها على دفع الجزية والتى كان ينفق عليها بنفس الكيفية ٠ وكان النظام ، فيما يتعلق بالاحسان ، يتمشى فى الواقع مع الاجراءات السائدة بين بعض الشعوب التركية قبل تحولها الى الاسلام (٢) ، وفى ظل النظام الاسلامى ، كما هو الحال فى عهد الحكام المسلمين الأول ، كان الذميون ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين ، يسمح لهم بالفعل برصد الأوقاف ـ وكان القيد الوحيد على السماح لهم بذلك أن لايكون الغرض من مؤسساتهم هو بناء أو صيانة أو خدمة كنائس أو أديرة تتعارض مع المؤسسات الاسلامية (٣) ٠

---

(١) انظر على سبيل المثال أ .
A. Sueheyl Unver, Buyuk Selcuklu Imparatorlugun zamaninda vakif hastanelerin bir Kismina dair in Vokiflar Dergisi, i, 21-22.

(٢)
Halim Baki Kunter. Turk Vakiflari ve vakifiyeleri' in Vakiflar Dergesi. i, 104, 117-118.

(٣) مقال Heffening فى دائرة المعارف الاسلامية : Wakf

انظر كنتر ص ١٢٠ ـ ١ عن وقفين انشأتهما امرأتان ذميتان ، كان أحدهما موقوفا على تكية مولوية ٠ راجع دوسون ج ٢ ص ٥٥٢ ـ أيضا :
Belin. Propriété Foncière. in J.A., Série V. xviii 514-15.

وكانت الأراضي الزراعية من الأملاك التي ترصد مواردها على الأوقاف ٠ ولكن لما كانت الشريعة لاتعرف اصطلاح « أرض الدولة » ، (أرضى مملكت) ، ولما كان اصطلاحا العشر والخراج ينطبقان فى المصطلح العثمانى على الرسوم المتحصلة من الفلاحين الذين يعيشون على هذه الأرض ، (على حين أن الأراضى التى يدفع ملاكها ثمنها كانت فى المصطلح العادى تعتبر ملكا خاصا) فانه يبدو أنه ما حل القرن السادس عشر حتى كان قد راود قدر كبير من الشك رعايا السلطان حول ما يمكن تخصيصه أو عدم تخصيصه من الأراضى الزراعية للأوقاف بصورة قانونية بالاضافة الى التعدى الكبير الذى طرأ على المبادىء التى أكدها المفتون فى ذلك الوقت ـ وكان لابد من صدور أحكامهم حول الموضوع (١) ٠ وهناك مبدأ يقضى بأن الأملاك الخاصة هى وحدها التى يمكن أن تخصص للأوقاف ، ولما كان قد أعلن أن الأراضى الزراعية بوجه عام ليست ملكا خاصا بل أرضا تابعة للدولة ، فقد ترتب على ذلك أن الأراضى الوحيدة التى كانت تخصص بالفعل للأوقاف بصفة قانونية هى التى كان السلطان الحاكم وأسلافه قد خصصوها هم أنفسهم بالفعل لهذا الغرض أو أهديت ـ باعتبارها أملاكا خاصة ـ الى أشخاص كانوا موضعا لمحاباة ، كانوا هم الذين استعملوها بعد ذلك لهذا الغرض (٢) ٠ وترتب على ذلك أيضا أنه لم يكن يمكن وقف الأراضى الزراعية بصفة قانونية فى المستقبل الا باحدى هذه الوسائل ، وتوضح أوقاف خادم ابراهيم باشا ـ وهو صهر لسليمان القانونى ـ الطريقة التى كان يمكن بها وقف الأرض بعد أن تتحول فى البداية الى ملك خاص بمحض ارادة السلطان

---

(١) انظر قانون نامة سليمان (مع اضافات جديدة) فى M.T.M., i, 5 seqq.

(٢) انظر سيد مصطفى ، جـ ١ ، ص ١٦ ٠

وتلمزه • وقد أهداه سليمان في البداية سبع قرى في الروملي ، ثم خصص الباشا بعد ذلك ايرادها لعدد من المؤسسات في استنبول من بينها مسجدان ومدرستان وثلاثة مكاتب (١) • ولكن يبدو من المحتمل أن السلاطين قد أوقفوا معظم أراضي الأوقاف القائمة بشكل مباشر ، ومن الواضح أنها كانت شاسعة جدا بالفعل (٢) • وكان الرعايا الذين يسكنون أراضي الأوقاف يتمتعون بنفس وضع الأشخاص الذين كانوا يسكنون الاقطاعيات• على أن أراضي الأوقاف كانت تعتبر مؤجرة لهم : والمدفوعات المسماة طابو في حالة الاقطاعيات كانت بالنسبة اليها تسمى « ايجارا مقدما » (٣) ، كما كان تكرار دفعهم الرسوم يسمى ايجارا دوريا (٤) • وكانوا يؤمنون على شغلهم لها بنفس الطريقة وان كانوا أكثر ارتباطا بالأرض (٥) •

وفيما يتعلق بالأوقاف التى رصدت فيما بعد فيما يبدو أن قسطا وافرا مما كان في الأصل أرضا للدولة قد تحول بطريقة غير منتظمة الى ملك خاص وأن نسبة عالية منها كان ملاكها يحولونها الى

---

(١) Abdülkadir Erdogan, Hadim Ibrahim Pasa Camii, in Vakiflar Dergisi, i, 31 seqq.

(٢) M.T.M., i, 53. — « وبالاضافة الى ذلك توجد مساحات شاسعة من الأراضى التى أوقفها السلاطين السابقون » •

(٣) ايجارتى معجل •

(٤) ايجارتى مؤجل • انظر M.T.M., i, 54, 61, 77, 95. وأحيانا تستعمل صيغة أجرت — بمعنى ريع ، بدلا من ايجار ، وأحيانا يستعمل الاصطلاح بالفعل فيما يتعلق بأراضي الوقف •

(٥) نفس المرجع ، ص ٣٠٥ •

أوقاف جزيا منهم وراء دوافع معقولة سنوضحها (١) • وأغرب من ذلك ما كان يحدث من وقف بعض الأشخاص لحصيلة بعض الضرائب والرسوم التي كانوا قد تعاقدوا على حق التزامها (٢) • حقيقة انهم بعملهم هذا كانوا يقتدون بالسلطان لأن محمد الفاتح كان قد أوقف على احدى مؤسساته حصيلة رسم جمركي ، أو بالأحرى فرضة ، في استنابول (٣) • ولكن كان من الواضح أن مثل هذه الأوقاف التي كان يوقفها أشـــخاص عاديون كانت غير منتظمة وكانت تعتبر كذلك بالفعل • ومن ناحية أخرى يبدو من الواضح أن معظم الأوقاف الصغيرة الخاصة ـ على الأقل ـ في كل العصور كانت تعتمد على دخول مستقاة من أملاك حضرية أو شبه حضرية كانت في الأصل « ملك » مثـــل المنازل والغـرف والحوانيت والحمامات والمقاهي والمطاحن والكروم والأراضي التي تزرع فيها أشجار الفاكهة ، وهي الأنماط التي يكثر ورودها في الوقفيات (٤)•

وقد لايكون باستطاعتنا أن نحصر الأغراض التي رصدت لها الأوقاف ـ فالى جانب المؤسسات الدينية بوجه خاص ـ كالمكاتب

---

(١) انظر رسالة قوجي بك (طبعة استانبول ، ١٣٠٣) ، ص ٨٢ • وهو يتساءل ـ وكان قد كتب في الربع الثاني من القرن السابع عشر ـ كيف يصح السماح للأشخاص المقربين من السلاطين في البداية بوضع أيديهم على أراضي الدولة ثم بتحويل بعضها الى أوقاف • وهو يزكي اعادة منح القرى الموقوفة خلال المائتي سنة المنصرمة الى السباهية ، باستثناء ما خصص منها للانفاق على المساجد والمدارس وغير ذلك • وقد خصصت أراضي الدولة ـ بشكل خاطىء ـ للأوقاف منذ عهـــد سليمان : انظر :

Belin, Histoire économique, J. A., 1864, IV, 281.

(٢) سيد مصطفى ، جـ ٤ ، ص ١٠٥ •

(٣) Kunter, 115. راجع بيلان ، المرجع السابق ، ص ٣٤٨ عن تخصيص جزية الغجر لهذا الغرض في عهد سليمان (انظر ما سبق) •

(٤) وقفية في اللغة التركية : انظر : Kunter, Passim

والمكتبات ـ كان ينفق على كل المرافق العامة ـ كالطرق والأرصفة والكبارى والقنوات المعلقة والقنوات والمنارات ـ من هذه الوسائل الخاصة كما هو الحال أيضا بالنسبة الى ما هو من الواضح مرافق خيرية كالمستشفيات والخانات ومنازل الأرامل والمطابخ والمغاسل . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ـ اذ رصدت أوقاف شاسعة لمد المعوزين بالمال ، ومن ذلك جهاز البنات ودفع ديون المسجونين المدينين ودفع رسوم الافراج عن المسجونين المفلسين وتقديم المعونة لسكان بعض القرى وبعض الأحياء فى المدن لمساعدتها على دفع الضرائب « العرفية » (١) . وكان بعضها الآخر يوقف لتقديم المساعدة نوعا : الملابس للقرويين المسنين والطعام والملبس لأطفال المدارس والأرز للطيور والطعام والماء للحيوانات . كما كان الغرض من بعض الأوقاف هو اقامة رحلات للأطفال فى أوقات الربيع ودفن الفقراء ، على حين أن بعضها الآخر كان يوقف على تقديم المساعدات للقوات المسلحة : اعداد الجنود وتمويل بناء القلاع والتحصينات الأخرى وصيانتها ـ وكذلك الحال بالنسبة الى سفن الأسطول العثمانى (٢) .

وكان يطلق على كل هذه الأنواع من الأوقاف الاسم المناسب أى الأوقاف الخيرية (٣) . وقد يكون بامكاننا أن نفسرها على أنها أوقاف للمنافع العامة ، تمييزا لها عن نوع آخر يسمى أوقاف

---

(١) عن الضرائب العرفية ، انظر ما سبق . Kunter, pp. 111-15.

(٢) انظر بوجه خاص قوائم الأشياء الموقوفة فى ص Kunter,
راجع دوسون ، ج ٢ ، ص ٥٤٢ ،
Belin, La Propriété, foncière, 509 seqq.

(٣) فى اللغة التركية : أوقافى خيرية ، من الكلمتين العربيتين اوقاف وخير .

اهليـــة أو أوقاف ذرية ـ بمعنى أوقاف الأسرة (١) • وكانت أوقاف الأسرة من الأمور المباحة فى الاســلام منذ البداية (٢) • وكان بامكان الموقف أن يخصص أملاكا بنفس الطريقـــة المتبعـة بالنسبة الى الأوقاف الأخرى ، ولكن ريعها كان لايوزع الا لاعالة نسله طالما بقوا على قيد الحياة • وفى الواقع انها كونت ترستات أسرية كان بامكان أجيال متعاقبـــة أن تفيد منها ـ وكانت تلقى الاعتراض من الناحية النظرية برغم توجيه الهجوم المتزايد اليها من الناحية العملية كما سنرى • على أنه يحتمـــل أن مثل هذه الترستات الأسرية المجردة كانت أقل انتشارا من المؤسسات التى تتضمنها الوقفيـــات التى نص فيهـا مؤسسوها على عـدم تمتع نسلهم الا بما يتبقى سنويا من الدخل بعد تسديد نفقات أى غرض خيرى رصدت المؤسسة للوفاء به • وكان من الممكن أيضا أن تخدم الأوقاف غرضا آخر شخصى أكثر منه خيرى ، وذلك بالنص على ترتيل القرآن لصالح المؤسس (أثناء حياته) وعلى أرواح أقربائه (أو أقربائها) المتوفين • وهكذا تنص وقفية لاتزال فى متناول أيدينـــا ـ وهى ترجع الى عام ١٥٨٨ ، وأوقفت ريعهـا المدعوة زينى خاتــون من اســتنبول ـ على تفرقة لطيفة بخصوص قراءة ثلاث سور من القرآن لصالحها ، وخمس ســـور على روح ابنها وسورة على روح أمها وسورتين على روح ابنتها ـ وكان كل مقرىء يقبض اقجة ونصف أقجة يوميا • يضاف الى هذا أن هذه الوقفية تخصص أقجة يوميا لثلاثة رجال صالحين عن كل مرة من المرات المائة التى كان عليهم أن يكرروا فيها قراءة سورة الاخلاص يوميا ـ

---

(١) فى اللغة التركية : أوقافى اهلية وأوقافى ذرية ـ من أهل وذريـة فى اللغة العربية •

(٢) Encyc. of Islam, s.v. Wakf. ـ على أن المؤسسات من هذا النوع لم تكن فعالة من الناحية القانونية الا اذا كان الهدف النهائى منها خيريا •

وفيما عدا هذا نجد أن هذه الوقفية من النوع الأسرى ـ فكانت تخصص دخلا لنسل الموقفة حتى ينقرضوا (١) ٠

وكان العبيد (القبوقوللرى) هم الأشخاص الوحيدون من رعايا السلطان الذين كانت لديهم الجرأة والقدرة الكافيتان لاساءة استعمال مؤسسة وقف الأسرة ٠ ولم يكن الأشخاص الآخرون يستطيعون اساءة استعمالها ـ اذ كان باستطاعتهم أن يوقفوا كل ما بأيديهم من الأملاك ٠ ولكن كان وضع القبوقو للرى حرجا فيما يتعلق بالامتلاك ـ اذ لم يكن باستطاعة العبيد أن يقوموا بذلك طبقا للشريعة ٠ وكان ثمة باستمرار بعض الشك حول وضعهم ، وبعد اطراح الدفشرمة حين كانت قلة منهم ـ ان وجدوا على الاطلاق ـ أحرارا ، كان من الواضح أن لهم كل الحق فى الامتلاك ، وبالتالى كان باستطاعتهم أن يوقفوا أملاكهم الا اذا أدى دخولهم فى خدمة السلطان الى تحويلهم الى عبيد بشكل ما ٠ على أن الطامحين منهم الى تولى الوظائف العليا كانوا فى وضع يسمح لهم بالامتلاك ، وقليل منهم هم الذين كانوا لاينتهزون هذه الفرصة ٠ ومن هنا ففى المستقبل حين كانت الخزانة فى حاجة ملحة الى الأموال بصفة تكاد تكون مستمرة ، كانت الحكومة تغرى ـ وأحيانا ما كانت تنحنى أمام اغراء ـ مصادرة أملاك الموظف حين يفصل أو يموت ٠ وهناك تفسير لهذا الاجراء : فقد كان من الواضح أن بعض أملاك أمثال هؤلاء الموظفين كان مرجعها استغلال وظائفهم ٠ لهذا كان لاجراء الحكومة ما يبرره ـ اذ كانت تعتبر مثل هذه الأملاك تابعة للدولة ، كما كانت تعتبر حق الموظفين فى استعمالها منتهيا بانتهاء شغلهم لوظائفهم ٠ وقد سبق أن أشرنا

---

(١) Kunter, 120-1, Cf. D'Ohsson, ii, 542.

الى الاستيلاء على مثـل هذه الأملاك حين تناولنـا الموارد المالية (١)
والآن لانحتاج الا الى ملاحظـة القلق الذى كان يخيم على الموظفين
الأغنياء بسبب احتمال مصادرة أملاكهم باستمرار : فلم يكونوا
بأى حـال على يقين من قسط أملاكهـم الذى كان يمكن أن يعتبر
ملكا لهـم بحق · لهذا كان من الطبيعى جـدا أن يحولوا بعض
أملاكهم الى أوقاف مما يجعل الحـكومة عاجزة بعد ذلك عن وضع
يدها على الأقل على هذا القسط دون أن تنقض الشريعـة · وكان
نظام وقف الأسرة يمكنهم من التأكد من أن الأمر لايقتصر عليهم
وحدهم بل على أبنائهم من بعدهم من حيث التمتع بالدخول التى
كانت تدرها الأملاك الموقوفة بهذا الشكل · وكثيرا ما تم اللجوء
الى هذه الخطة بحيث ساد الاعتقاد بأن الهدف الوحيد من أوقاف
الأسرة ، ان لم يـكن من الأوقاف الأخـرى ، هو الحيلولة دون
اسـتيلاء الدولة على أملاك الأثرياء (٢) ، على حين أن الهـدف
الحقيقى منها هو رصد دخل للموقف ولأبنائه من بعده ومنع هؤلاء
الآخرين فى نفس الوقت من بعثرة رأس المال الذى انتقـل اليهم
والتحايل على ما تقضى به الشريعة بخصوص توزيع المواريث ·
وفى الحق أن الحكومة لم تعد بمرور الوقت تعترف بالأوقاف التى
أنشأها الموظفون دون فحص كل حالة فى البداية لتحديد ما اذا
كان بامكانهاأن تدعى قانونا بملكيـة الأملاك الموقوفة (٣) · وبهذه
الوسيلة تم اقرار نوع من التـوازن بين ادعاءات الحكومة مع
ما تحتويه من مبالغة وبين محاولات الموظفين أو ورثتهم الاستحواذ

---

(١) انظر ما سبق ·

(٢) كنسر ، ص ١٠٥ ، راجع سيد مصطفى ، ج ٢ ، ص ١٠٣ وما بعدها
حيث يخصص حيزا كبيرا لايضاح خطأ مثل هذا الرأى ·

(٣) دوسون ، ج ٢ ، ص ٥٣٠ ·

لأنفسهم على قسط من الأملاك الخاصة يزيد على ما يستحقونه بالفعل ٠

وفي الوقفيات من النوعين الخيري أو « الأسري » كانت تتوخى الدقة في تحديد الأملاك التي تخصص مواردها للانفاق عليها وعلى كل الأشخاص المعينين لادارتها والقيام بخدمتها ودفع مرتباتهم ٠ وكان يعين لكل أنواع الأوقاف شخصان مهمتهما ضمان تنفيذها باستمرار ـ أحدهما يسمى متولى كان تعيينه يسمى تولية (١) ومفتش يسمى ناظر ٠ ولكن كثيرا ما كان يعين أشخاص آخرون أيضا ٠ وهكذا تنص وقفية خادم ابراهيم باشا التي سبقت الاشارة اليها ، فيما يتعلق بأحد مساجده ، على تعيين خطيب وامام وأربعة مؤذنين ومعرف (٢) وحافظين وقيمين وآخرين ـ بالاضافة الى مدرس في مدرسته ومعلم أو خوجة ومساعد مدرس في كل من مدارسه الثلاث ـ وكان كل منهم يقبض مرتبا مناسبا (٣) ٠ أما فيما يتعلق بالأوقاف المرصودة لها أملاك شاسعة فكان الأمر يتطلب من الواقف أيضا أن يقوم أحيانا برصد مبلغ لتعيين سكرتير ومحصل ومعماري ومرقم (٤) في الحالات التي توجد فيها مبان ـ بالاضافة الى موظف مهمته التأكد من عدم تشويه الجدران بالنقوش (٥) ٠

---

(١) وفي اللغة التركية تنطق متفلى وتفلية ٠

(٢) وكانت مهمة المعرفين (في المساجد) هي اقامة الصلوات على النبي والصحابة ومؤسس الأسرة وكل المسلمين ٠ انظر :
M. F. Koprulu, Valf'a ait tarihi istilahlar meselesi, in Vakiflar Dergisi, I, 136.

(٣) اردوغان ، ص ٣٢ ٠

(٤) مرمجي (من الكلمة العربية مرمة بمعنى « اصلاح ») ٠

(٥) ماحيشن ـ نقوش ، بمعنى ماحي النقوش ٠

وكان الأشخاص الذين يعينون نظارا هم عادة من كبار موظفى الحكومة أو من كبار رجـــال الدين ـ اذ من الملامح اللازمة لهذا الاجراء أنه على حين أن المتولين الذين كانوا فى كثير من الأحوال لايمتون الى الواقف بأية صلة كان من واجب النظار أن يكونوا فى وضع يمكنهم من الاشراف على أعمال المتولين ، واذا ما انقرضت الأسرة كانوا يختارون أشخاصا مناسبين لكى يخلفوهم • ولهذا فاذا لم يكن النظار بوجه عام قد قاموا بذلك بحكم مناصبهم كان الواقف اما أن يحدد الأشخاص المناسبين الذين يخلفونهم بمرور الزمن (وهو أمر كان يستحيل تنفيذه) أو يترك لكل ناظر بدوره أن يعين خلفه • وقد عين محمـد الثـانى وسليم الأول وسليمان القانونى الصدر الأعظم ناظرا لأوقاف مساجدهم على حين عين بايزيد الثانى وأحمد الأول شيخ الاسلام (١) • على أنه كان يعهد فيما بعد بالاشراف على ما يقرب من كل أوقاف المســاجد السلطانيــة والخاصة ، وهذا أمر غريب ـ الى القزلز أغاســيه ـ وهو اجراء غريب لا شك أن مرجعه الارتباط الوثيق القائم بين هؤلاء الخصيان وبين الســلاطين أنفسهم (٢) • ورغم أنه لم يكن من المفروض أن يتقاضى النظار والمتولون أية مرتبـات من اعتماد الأوقاف باستثناء رسوم ضئيـلة عرفت باسم ثمن الحذاء (٣) ، فان الاشراف على هذه المؤسسات كان يعود بالفائدة الجزيلة على القزلز أغاســيه وان كان يحتم عليهم القيام بكثير من الأعمال • وما حــل القرن الثـامن عشر حتى كانـوا مسئولين عن أوقاف ما يقـــرب من

---

(١) سيد مصطفى ، جـ ٤ ، ص ٩٩ ، ودوسون كما يلى •

(٢) خلفا للقبواغاسيه ، كبار الخصيان البيض ، الذين كانوا قد حلوا محلهم منذ نهاية القرن السادس عشر : راجع الجزء الأول •

(٣) جزمه بها ـ ومعنى جزمة : حذاء برقبة أو حذاء للصيد •

٥٠٠ مسجد ، وللاشراف على هذه المؤسسات وغيرها كانوا قد اعتادوا أن يرأسوا جلسات أسبوعية كان يعقدها المتولون المعينون فيما كان يسمى بالحرمين ديوانى ، لأن القزلر أغاسيه كانوا هم أيضا نظارا لأوقاف الحرمين الشريفين فى ذلك الوقت ، ولمساعدتهم كان يوجد مفتشون هم عالم يلقب بالحرمين مفتش (١) ونائبان يقيم أحدهما فى بورصة والآخر فى أدرنه ٠ ولكن فى عهد مصطفى الثالث وهو السلطان الذى كان يتولى الحكم فى نهاية فترة دراستنا استطاع الصدر الأعظم راغب باشا أن يحرم القزلر أغاسية من السلطة التى باشروها فى هذا المجال ، وذلك بأن وضع مسئولية تحصيل موارد الوقف هذه فى أيدى الدفتردارات وكانت لفترة طويلة تحصل بالالتزام ، وفى نفس الوقت قام بفصل كثير من الأشخاص غير الصالحين الذين كانوا قد أصبحوا متولين ٠ وكانت النتيجة زيادة كبيرة فى الموارد ، وطالما بقى هذا الاجراء الجديد ـ الذى لم يكن قد طبق لأكثر من بضع سنوات ـ فقد تم تعويض القيزلر أغاسية وزملائهم الذين انسدت أمامهم أبواب هذه الموارد ـ من الفائض الذى تم الوصول اليه بهذا الشكل ـ عن انقطاع المكاسب التى كانوا يتقاضونها من قبل (٢) ٠

وكان مؤسس الوقف ، واسمه واقف ، حرا فى أن يعين من يشاء فى وظيفة المتولى (٣) ٠ وفى العادة كان متولو الأوقاف السلطانية ونظارها موظفين حكوميين لايعينون على أى حال بحكم مناصبهم ، بل بصفتهم الشخصية ، ومن أسباب ازدياد سوء

---

(١) مفتش الحرمين ٠

(٢) D'Ohsson, ii, 526, 535-6; Belin, Histoire Economique, in J.A., 1864, iv, 305.

(٣) دوسون جـ ٢ ، ص ٥٢٤ ٠

ادارة هذه الأوقاف باستمرار ، وبخاصة فى القرن السابع عشر ، منح تولياتهم لأشـــخاص غير أكفاء من أمثـال ســـباهية الجيش الثابت (١) • أما الأوقاف العادية فقد كانت منتظمة الى حد كبير وهو ما سبق أن أوضحناه • وكان من الأمور العادية جدا بالنسبة الى الواقف أن يعين نفسه متوليا (٢) بشرط أن تنتقل التولية بعد وفاته الى أبنائه (٣) • واذا حدث فى مثل هذه الحالة وانقرضت الأسرة ـ اذ كان من حق الناظر أن يختار متوليا ـ كانت تسنح فرص جديدة لعبيد السلطنة (٤) سواء أكانوا أكفاء أم غير أكفاء ليشغلوا التوليات • كما كان بامكان الواقف منذ البداية أن يترك للناظر تعيين متـــول ولم يـكن من العقبـات التى تعترض التعيين أن لاتكون للمتولى وظيفة أخرى ! وكان مديرو المســاجد يعينون أحيانا فى الواقع (٥) • وكان على المتولى فى كل الحالات أن يقدم الى الناظر حسابا سنويا عن ادارته •

وفى الوقت الذى احتل فيه العثمانيون مصر وسوريا كانت الأوقاف ، ســواء أكانت اراض أو أملاكا أخرى ، وفيرة العـــدد وشاسعة جدا • وفى كل البلاد الاسلامية العريقة تفاقمت المشكلة التى أثارها تراكم الأوقاف ، وفى مصر وسوريا لم تندثر القوائم (كما هو الحال بالنســـبة الى العراق والمشرق) نتيجة لغزوات

---

(١) بيلان ص ٣٠٤ ص ٣٠٦ ـ ٧ •

(٢) دوسون جـ ٢ ص ٥٢٩ • وعلى سبيل المثال نجد أن خادم ابراهيم باشا قد عين نفسه : انظر اردوغن •

(٣) دوسون جـ ٢ ص ٥٤٣ • راجع سيد مصطفى جـ ٤ ، ص ٩٩ •

(٤) بند غانى سلطنة وهو الاصطلاح الذى استعمله عبد الرحمن شرف : تاريخى دولتى عثمانية جـ ٢ ص ٥١٠ ـ بمعنى قبوقوللرى •

(٥) دوسون جـ ٢ ص ٥٢٧ • ومما تجـــدر ملاحظته أن النساء كن أيضا يصلحن لهذه الوظيفة •

التركمان والمغول ، واتبعت طرائق مختلفة (ومما لاشك فيه أنها كانت كلها غير قانونية تماما) بين وقت وآخر لاعادة نسبة كبيرة من الأراضي الموقوفة الى وضعها السابق باعتبارها أراض حرة — وقد قام السلاطين المماليك الشراكسة بالفعل بالغاء أوقاف كثيرة . ويبدو أن السلاطين العثمانيين اتخذوا خطوات مباشرة لتنظيم الوضع . فقد استبقيت الأوقاف السلطانية السابقة التي كانت مرصودة على الانفاق على المدينتين المقدستين ووضعت هي والأوقاف السلطانية الجديدة (الشاسعة) تحت اشراف الأقسام المالية (١) . وكانت الأوقاف الخاصة (بمعنى الأوقاف العادية الخيرية) التي رصدها السلاطين والبكوات السابقون وأشخاص آخرون تخضع لتفتيش مدير عام يرسل من الآستانة وثبتت الأوقاف التي كان يثبت أنها مرصودة على أعمال جدية ، ولكنها في كل الحالات كانت تخضع للميرى ، وبذلت محاولة لاعادة زراعة أراضي الأوقاف المهجورة (٢) . وفي القرون التالية حدث كثيرا أن حبست الأوقاف على أيدى الملتزمين الذين رصدوا جزءا من ضياعهم

(١) أي أقسام الروزنامجي : ديجون ص ٢٦٧ . ويشبه ذلك ما حدث من تثبيت الأوقاف الشاسعة التي أوقفها في عام ١٥٠٠ علاء الدولة من أسرة ذي القادر في شمالي سوريا (الغزي جـ ٢ ص ٥٢٨ — ٣٣) .

(٢) Canoun-namé, ap, Digeon, ii, 263-4, 267, 269; Barkan; 383-4.

وقد احترقت السجلات والوثائق القديمة في مصر بعد الفتح العثماني بوقت قصير — ويحتمل أن ذلك قد حدث في عام ١٥٢٥ أو في عام ١٥٢٦ (انظر مناقشة هذه المسألة في : (Deny, Sommaire des Archives, 22)وألغي عدد كبير من الأوقاف التي كانت لا تزال قائمة بمرسوم صدر في عام ١٥٥٠) دي ساسي جـ ١ ص ١٣١ — ٤) . وكما سبق أن لاحظنا (الفصل السابع) خصص مبلغ كبير ، يزيد على ١٣ مليون بارة (وهي في القرن السابع عشر كانت تساوي حوالي ٢٠٫٠٠٠ جنيه ذهبي) من موارد مصر للانفاق على المساجد والتكايا ، ويحتمل أن الغرض من ذلك هو تعويض ما حدث من نقص في الدخل نتيجة لالغاء بعض الأوقاف .

(ولكن ليس قبل الحصول على موافقة الباشا وطبقا للقيود التى سنعرض لها) للانفاق على مساجد معينة أو على أغراض دينيـــة أخرى . كما كانت تفرض على هذه الأوقاف ضريبة الميرى التى كان يدفعها ورثة أو خلفاء الملتزمين الذين أوقفت ضـياعهم ـ ولكنها كانت تعفى من كل الضرائب الأخـرى (١) . وحيثما تحولت قرية بأسرها الى أوقاف كان المسجد ـ أو المؤسسة الخيرية الأخرى ـ يرصد له التزام القرية بصورة مستمرة وأصبح عرضــة لدفع الميرى المقرر عليه (٢) .

وفيما يتعلق بالأوقاف أدخـل العثمانيون تجديدين هامين كان أحدهما مترتبا على النظام الجديد الذى طبق على الأرض بحيث جعل من السلطان المالك الوحيد وبذلك منع أى نقل لملكية الأرض الا بموافقة السلطان أو من يمثله . وفى مصر كان يطلق على جزء من الأراضى المرصـــودة على الأوقاف الدينيـــة اصـــطلاح رزقة (ومجموعها رزق) ، ورغم أنه كان لايسمح للمتلزم الا نادرا بنقل ملكية الأرض باعتبـارها أوقافا ، فقـــد كان باســـتطاعته (بموافقة الباشا) أن ينشىء رزقا نقدية ـ بمعنى ايجارات سنوية أو ضرائب سنوية مستمرة مستقاة من ايرادات ضيعة بذاتها وقابلة لأن يقبضـــها المستفيد من الوقف من كل الملتزمين التالين لهذه الضيعة (٣) . ورغم ذلك وبالرغم من القيود المفروضـة على انشاء

---

(١) الجبرتى ج ٤ ص ٢٠٩ .

(٤) لانكرية ص ٢٣٩ استيف ، ص ٣٠٤ . وكانت أراضى المساجد تدار بوجه عام باعتبارها أراضى وسية ولكنها لم تكن تزرع على الاطلاق بالسخرة (لانكرية ٢٤٣) . وكثيرا ما كان الميرى الخاص يدفع نوعا وبخاصة فى مصر العليا .

(٣) استيف ص ٣٠٤ . وفى عام ١٦٠٧ تركزت ادارة هذه الرزق فى القاهرة وأضيفت كميتها الى المبالغ الواجب تحصيلها من المقاطعة ـ وفى ذلك الوقت كانت تبلغ حوالى مائتى كيس : دى ساسى ج ١ ص ١٤٢ ـ ٣ .

أوقاف أرض جديدة فقد ازداد عددها باطراد ٠ وفى سوريا نلحظ بوجه خاص وقفين شاسعين جدا : وقف محمد بن سنان باشا الشهير الذى أنشىء فى عام ١٥٧٤ وعرف باسم وقف ابراهيم خان (١) والوقف الذى أنشأه أحمد باشا كوجوك لصالح دمشق والقدس ومكة والمدينة ، من ضياع الزعيم الدرزى فخر الدين بن معن التى منحها له السلطان مراد الرابع بعد أسر فخر الدين ووفاته فى عام ١٦٣٥ (٢) ٠

والتجديد الثانى هو محاولة مركزة الاشراف على الأوقاف ٠ وقد أدرجت تنظيمات جديدة فى القانون المصرى : فكان يجب فحص حسابات كل الأوقاف رسميا كل سنة بحضور الباشا ، كما كان يجب ارسال نسخة من حسابات ونفقات كل منها الى الآستانة ـ واذا ما حدث ووجد شغور فى الاشراف على وقف ما ، كان على القاضى أن يكتب توصية رسمية للباشا لصالح شخص فقير مستقيم وعلى دراية طيبة ، يختم عليها أيضا الصراف (بعد أن يستوثق من وجود الشغور) ، وكان يجب ادراج المرشح الى أن تصل البراءة الرسمية من الادارة المناسبة فى استنبول (٣) ٠ وفى كل من الولايات السورية كانت توجد ادارة مركزية للأوقاف مهمتها تعيين المفتش وتوزيع ريع أوقاف الأراضى على المنتفعين (٤) ٠

ولما كانت الأوقاف تسجل فى المحاكم الشرعية ، حتى وان

---

(١) ملخص فى الغزى ج ٢ ص ٥١٦ ـ ٢٨ ٠

(٢) انظر المرادى ج ٢ ص ٦٠ ٠

(٣) ديجون ، ص ٢٦٥ ـ ٦ . بركان ص ٢٨٣ ٠ وقبل أن يتم اقرار المفتش الجديد كان عليه أن يدفع رسما لارسال البراءه ، ولكن ارسالها بالفعل كان يؤجل حتى يمكن جمع حوالى ٤٠ أو ٥٠ لارسالها معا ٠

(٤) الغزى ، ج ٢ ، ص ٥١٣ ، المرادى ج ٤ ، ص ١٨٥ ،

كان راصدوها من غير المسلمين ، فمن الممكن أن يساعدنا فحص الوثائق التى لاتزال توجد فى محاكم مختلف الولايات على الحصول على أرقام مفصلة وحقيقية عن عدد مؤسسات الوقف التى أنشئت فى العهد العثمانى وأغراضها وأنواعها • ولما كان لا يوجد لدينا وصف كامل فمن الممكن أن نأخذ الأرقام التالية المتصلة بولاية حلب باعتبارها أحد نماذج الوضع (١) • فبين عامى ١٧١٨ و ١٨٠٠ سجل حوالى ٤٨٥ وقفا جديدا ومن هذه الأوقاف كان ٣٢ وقفا يتكون كله من أراض ، و ٣٠ وقفا آخر يضم كلا من الأراضى والأملاك غير المنقولة الأخرى وكان الباقى أملاكا (حوانيت ومصانع ومطاحن وحمامات وغير ذلك) • ولم تصل الينا المساحة الحقيقية للأرض المرصودة • ومن العدد الكلى كان يوجد ٢٣٧ وقفا عائليا اما كليا أو جزئيا • وكان يستفيد من الأوقاف الخيرية كل من المساجد والمدارس والخلوات وتكايا الدراويش والسبل وقنوات المياه والخانات وأضرحة مكة والمدينة والقدس (٢) وشاغلو وظائف دينية معينة والفقراء بوجه عام وأعمال متفرقة • وعلى حين كان من الممكن أن يكون كل وقف صغيرا نسبيا ، وهو ما جرت به العادة بوجه عام ، كان العدد الكلى للأملاك التى تحولت الى أوقاف كبيرا جدا •

---

(١) وهذه الأرقام مبنية على ملخص وقفيات حلب الذى نشره كامل الغزى ج ٢ ص ٥٣٤ ــ ٦٣٠ ، وتوجد الملخصات الخاصة بالفترة الممتدة بين عامى ١١٣٠/١٧١٨ ــ ١٢١٦/١٨٠٠ فى ص ٥٣٨ ــ ٦٩ • ويبدو أنه لا توجد ملخصات مشابهة عن الولايات الأخرى • ومما تجدر ملاحظته أن هذه الأوقاف تشتمل على عدد من المؤسسات المسيحية لصالح الكنائس اليونانية والمارونية فى حلب بل لصالح أديرة فى لبنان برغم ما لاحظناه من أن أمثال هذه المؤسسات كانت تعتبر غير قانونية •

(٢) وكانت دخول الأوقاف المرصودة على معبد القدس يحصلها سنويا أحد مشايخ الحرم أو مندوبوه : المرادى جـ ٣ ، ص ١٦٦ •

على أن النوايا الممتازة للتنظيم العثمانى كان يحجبها الفساد الرسمى الذى شاع خلال هذه الفترة • وكان المرشحون الواضحون لوظائف المفتشين هم أفقر العلماء وكان كثيرون منهم فى الواقع يتمكنون من تحصيل قوتهم بهذه الوسائل • ولكن كل دارس للفترة لابد أن يدهش للأعداد الكبيرة من الأوقاف التى كانت تشغلها الأسرات الموسرة ليس فقط من الطبقات الدينية بل أيضا من الموظفين المدنيين والعسكريين • وكان ثمة تنافس شديد على الاشراف على الأوقاف الكبرى بوجه خاص (١) بكل ما ترتب على ذلك من مؤامرات ورشوة وألوان أخرى من الفساد • وكان المتنافسون على الاشراف على الأوقاف يلجئون الى استنبول ـ ويبدو أنه كان من الأمور العادية أن يطرد المفتشون الفعليون لصالح مرشحين أكثر نفوذا (٢) • ويشتد الجبرتى فى نقد كل من ادارة الأوقاف الغنية على أيدى أشخاص من علية القوم ، والبذخ ويؤكد ما يلى : « وكان معظم ادارات دوائر عظماء النواحى وتوسعاتهم ومضايفهم من هذه الأرزاق التى كانت تحت أيديهم بغير استحقاق (٣) » • ورغم أن عددا كبيرا من المفتشين كانوا دون شك أمناء ومستقيمين فى ادارتهم ، وحتى المشايخ والقضاة

---

(١) وهذا غير الأوقاف السلطانية التى كان يديرها الأغا •

(٢) راجع Receuil des Firmans No 1 ، المرادى ج ١ ، ص ٤١ • مع أن وضع الوظيفة التى يثبت فيها صاحبها كان يختلف اختلافا كبيرا ، وقد حصل أحد أفراد أسرة الكيلانى على تولية جزء من وقف أسرى ببراءة من قاضى العسكر ، ثم حولها الى حساب الحرمين (محاسبة الحرمين) ، انظر ما يلى ، وفى النهاية حصل من السلطان محمود الأول عن طريق النفوذ على خط شريف يتعلق بها : المرادى ج ٣ ص ١٣٨ • عن فرمانات سلطانية أخرى انظر Receuil رقم ٤ و ٧ و ٩ و ١٢ و ١٥ •

(٣) الجبرتى ج ٤ ، ص ٢١٠ راجع المرادى ، ج ٣ ، ص ١٩٢ و ص ٢٨٠ •

والمفتشون لم يكونوا بمنجى من سـوء استغلال مناصـبهم التى يؤتمنون عليهـا بطرق مشابهة ، ولكن فى أحيـان كثيرة كانت السلطات تتعقبهم وتعاقبهم (١) ٠

ومن حيث المبدأ كان لايمكن الغـاء الأوقاف لأنهـا كانت أبدية (٢) كما كان لايمكن اجراء أى تعديل على شروطها ٠ ورغم اختلاف المشرعين بصدد هذه المسألة لم يكن من المقصود أن لاتقتصر فعالية الوقف على الفترة التالية لوفاة مؤسسه ، فقد كن عليه أن يتنازل عن ملكيته للأملاك الموقوفة منذ اليوم الذى تصبح فيه الوقفية نافذة المفعول (٣) ٠ واذا انتهى غرض الوقفية ـ على سبيل المثال اذا ما دمرت مستشفى أو مدرسة ـ كان يفترض فى الموارد أن تخصص لغرض خيرى آخر كان فى كثير من الحالات يحدد فى الوقفية ذاتها (٤) ٠ وكان الشهود يشهدون بصحة الوقفيات فى محكمة القاضى (٥) وكانت توضع فى صيغتها القانونية اما على شكل كتاب أو ورقة ملفوفة من الورق أو من جلد الحيوان ٠ وأحيانا اذا كان موضع الوقف هو مبنى كان ملخص الوقفيـة ينقش على الحجر على جزء من جدرانه (٦) ٠ وكانت كل الوقفيات ـ على حد سواء ـ تسجل فى أحد المكاتب الثلاثة التابعة للقسم المالى الذى

---

(١) المرادى جـ ١ ، ص ٤١ ، جـ ٤ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ص ١٨٥ ٠

(٢) Encyc. of Islam, s.v. (Wakf); Kunter, 109.

(٣) وقد جرت عادة العثمانيين على أنه فى حالة اعلان شخص ، دون استكمال الرسميات اللازمة لانشاء وقف صحيح ، أنه فى حالة وفاته تصبح بعض أملاكه « موقوفا » كانت تعتبر وصية عادية وبذلك لا تنطبق على أكثر من ثلث تركته : دوسون جـ ٢ ، ص ٥٤٦ وبيلان ، ص ١٥٧ وما بعدها ٠

(٤) أنور . ص ٢١ ، كنتر ص ١٢٤ ٠

(٥) انظر ما سبق ـ Encyc. of Islam, s.v. Shahid.

(٦) كنتر ص ١١٦ ٠

كان يختص بهذه المؤسسات فى استنبول (١) أو فى القسم المالى بالولاية (٢) ٠

واذا كانت الموارد الناتجة عن الأملاك المخصصة لمؤسسة تزيد على النفقات اللازمة ـ وكان ذلك يحدث عادة بالنسبة الى الأملاك التابعة للمساجد السلطانية ـ (٣) كان يفترض أن الفائض يكون مبلغا احتياطيا يسمى دولاب (٤) . وبهذا المبلغ كان يمكن الحصول على أملاك أخرى ٠ وأحيانا كانت تشترى هذه الأملاك رأسا ولكن طبق فى نفس الوقت نظام خاص على مدى واسع كان المتولون طبقا له لا يدفعون لبائع العقار أكثر من نصف ثمن شرائه ، وأحيانا أقل من ذلك بكثير بشرط أن يقوم البائع بتأجيره من المؤسسة التى كان يجب عليه أن يقدم لها ايجارا مقدما وايجارات دورية ـ بشكل شبيه بما كان يدفعه الرعايا بالنسبة الى أراضى الوقف ٠ وكان ذلك يخدم مصالح كلا الطرفين لأنه كان يضمن للوقف تأمينا طيبا بثمن بخس ، فى نفس الوقت الذى كان يمكن فيه للمستأجر أن يواصل استثمار ما كان ملكا له بعد أن أصبح فى نجوة من الحجز عليه بسبب الدين بحكم تحويله الى وقف ٠ كما كان بامكان المستأجر أن يحول الايجار الى شخص آخر وحينئذ كان الواقف يستفيد مرة أخرى من الرسم

---

(١) الحرمين محاسبسى والحرمين مقاطعسى والكوجوك أوقاف محاسبسى ٠ انظر الجزء الثانى ـ الملحق ٠

(٢) انظر ما سبق ٠

(٣) انظر دوسون جـ ٢ ، ص ٥٣٨ عن مصادر دخل المساجد السلطانية فى العاصمة فى أيامه ٠

(٤) كلمة فارسية ذات عدة معان ، تستعمل فى التركية لتعنى ـ فيما تعنى ـ دولاب ٠ ولكن ربما كان استعمالها فى هذه الحالة بمعنى خزانة مشتقا من معناها الفارسى الخاص بجسم اسطوانى متحرك موضوع فى فتحــة فى حائط مؤســسة ـ المستشفى ـ لتلقى الصدقات انظر : Steingass, Persian Dictionary.

الواجب الدفع عن هذا الانتقال أو كان باستطاعته أن يهبه لأبنائه دون أن تعترض ذلك شروط الارث التى نصت عليها الشريعة (١) ٠ واذا توفى أى مستأجر دون وريث كانت ملكية العقار برمته تنتقل الى المؤسسة ٠

وعادة ما كانت تتكدس فى الحرمين دولابى ، أى خزانة الأوقاف السلطانية ، مبالغ وفيرة جدا وذلك لتكدس موارد زائدة عن الأملاك المخصصة لها ، ورغم أن مثل هذه التحويلات كانت أمرا يؤسف له ، كانت الحكومة بين وقت وآخر منذ القرن السابع عشر تقترض من هذا المصدر لتواجه التزاماتها حين تضغط عليها الحاجة الملحة (٢)٠ يضاف الى ذلك أن الموارد الزائدة (بل العادية) لهذه الأوقاف وغيرها كانت تستعمل بطريقة أقل سلامة وهى انتقالها بصفة جزئية الى أيدى النظار والمتولين المسئولين عنها ٠ ويبدو فى الواقع أن السبب الرئيسى لتفشى الفوضى فى ادارة الأوقاف بمضى الزمن هو اهمال النظار فى مباشرة سلطتهم أو ما هو أسوأ من ذلك (٣) ٠ ورغم ما سبق ان رأيناه من أن فوضى الادارة كانت موضعا للعقاب فى كثير من الأحيان (٤) فان المديرين كانوا لا يخشون عواقب سوء

(١) دوسون جـ ٢ ص ٥٥٢ وما بعدها وبيلان ص ٥١٦ وما بعدها ـ وهذا الأخير يعتبر هذه الأملاك التكميلية أوقافا عادية ٠ ويلحظ الجبرتى (جـ ٤ ، ص ٢٠٩ ـ ١٠) أن وضع اليد على أراضى الأوقاف كان بوجه خاص موضعا لطمع المزارعين بحكم أنه كان لا يمكن زيادة الضريبة القليلة جدا التى كانت مفروضة عليها ٠

(٢) هناك أمثلة يلحظها بيلان ، ١٨٦٤ ، جـ ٤ ، ص ٢٩٦ ، ص ٣٣٠ ، ص ٣٦٠) باعتبارها حدثت فى الأعوام ١٦٢٢ و ١٦٥٥ و ١٦٩٨ ٠ راجع دوسون جـ ٢ ، ص ٥٤١ ٠

(٣) سيد مصطفى جـ ٤ ، ص ١٠٠ ، عبد الرحمن شرف ص ٥١١ ٠

(٤) راجع ما سبق ، وربما يبالغ دوسون فى القول بأن الدولة لم تكن على علم بتفاصيل ادارة الأوقاف باستثناء اصرارها على ضرورة عدم اهمال الأهداف التى توخاها مؤسسوها (جـ ٢ ، ص ٥٤٧ ـ ٨) ٠

التصرف فى هذه الأموال بهذا الشكل الا ممن يخلفونهم فى المنصب الذين كانوا عادة يعول عليهم فى عدم التقدم بأى شكوى بحكم أن الصمت كان ينيح لهم أن يسيروا على نفس المنوال (١) · والحق أن مؤسسى الأوقاف ، لأسباب وجيهة ، كانوا يحسون باحتمال سوء التصرف فى الموارد التى خصصوهـا لأوقافهم وأحيانا ما كانت الوقفيـات تحتوى على فقرات تهديدية تنص على أن من يسـيئون التصرف فيها يتعرضون للعقاب يوم القيامة (٢) · ولا شك أن مرجع حصول القزلر أغاسـيه على ربح وفير من اشرافهم على الأوقاف هو استشراء سوء التصرف الذى تطور فى القرن الثامن عشر بحيث أصبح فسادا معترفا به بالامكان التجاوز عنه · ولكن دوسون يذكر أن ادارة الأوقاف الواقعة تحت اشراف القزلر أغاسيه كانت لا تتعرض الا لأقل المفاسد (٣) ·

وبالاضافة الى سوء التصرف فى موارد أملاك الأوقاف كانت صيانتها فى الواقع باستمرار موضعا للتهديد من ناحيتين ـ فمن ناحية نجد أن المفتشين الأثرياء وذوى النفوذ ، أو حتى الأشـخاص الذين هم أدنى رتبة ممن كانوا يشغلون مناصبهم بالوراثة ، كانوا يميلون الى تحويل أملاك الوقف الى أملاك خاصـة عن طريق القوة والرشوة أو الخديعة (٤) · ومن المهام الملحة التى واجهت الادارة الحيلولة دون وضع اليد بطريقة غير مشروعة على أملاك الوقف أو ضمها بنفس الكيفية ـ وفى مصر ، على سبيل المثال ، كان يسـجل كل رزقه أفندى خاص (٥) · وفى الواقع لقد أصبحت رزق كثيرة ـ فى أواخر القرن الثامن عشر ـ أملاكا خاصة من جميع النواحى ـ

---

(١) دوسون ، جـ ٢ ، ص ٥٣٨ ـ ٩ ·

(٢) على سبيل المثال الوقفيات التى نشرها كنتر ص ١٢٠ ـ ١ ·

(٣) دوسون جـ ٢ ، ص ٥٣٩ ·

(٤) على سبيل المثال : المرادى جـ ١ ، ص ١٨٥ ·

(٥) لانكريه ص ٢٤٠ ولا يشيد الجبرتى بأمانته (جـ ٤ ، ص ٧٧) ·

فبات المديرون يتصرفون فى الأراضى والموارد كيفما شاءوا (١) بحيث زادت قيمة أراضى الوقف الفعلية فى ذلك الوقت على قيمتها الاسمية .

ورغم ذلك فان حماسة المزارعين والنظار لحسن المحافظة على أملاك الوقف لم يوازن آثار اختفاء الملكية الشخصية وعدم وجود رأس المال الذى يحتاج اليه الأمر ـ حتى فى مصر ـ للابقاء على الانتاجية الكاملة للأرض . ورغم أن واجب الادارة المركزية ، الخاص بمساعدة القضاة المحليين ، كان يقتضى المحافظة على انتاج أملاك الوقف برمتها وصيانتها صيانة كاملة ، فان المصير المحتوم تقريبا الذى كان يواجه أراضى الوقف هو الشرق وقلة الغلة وتركها جرداء فى نهاية المطاف . وكان العلاج الوحيد الذى كان موضعا للاعتراف القانونى الكامل هو السماح بنقل ملكيتها عن طريق تأجيرها لمدة طويلة ـ فكان المستأجر يدفع مبلغا كبيرا مقدما وايجارا سنويا قليلا بعد ذلك (٢) . وعلى حين أن القانون كان لا يسمح بمثل هذا البيع الا اذا كانت الممتلكات فى حالة سيئة ، على أن يكون مفهوما أن المبلغ المتحصل لا يستعمل الا فى شراء أملاك أخرى تتحول بدورها الى أوقاف ، فسنرى مدى سماح هذا النظام بفتح المجال لاجراءات هدفها التهرب من القانون بشرط ضمان تواطؤ القاضى . على أنه يحتمل أن أراضى الأوقاف كانت لا تعانى من هذه المفاسد ما كانت تعانيه المبانى الموقوفة . وقد أثبتت تجارب عدة قرون فى كل البلدان أن أملاك الوقف قد انهارت بسرعة ـ ولمواجهة هذا الاحتمال وجدت

---

(١) الجبرتى جـ ٤ ص ٢٠٨ ـ ٩ شكاوى سابقة على ذلك بخصوص الاستيلاء على موارد الوقف نفس المرجع جـ ١ ، ص ٢٦ . ويذكر لانكريه (ص ٢٣٩) أن ملاك أوقاف عديدين كانوا يدفعون رسما صغيرا للباشا لكى يساندهم فى المتعادة مصادر دخلهم .

(٢) وكان هذا العقد يسمى ايجارتين ، وكان من شأنه أن يخلق وضعا مشابها لوضع أراضى الأوقاف المؤجرة للرعايا ، انظر ما سبق . ويذكر لانكريه (ص ٢٣٩) أن الايجار كان يمنح عادة لمدة تسعين سنة .

خطة شبه قانونية تقتضي استبدال أملاك الوقف بأملاك أخرى لهـا نفس القيمة تصبح أوقافا بعد أن تنتقل الأولى الى يد المالك السابق للأخيرة (١) . ولكن ما حل القرن السادس عشر حتى أصبحت هذه الخطة الخاصة بالاستيلاء على الأوقاف من سـوء السـمعة بحيث تشددت قوانين السلطان سليمان في تحريم نقل ملكية المبـاني الخربة التابعة للأوقاف سواء بالبيع أو بالتبادل حتى وان بدا ذلك في صالح الأوقاف المعنية . وذلك بسبب أعمال التحايل التي كانت تتم بهذه الحجة ، وفوق ذلك كان كل من البائع والمشترى يعاقب بشدة في حالة نقض هذا القانون (٢) . وكان العلاج الذى شخصه المشرع العثماني هو انفاق جزء من الدخل على الاصلاحات حتى ولو أدى ذلك الى ضرورة خفض الاعانات التي كان من الواجب دفعهـا من الوقف (٣) ، وجعل النظار مسئولين أمام المحاكم عن المحافظة على سلامة الأملاك (٤) . ورغم ذلك وضـح أن تنظيما جامدا مثل هذا يحرص على التناسق المنطقي على حساب المنفعة العامة ، كان غير عملي على المدى البعيد ــ وما وافى القرن الثامن عشر حتى كان من الممكن استبدال أوقاف بأخرى بفرمان سلطاني (٥) على أنه ما حل هذا الوقت حتى كان الفساد قد إستشرى في ادارة الأوقاف بوجه عام بحيث كان من الطبيعي أن يكون حسن تنظيمها من أولى الاجراءات الاصلاحية التي اضطلع بها السلطان محمود الثاني في بداية القرن التاسع عشر وأن ينفذ واليه محمد على اجراءات أكثر عنفا في مصر .

---

(١) ومثل هذا التبادل كان يسمى استبدال .

(٢) ديجون جـ ٢ ، ص ٢٦٧ ـ ٨ بركان ص ٣٨٤ .

(٣) ديجون جـ ٢ ، ص ٢٦٥ ـ ٦ : واذا اقتضى الأمر كان الناظر والامام والمؤذن والخطيب هم الذين يمكن أن يتقاضوا رواتبهم . وكان الباقي يصرف على الاصلاحات (راجع ص ٢٧٠) .

(٤) Cf. Recueil des Firmans, No. 2.

(٥) D'Ohsson, ii, 548; Cf. Belin, Propriété foncière, J.A., Série xviii, 411.

الفصل السابع

الدراويش

سبق أن تناولنا التركيبات الرئيسية للتنظيم الديني الرسمى فى الامبراطورية العثمانية ـ ولكن تبقى طبقة أخرى من الأشخاص على قدر كبير من الأهمية ، كان وضعهم شبيها بوضع العلماء من حيث أنه كان دينيا هو الآخر ـ وقد سبق أن عرضنا لهم أحيانا فى الفصول السابقة ـ وهؤلاء هم الدراويش . وكلمة درويش ـ وهى من أصل فارسى ـ تستعمل فى هذه اللغة وفى اللغة التركية بمعنى « فقير » فى اللغـة العربيـة ـ أى رجل دين يعيش فقيرا بمحض اختياره . وتنطبق هذه الكلمة على رجال الدين الذين يمارسون التصوف أو الصوفية .

وحين عرضنا للملامح العامة للتنظيم الدينى فى الفصل الثامن ، لخصنا تاريخ الحركة الصوفية فى العالم الاسلامى وصلاتها بالعلماء

السنين (١) • على أننا قبل أن نعرض للمكانة التى احتلها الدراويش ولنفوذهم الاجتماعى فى الامبراطورية العثمانية يجب أن نناقش ببعض التفصيل ملامح معينة فى نطاق الحركة التى ساهمت فى تشخيص تطورها بعد ذلك أثناء فترة دراستنا •

فالمتصوفة المسلمون الأول كانوا من الحماقة بحيث تصوروا ان المتفقهين فى الدين قد يعتبرون طقوسهم متعارضة مع الطقوس التى تنص عليها العقيدة الحقة • كانوا « فاحصين للقلب » (٢) حاولوا بالتفانى الشديد وبالرياضة القاسية أن يعدوا أنفسهم للكشف • ولكن عند نقطة معينة كان اهتمامهم الشديد بانارة الضمير مما أفضى ببعضهم الى تقييم هذا الكشف ورياضته فوق مستوى

---

(١) انظر :

Encyc. of Islam, art. Darwish. (Macdonald), artt. Shadd, Tarika and Tasawwuf (Massignon); R. A. Nicholson. The Mystics of Islam (London, 1914); A. J. Arberry, Sufism (London, 1951);

والكتب والدراسات العديدة التى كتبها ماسنيون ، وبالاضافة الى المعلومات التى قدمها دوسون لم يكتب بعد وصف عام للتصوف فى الامبراطورية العثمانية • وسنشير فيما بعد الى الدراسات المتخصصة عن حركات معينة فى مواضعها ، ولكنها قليلة ، والعرض الذى سنحاوله فى هذا الفصل لن يمكننا الا من ايضاح أهمية الدراويش فى حياة الناس الدينية والاجتماعية والمجال الشاسع الذى يجب دراسته بالتفصيل •

(٢) وقد استعمل الاصطلاح بالفعل فى العصور المتأخرة بمعنى يشتم منه الاتصال بالطقوس الدينية ، فعلى سبيل المثال كان يوجد بين الملامية شخص يسمى قلبه بقيجى « فاحص للقلب » مهمته فحص ضمير المتطلعين الى القداسة ـ وهى عملية كانت تسمى كونول بكلمة ، ومعناها أيضا « فحص القلب » :

Abdul Baki Melamilik ve Melamiler, 192;
Kopruluzade Mehemet Fuat, Les Origines du Bektachisme.

عن الملامية انظر ما يلى •

ما نصت عليه الشريعة ، واسوا من هذا اتجاه بعضهم الى التأمل الميتافزيقي الذى كان سائدا فى ذلك العصر • وقد أدى أول اصطدام لهم بالعلماء الى اعدام منصور الحلاج في عام ٩٢١م بتهمـة القذف والهرطقة (١) وبعد ذلك يمكن القول بأن الحركة الصوفية بوجه عام قد انقسمت الى جناحين • أحدهما ، ومركزه بغداد ، أبقى على العلاقات الوثيقة تماما مع السنة ، والآخر ومركزه خراسان (وان يـــكن له دعاة فى بـــلاد أخرى أيضا) ، كان يمارس طقوسا أكثر تطرفـــا •

يضاف الى ذلك أن هذه الاتجاهات التى نلمسها عند متصوفة خراسان والشرق قد سارت فى اتجاهين متميزين كان مقيضا لكل منهما أن يكون له أثر كبير على بعض طرق الدراويش التى نشأت فى القرون التالية وخصوصـــا لدى الأتراك الذين كانوا فى هـــذه الفترة بالذات على وشك الدخول فى المجتمع الاسلامي • ويتمثل أحد هذه الملامح فى المجموعات المعروفة بالملامتية أو الملامية (٢) ، وكانوا يتميزون باحتقارهم للنفاق فى الدين ـ وبالنفاق كانوا يعنون الاعتقاد بكفاية أداء الواجبات التى نصت عليها الشريعة وبخاصة اذا ما كان أداؤها هذا من قبيل التظاهر ـ ومن هنا جاء اسمهم الذى يعنى أنهم كانوا على استعداد لاستنكار الانشقاق • ورغم ذلك فقد حرصوا على تجنب التظاهر بالمروق ذاته ، ولكى يتسنى لهم ذلك كانوا على استعداد للقيام بالواجبات الأكثر وضوحا ، برغم اعتقادهم بعدم جدواها • وكانوا أيضا لا يرتدون زيا خاصا وكانوا يتبعون الواجبات العادية بحيث لا تلحظ فيهم أغلبية الناس شيئا غير عادى • وأخيرا كان عليهم أن لا يدعوا لمذهبهم أو يعقدوا الاجتماعات لترديد

---

(١) L. Massignon, La Passion d'al-Hallag (Paris, 1922).

(٢) من الكلمة العربية ملامة وجمعها ملامات •

الابتهالات، كغيرهم من المتصوفة ، وبوجه خاص أن يتجنبوا إستثارة اعجاب الجهلة بممارسة السحر • وقد قيض للمثل العليـا التى وضعها الملامتية نصب أعينهم أن تمثل فى التاريخ المتأخر للتصوف الاسلامى ما يمكن أن نعتبره أنقى الأسس الأخلاقية فى الاسلام ، كما قيض لها فى فترتين متأخرتين أن تكتسب كثيرا من الأتباع (١) • وفى نفس الوقت لم يكن من المتوقع أن يهتم كل أتباع المذهب الملامتى بعدم نقض الشريعـة ، اذ من الممكن أن نلمس لديهم التحلل من الأخلاق الذى انتشر فى كل الدوائر الصوفية ممـا عرضهم للنقد الشـديد من جـانب كل من المتفقهين فى الدين وأقـرانهم من المتصوفة (٢) •

والصفة الثانية للتصـوف الخراسـانى هى التعلق الشديد بالحلاج الذى أصبح رمزا للولهان « شهيد الحب » • كان السنيون يستنكرون هذه الحماسة • فبالاضافة الى اتجاهات الكشف التى كانت تتضمنها ، كان ثمة تبرؤ صريح من العلماء الذين ألقيت على عاتقهم مسئولية اعدامه (٣) ، ولما تسربت الحلاجية الى المقطوعات الغنائية التى صاغها الشعراء الفرس العظام فى القرن السابق على المغول ، وجدت هوى شديدا ليس فقط لدى الفرس ، بل أيضـا

---

(١) عبد الباقى ، ص ٢٢ ــ ٢٦ •

(٢) انظر ــ على سبيل المثال ــ آربرى ، ص ٤٠ و ص ٧٠ ، على انه يبدو ان هذه الملامات كانت لا توجه الى الملامتية بمعنى الكلمة بقدر ما كانت توجه الى الانبساطيين الذين اتخذوا اسمهم واطلق عليهم فيما بعد اسم القلندرية : انظر ما يلى ، والسهروردى ، عوارف المعارف ، حاشية لكتاب الغزالى : احياء علوم الدين ، جـ ٢ ، ص ٢ ــ ٤ •

(٣) L. Massignon, L'Oeuvre Hallagienne d'Attar, in Revue des Etude Islamiques, 1941-6, 117-44.

لدى الأتراك ومنهم أول الشعراء الأتراك الشرقيين وأعظمهم : أحمد يسوى (١١٦٦م) (١) ٠

وثمة عامل ثالث من عوامل التحلل كان قد أخذ يفعل فعله في الحركة الصوفية ٠ فأنشط الفرق المتعددة التى انقسمت اليها الحركة الشيعية ، وهى الحركة التى انتشرت في شتى ربوع العالم الاسلامى فى القرنين التاسع والعاشر ، فرقة الاسماعيلية التى تمخضت دعايتها عن قيام الخلافة الفاطمية وظهور القرامطة والدروز والحشاشين الذين ظهروا فى وقت متأخر في شمالى فارس وسوريا ، وكان اتباع هذه المبادىء يسمون بالباطنية لأنهم أصروا على وجوب تفسير القرآن تفسيرا « جوانيا » (وباطن بمعنى الداخل « داخلى » فى مقابلة ظاهر بمعنى خارج وخارجى) ٠ وقد سبق أن لاحظنا بالفعل أن الصوفية والشيعة على حد سواء قد ضموا أكبر عدد من اتباعهم فى القرون الأولى وهم من سكان المدن الساخطين ، برغم اختلاف الحلول التى وضعها الباطنية والمتصوفة لمشاكل الظلم الاجتماعى ٠ وكان مسلك الصوفية شديد البعد عن العالم الأرضى بحيث لم يجتذب الباطنية الذين كانوا يهدفون الى القيام بثورة دنيوية ٠ على أن مبدأ وطريقة التفسير « الجوانى » الذى أخذ به الباطنية كان لهما أثر ضخم باق على المتصوفة ، الذين كانت تربطهم بالشيعة ـ على أى حال ـ صلة أخرى هى تعلقهم بذكرى على وبنيه (٢) ٠

---

(١) Id. La Légende de Hallace Mansur en pays turcs in Revue des Etudes Islamiques, 1941-6, 67-73.

(٢) على أن مما يجب ملاحظته أن المذهب الشيعى كان لا يزال أكثر عداء للصوفية مما كان عليه السنيون المتقدمون ، لأن اهتمام المتصوفة بالعلاقة المباشرة بين الله والانسان جعلهم ينكرون المضمون المميز للشيعة ، ومفاده أن الخلاص يرتبط بالاخلاص للامام من آل على ٠

ومما لا شك فيه أن قبول كبار السنة للتصوف في القرن الثاني عشر لم يجعل هذه الأشكال المنحرفة بصفة آلية مبدأ مقررا معترفا به في مجال الاسلام . على أنه جعل تحديد الفروق الدينية أمرا أكثر صعوبة بالنسبة الى الفقهاء في نفس الوقت الذى أبعدت فيه التطورات السياسية أى احتمال لمباشرتهم اشرافا سياسيا فعالا على الحركات الدينية المحلية . ويبدو أن حروب الحدود المستمرة في هذه المناطق ضد غير المسلمين ومن لا دين لهم قد أدت بمرور الزمن الى تكوين منظمات محلية من الغزاة (جمع غازى) بمعنى المجاهدين في سبيل العقيدة ، أطلقوا على أنفسهم اسم « الفتيان » وعلى منظماتهم اسم « الفتوة » (١) متأثرين في ذلك بالمثل العليا الفارسية المتعلقة بالفروسية .

وقد وجدت هذه الهيئات من قلدوها في مناطق أخرى أيضا وبخاصة في المدن حيث ردت عصابات من الرجال الأشداء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم « الفتيان » على عنف السلاطين وموظفيهم وطغيانهم بعنف مضاد (٢) . وقد قام المتصوفة بدورهم برعاية

---

(١) فتيان جمع كلمة فتى التى تقترن في الأدب العربى بالمثل الأعلى لدى البدو عن الرجولة والشجاعة والكرم — وهى صفات يخلعها العامة بمعنى خاص على على بن أبى طالب . انظر :

Encyc. of Islam, artt, Futuwwa Shadd : H. Thorning, Beitrage zur Kenntois des islamischen Vereinswesens (Berlin, 1913) : F. Taeschner, Das Futuwwa — Rittertum des islamischen Mittelalters, in Beitrage zur Arabistik, Semitistik und Islamissenschaft (Leipzig, 1944).

والصفة الظاهرة المألوفة لدى كل جماعات الفتوة هى حفل القبول الذى كان يتضمن شرب الماء المالح والباس الحزام « وسراويل الرجولة » .

(٢) ولا يزال من غير المؤكد مدى انبثاق هذه الهيئات عن منظمات الطوائف السابقة ، ورغم أن بامكاننا الشك في تأثرهم بالباطنية ، فلم يقم أى دليل على ذلك حتى الوقت الحاضر . وفي اللغة العامية الحديثة في مصر لا تزال كلمة فتى تعنى « بلطجى » أو فتوة .

جمعيات مماثلة وحاولوا أن يضفوا عليها محتوى أخلاقيا أكثر منه سياسي ـ وهدفهم من ذلك تنمية عاطفة التضامن بين أعضائهم بالاشتراك فى مصادر الدخل وحفز فضائل الكرم وحسن الضيافة وحماية الضعفاء • وكان مفعولهم من الانتشار بحيث أن خليفة عباسيا فى أواخر القرن الثانى عشر (الناصر الذى حكم من ١١٨٠ الى ١٢٢٥) أنشأ هيئة فتوة أرستقراطية وصادر كل الهيئات الأخرى ، محاولا بذلك أن ينعش سلطة الخلافة التى أصابها الوهن (١) •

والآن نعود الى القبائل التركية التى هاجرت الى داخل دار الاسلام فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر • ففى الوقت الذى كانت فيه قطاعات مختلفة من الأتراك لا تزال خارج نطاق الحضارة الاسلامية نجدها فى أوقات مختلفة تعتنق المسيحية والزرادشتية والبوذية والمانية • وكانت توجد أيضا روابط بين الأوغوز ، وهم الفرع الذى استمد منه الغزاة معظم رجالهم ، وبين الخزر الذين تحولوا الى اليهودية • ورغم ذلك فقد ظلت أغلبية الذين قيض لهم أن يحافظوا على حياتهم القبلية أثناء الهجرات وبعدها متعلقة بالديانة البدائية الخاصة بها وهى الديانة التى كان الأولياء المعروفون باسم قم أوزان يلعبون فيها دورا حيويا ، ولم يقبل هؤلاء الرحل بعض القيود التى فرضها الاسلام كتحريم شرب الخمر وعزل النساء بوجه خاص ـ بالاضافة الى سلسلة الصلوات المنتظمة ، وهم يشبهون فى ذلك بدو شبه جزيرة العرب • فالاسلام منذ البداية كان دينا حضريا لا صحراويا أو على أى حال دين الاستقرار ـ وقد أقام سكان المدن بنيانه الفوقى على أسسه الأولى • على أنه بسبب

(١) P. Kahle in Festschrift fur Georg Jacob (Leipzig, 1932). 122 seqq. ant G Salinger in Proc. of Amer Phil. Soc., 1950 481 seqq.

مكانته الكبرى في البلدان التي غزاها الأتراك لم يكن ثمة شك في احتمال تحولهم الى الاسلام حتى ولو كان ذلك بصفة اسمية ، خاصة وأن قبائل الحركات الأولى كانت قد جرت وراء قادتها بشكل آلي واعتنقت الديانة الجديدة : ولكنهم أثناء هجرتهم هم وخلفاءهم ، وجدوا أشكالا عدة من المذاهب الاسلامية كان عليهم أن يختاروا أحدها • وكان لابد أن يقع اختيارهم على جماعات الفتوة من النوع الذي اختاره الغازي ، لأنهم (أولا) كانوا يحتلون أراضي الحدود الشمالية لدار الاسلام الممتدة من منطقة وراء النهر الى قلب الأناضول ـ (ثانيا) لأنهم بانخراطهم في هذه الجماعات احتفظوا ، الى جانب حياتهم القبلية ، بكثير من عاداتهم الدينية الأصيلة ـ وتحول القم أوزان السابقون الى ـ أو حل محلهم ـ رجال مسلمون أتقياء اتخذوا اسم البابات (جمع بابا بمعنى أب) وهؤلاء بدورهم تأثروا تأثيرا شديدا بتصوف خراسان سواء أكان سنيا أو غير سني ـ وهذا الأخير كان أبرز (١) •

وقد ثبت ان اندماج تنظيم الفتوة في القيادة الصوفية قد أخرج الى حيز الوجود أنشط وأنجح تنظيم اجتماعي ظهر في القرون المضطربة الممتدة بين واقعة منزكرت (١٠٧١) وقيام الدولة الصفوية في فارس (١٥٠٠) • وقد تم احتلال الترك لآسيا الصغرى على أيدي منظمات من هذا النوع قامت بذلك على حسابها الخاص ، وبعد الغزوات المغولية التي جلبت الكوارث على فارس وفرت هذه المنظمات

---

(١) Kopruluzade Mehemet Fuad, Anadoluda Islamiyet, 42 seq.

ومما قد يكون له بعض الدلالة بالنسبة الى تاريخ الاسلام في الفترة المتأخرة ان السنية الاسلامية الأولى لم تعرف لدى الأتراك باعتبارهم امة أو مجموعة من الشعوب الا بسبب كونها نظاما رسميا أو امبراطوريا . وان خبرتهم الدينية ، في ظل الاسلام اتخذت طابعا صوفيا منذ البداية •

نموذجا قامت عليه بالتدريج أسس الحياة والثقافة الاسلاميتين ـ وتم ذلك بجهود ضخمة وفي مواجهة موجات متكررة من التخريب .
ولقد قامت كل من السلطنة العثمانيـــة والامبراطورية الصــفوية المنافسة لها على نفس الأسس . وأصبح السلاطين السلاجقة في الأناضول ـ وهم الذين مروا بنفس التطور الذى يميز الأسر الحاكمة الاسلامية ـ من أنصار الاتجاهات السنية في مواجهة مظاهر المروق ، ولكي يسيطروا على الاستقلال الفوضوى الذى تمتعت به منظمات الغزاه القبلية حاولوا أن يقيموا ادارة مركزية منظمة ونقلوا الى الأناضول الحضارة الحضرية التى تطلبتها هذه الســــياسات وذلك باجتذاب الفقهاء والمتضلعين فى القانون والتجار والحرفيين المسلمين من سوريا والعراق (١) . وكانوا من النجاح بحيث حين ضعضعهم التدخل المغولى بدورهم نمت هيئات فتوة جديدة فى المدن اتخذت اسم الأخيان (جمع آخى) الذين سبق أن أشرنا كثيرا الى أثرهم بالنسبة الى الامبراطورية العثمانية الناشئة (٢) . وهذه الهيئات القائمة على التجار والحرفيين لم يقتصر أثرهـــا على كبح جماح الاداريين السلاجقة بل انها أسست جمهوريات صغيرة كان رؤساؤها يباشرون بعض السيطرة على الريف المجاور أيضا بسبب سلطتهم المزدوجة فى المجالين الاقتصادى والدينى .

---

(١) وقد أدى عداء رجال القبائل الشديدة لهذه السياسة الى ثورتهم ذات الطابع السياسى والدينى فى عام ١٢٣٩ بقيادة شيخ قلندرى اسمه بابا اسحق ، ورغم قمع ثورتهم ، فان هذه الحركة البابائية قد مهدت للحركة البكتاشية : انظر ما يلى .

(٢) انظر جـ ١ ، الملحق ، ايضا كوبريلنراده ـ أيضا :

Wittek, The Rise of the Ottoman Empire (London, 1938); Mustafa Akdag in Bulletin of the Turk Tarih Kurumu, Vot. XIV part 55 (1950), pp. 319 seqq.

ورحلة ابن بطوطة ، ودائرة المعارف الاسلامية : **(Akhi)**

ولهذا فبإمكاننا أن نميز في نهاية القرن الثالث عشر ثلاثة أنواع من الصوفية من الناحية الرسمية ان لم يكن من الناحية العملية باستمرار بسبب كثرة الاختلاط . والنوع الأول هو التصــوف المعتدل ـ والسني بوجه عام ـ الذى اتسمت به مدرسة بغداد . وهذا النوع هو الذى نقله نور الدين وصلاح الدين وخلفاؤهما الى مدن سوريا ومصر ، وما لبث أن ازداد ارتباط العلماء به بشكل مستمر . وفي الطرف الآخر كانت توجد الهيئات الريفية القائمة على « الغزاة » عمليــا أو نظريا (١) وان يكونوا جميعا منحررين بدرجات متفاوتة تصل الى حد الهرطقة . وفي الوسط كانت توجد هيئات الحرفيين أو الهيئات الشعبية في المدن ـ وكان رجالها أقرب الى الاسلام الصــحيح من هؤلاء الآخرين ، وأقل تفكيرا من الأول ويفسرون « الجهاد » تفسيرات اجتماعية أخلاقية ويباشرون رياضات اشراقية تحت اشراف المشايخ المحليين .

وحين استرسلت هذه الخلافات خلال القرون التالية قربت شقة الخلاف بينهم في بعض النواحي بسبب انتشار مبدأ مشترك وانباع نمط مشترك من التنظيم . وفيما يتعلق بالمبدأ لم يتوقف الاجتهاد الصوفي ووصــل مداه في المنهــاج الذى روج له المعلم الاسباني ـ العربي ابن العربي (١١٦٥ ـ ١٢٤٠) . وقد وصف هذا النظام بأنه « وحدة الوجود » وقيض له ـ مع تعديلات طفيفة ـ أن يظل النظرية الميتافزيقيــة التى اعتنقهــا معظم المتصــوفة

---

(١) ولم يكن مبدأ « الغازى » شيئا خاصا بالأتراك وحدهم وان يكن اقوى للبادية بالنسبة اليهم . كما ان الطريقة البدوية (او الأحمدية) التى اسسها الشيخ أحمد البدوى في مصر السفلى قد استلهمت في المحل الأول مبدأ الدفاع عن مصر ضد الصليبيين .

المسلمين (١) · وكان من الممكن أن يندد السنيون الأكثر تشددا بهذا النظام ــ فعلى حين أن الاجتهاد الصوفى السابق كان يتفق مع الفقه الدينى السنى فى مرحلة حاسمة ، ومع استبعاد الانحرافات ، فان توحيد ابن العربى كان يختلف عنه على طول الخط تقريبا · فالسنية كانت تقدم الها خارج نطاق العالم المادى تماما ، أما ابن العربى فكان يقدم الها ينتشر انتشارا تاما فى الكون بصفة مستمرة ــ وأسوأ من هذا أن الشر لا يعدو أن يكون شيئا ظاهريا فيما لو كان الوجود يشكل وحدة مقدسة · فالمتصوفة من أهل العلم الذين بشروا بالمبدأ كان يحركهم حب عميق لله ، ولم يكونوا يستطيعون الاعتراف بصدور أى لون من ألوان القصــور الحقيقى عن الذات الالهية · وهذا الهيام مما ألهم عددا لا حصر له من الشعراء باعلاء الخليقة . كما ألهم عددا أكبر من المتجردين لحياة التأمل والزهد · ولكن أثر المبدأ على الأخلاق كان يتوقف على روح النظرة اليه · فالبنسبة الى المسيحيين ، كانت الأخلاق تعتمد على نظام يقوم على ضمانات خارقة للعادة ــ فالمرء يثاب على الخير ، على حين يتعرض مرتكب الرذيلة للعقاب فى عالم آخر · ولكن اذا كان كل شىء حسنا برغم ما يبدو على العكس من ذلك ، كان النظام كله عرضة للانهيار · ولهذا فاذا ما تم اتباع المبدأ على أيدى أشخاص لا يكترثون بما يصحب ذلك من نداء صدفى للتقـــديس ، كان لا معدى عن أن يفضى بهم الى نتيجتين رئيسيتين طالما أنه كان لا يعترضه اعتقاد مماثل وغير مطرد فى القانون الأخلاقى السنى ــ وهاتان النتيجتان هما : الاعتقاد بأن بامكانهم أن يعملوا ما يشاءون دون عقاب والتحمل القدرى للألم ·

ولا يقل عن ذلك أهمية من وجهة النظر الاجتماعية نمو واتساع

---

(١) انظر : A. E. Affifi, The Mystical Philosophy of : Muhyd-Din Ibnul Arabi (Cambridge, 1929).

نطاق طرق الدراويش (١) . وهذا التنظيم الجديد (الذى كانت الطرق الصوفية طبقا له ـ كما سنبين بعد قليل ـ ترتبط فى مراكز وبلدان مختلفة ـ باعتبارها فروعا أو محافل ـ بواحد أو آخر من عدد من المنظمات كل لها نظامها ولائحتها) كان مسئولا الى حد كبير عن سيطرة الصوفية على كل طبقات المجتمع الاسلامى خلال فترة الحكم العثمانى (٢) . ولم يقتصر الصوفية على تزويد مدارس التصوف بمراكز دائمة لم تكن قد قامت حتى ذلك الوقت بل أصبح من المعتاد تقريبا بوجه عام أن ينخرط العلمانيون فى سلك الطرق (٣) . لهذا نرى شكلا غريبا يقوم فى الواقع على نظامين رئيسيين يناقض كل منها الآخر ، ويقفان معا جنبا الى جنب ويعتبران بوجه عام نظاما واحدا . ولم يكن أغلبية السكان يعلقون أى أهمية على هذا التنافر بحكم أنه لم يكن باديا للعيان فى الواقع . وكان العلماء حضريين ، وكان من يدخلون فى دائرة نفوذهم يتوصلون الى حل وسط بالقيام بالطقوس الموصوفة للعبادة واتباع تنظيم عقائدى شديد التصوف . وكان الخارجون عن نطاقها يميلون الى

---

(١) هناك قائمة خاصة بالطرق قدمها ماسنيون فى :

Encyc. of Islam, art. Tarika :

انظر أيضا : J.P. Brown, The Dervishes, ed. by H. A. Rose (London, 1027) ; O. Depont et Coppolani, Le Confreries religieuses musulmanes (Alger, 1897).

(٢) وقد بين H. J. Kessling درجة المساندة الشعبية التى كانت تتمتع بها طرق الدراويش وأولياؤهم فى بحثه المعنون :

The Role of the Dervish Order in the Ottoman Empire, Studies in Islamic Cultural History, American Anthropologist, Memoir No. 76, April, 1954.

(٣) دوسون ، جـ ٤ ، ص ١٢ ـ ٢ . Encyc of Islam, art. Darwish

الاستغناء عن مجرد شكليات المذهب السني ، وذلك وفقا لقوة أو ضعف السيطرة الحكومية على أعمالهم · وهكذا اشتد التعارض بين الأشكال الحضرية والريفية من التصـــوف . ومرجع ذلك الرئيسي اختلاف العناصر المختلفة من الســـكان الذين يتبعونها من حيث الأصل والطابع ·

وفي المصطلح الاسلامي يطلق على القدر الذى عرضنا له حتى الآن فيما يتعلق بتنظيمات الدراويش طريقة أو طريقت · وقــد استعمل الاصطلاح في العهود السابقة ، بمعنى طريقة لعلم النفس الأخلاقى لدى الأشخاص ذوى الاتجاه الصوفي . ولــكن حين أخــذ المتصوفة يكونون جمعيات أصبحت بشكل غير ملموس تعنى مجموعة من القواعد التى كان من واجب أعضــاء كل من هذه الجمعيات أن يطيعوها · ورغم اختلاف هذه القواعد من طريقة الى أخرى الا أنها كانت تتشابه فى طابعها العــام · وكان الأعضــاء يعيشون فى (خلوات) تسمى تكيــة أو تكة فى اللغة التركيــة وخانقاه فى الفارســية ورباط أو زاوية فى العربية (١) · ولكى يصبح المريد متضلعا فى الوقت الذى لا يتجاوز فيه مرتبة درويش أو فقير بمعنى الكلمة كان ، بعد أن يتلقى تدريبه لفترة ما على يد أحد القدامى ، يتلقى مراسم قبوله من رئيس الخلوة (ويسمى شيخا أو بير أو بابا) فى حضور شاغلى المناصب الآخرين ، وذلك باحتفال ربط أو شد الحزام أو أخذ العهد · وبعــد قبــول الدرويش كان يجرى رسمه بتلبيسه (خرقة) والقلنسوة المعممة (تاج) اللتين كان يتميز بهما المتجردون للتصــوف · وكان شكلهما ولونهما يختلفان باختلاف الطريقة التى يتبعونها (٢) ·

---

(١) تكية (تكايا) من اتكى جمعتى جلس مستقيما او اكل ·

(٢) Encyc. of Islam artt. Tarika (Massignon) and Derwish (Macdonald), D'Ohsson, iv, 632-9, 661-4.

وكان الدراويش يعتبرون أنفسهم الخلفاء الروحيين للمتصوفة الأول • وكان كل منهم يتلقن شجرة نسبه الروحى • وربما يرتبط وجود مثل هذه العادة بأخرى مشابهة كانت منتشرة بين السنيين الأول الذين كانوا باستمرار يعطون اسم المصدر الذى تناقلوا عنه أى حديث يعرضـــون له ، مع سلسلة من الأسماء ترجع الى عهد الصحابة • وعلى أى حال فان شجرة أنساب الدراويش كانت هى الأخرى تسمى شجرة ـ ومن الطبيعى أن تختلف سلاسل أنساب الطرق فى روابطها الأخيرة ولكن استقرت الروابط كما هى فى الطرق جميعا ـ باستثناء ثلاثة منها : فسلاسلهم جميعا كانت تنتهى بالخليفة على (١) ورغم أنه كان باستطاعة الخصوم الســـنيين أن يبينوا أن الشخصيات الأربع الأولى التى وردت فى القائمة لم يواجه كل منهم الآخر على الاطلاق فان اعتقاد الدروايش بفاعليتها لم يهتز (٢) وفى كل سلسلة كان مؤسس الطريقة أو الذى يشتهر بأنه مؤســسها ذا وضع بارز جدا • وكانت تبنى تكيتها الأصلية عادة عند قبره الذى كان مزارا للحجاج • ذلك أن الرياضات الصوفية عند المتصوفة كانت تستهدف التوصل الى الارتباط بالذات العليا ، واعتقدوا أن من شأنه أن يفضى الى تلقى المخلص « لكرامات » • وكانت هــذه الكرامات تخلع عليه طاقــات خارقة : ولهذا كان العـــامة الذين لا يشكون فى أن مثل هذه الادعاءات تستند الى أســاس سليم ،

---

(١) هكذا يذهب دوســـون جـ ٤ ص ٦٢٦ ، حيث يذكر أن البســطامية والنقشبندية والبكتاشية كانوا يرجعون بأصلهم الى الخليفة أبى بكر • راجع دائرة المعارف الاسلامية كلمة بكتاشى (Tschudi) وكان مبدأ صوفيا يلقن فى فترة متأخرة نسبيا ، ورغم أنه من المحتمل أن يكون قد ظهر فى عهد مبكر ، وهو يميز بين الانتقال الباطن للخلافة من النبى الى خلفائه • وكان الانتقال الظاهر لأبى بكر ومن تلوه والباطن لعلى ـ انظر عبد الباقى ص ١٩٨ ـ ٩ •

(٢) Encyc. of Islam, art. Tasawwuf. راجع سلسلة الخلوتية التى أوردها صادق وجدانى : Halvetiye. IV, 7.

يعتبرون الفقيه الصوفى متمتعا بسمعة ولى • فأثناء حياته كان الناس يلحون فى طلب بركاته ، وبعد موته كان قبره يتخذ مزارا على اعتبار أنه المكان الذى يمكن فيه التوسل به الى الله على أحسن وجه •

وفى التاريخ الاسلامى المتأخر أصبح تقديس الأولياء مظهرا دينيا بارزا وشديد الانتشار • ولكن ترجع نشأته بأسرها الى سيطرة المفاهيم الصوفية على المؤمنين • حقيقة ان الحج الى مكة كان يقدم سابقة معترفا بها للاعتقاد بجدوى الزيارة ، وقد مهد تقديس الشيعة للأئمة للتطور الذى تلا ذلك • ولكن هذا التطور صوفى فى أساسه ، ولهذا السبب أثار احتقار وغضب الذين كانوا يفضلون التفسير الأصلى على هذا التفسير المتأخر للديانة ومن هنا مثلا عداء الأصوليين الوهابيين فى شبه جزيرة العرب لزيارة القبور •

وكان القديسون أنفسهم يعرفون باسم الأولياء أى أصدقاء الله ، ومنهم كان الأنبياء من آدم الى محمد بالاضافة الى متصوفة الأوقات المتأخرة • يضاف الى هذا أن الاعتقاد فى صفة القداسة هذه قد أفضى الى صفة أخرى : تمتع عدد من هؤلاء القديسيين باستمرار الحياة بحيث عرفوا باسم أهل الغيب ، الذين يتسلسلون فى قائمة يعلوها قديس أكبر اسمه القطب ، أو المحور الخفى للعالم (١) • وكان من المعتقد أن عدد الأولياء الأحياء كان ثابتا باستمرار بسبب دخول أعضاء جدد فى هذه السلسلة حين يتوفى آخرون • ولكن شخصيتهم كانت سرا لا يعرفه الا القديسون الأحياء أنفسهم ـ على أن أهميتهم كان لا يعلو عليها شىء فى نظر المتصوفة • وكان من المعتقد أن العالم لم يبق الا بسبب توسطهم عند الله (٢) • وبسبب تغلغل الأفكار الصوفية فى كل دوائر المستمسكين الجامدين

---

(١) دوسون ، جـ ٤ ، ص ٦٧١ ـ ٢ •

(٢) Encyc. of Islam, art. Tasawwuf.

بالعقيدة ـ باستثناء دائرة صغيرة جدا ـ انتشر هذا المفهوم الخاص بحكم العالم بشخصيات خفية انتشارا واسع النطاق ، مثله فى ذلك مثل الاعتقاد بالقوة الخارقة التى يتمتع بها الأولياء وقبورهم • ولكن قبل أن نعرض لأثر هذه الأفكار على نظرة الرعايا المسلمين التابعين للسلاطين فى القرن الثامن عشر وطابعهم ، نرى أن نستعرض بعض طرق الدراويش التى انبثقت هذه الأفكار عنها •

فبين وقت وآخر ازدهر عـــدد كبير جـدا من الطـرق فى الامبراطورية • ولكن لا حاجة بنا الى أن نعرض لها أو نعددها جميعا فى هذا المقام ، وذلك لأن الطرق الخمس أو الست التى فاقت غيرها من حيث الأهمية ، وهى الطرق التى لابد أن نكرس لهـا اهتماما خاصا ، كانت تمثل ما تبقى من الطرق • يضـاف الى هـذا أن ما يستثير اهتمامنا بشكل خاص هو الأثر العام لانتشار المبادئ الصوفية بين الناس لا مواطن الغرابة فى الطرق المختلفة • فالتمييز الذى عقدناه فيما سبق بين الهيئات الريفية والحضرية يقل أهمية فى هذا المقام عن التمييز بين الطرق النظامية وغير النظامية التى كانت الأخيرة منها ـ كما يفهم من الاصطلاح ـ ليست فقط مفككة التنظيم بل أيضا شديدة التفكك من حيث المبدأ والتطبيق • على أنه لما كان هؤلاء الدراويش قد ظلوا يحظون لدى جماهير المدن والقرى باحترام مماثل ، وربما أكثر مما كان يتمتع به مشايخ الطرق « النظامية » ، فاننـا سنبدأ تلخيصنا لأصـــول التصـــوف الشـعبى بطريقة « غير نظامية » هى الطريقة القلندرية التى عرفت لدى أجيال من قراء ألف ليلة وليلة من الانجليز باسم Calenders (١) •

ويبدو أن القلندرية الذين انتشروا أثناء القرن الثانى عشر

---

(١) انظر : Encyc. of Islam. art. Kalandar ; D'Ohsson, IV, 684-5; Abdul Baki, 25-26.

فى شتى أرجاء المشرق الاسلامى تقريبا كانوا يستلهمون تعاليم الملامتية • ولكنهم كانوا يختلفون اختلافا كبيرا جدا فى سلوكهم عن ممارسى الهيام السرى • وقد انفردوا باثارتهم للاستنكار بسبب هيامهم على وجوههم حالقين شعورهم ولحاهم وحواجبهم وتجاهلهم العلنى لكل تعاليم الشريعة • كانوا يسافرون على الأقدام من مكان الى مكان حاملين الأعلام والطبول وكانوا يجتذبون الجماهير بمظهرهم وسلوكهم الغريبين وكانوا يكسبون قوتهم بالشحاذة ولم تكن لديهم أية اهتمامات دنيوية ولم يفكروا فى الغد بأى شكل • ولما كان معظمهم من رقيقى الحال فانهم لم يتلقوا أى قسط من التعليم ولم يستطيعوا الوصول الى أعماق الفلسفة الصوفية • وظلت عقيدتهم تتضمن عبادة عدد من الآلهة ، ويقال انهم كانوا يؤمنون بالتكرار الأبدى للأحداث وانتقال الأرواح ، ولم يكونوا يعتبرون أى عمل خارجا على القانون ــ لهذا كانوا يتبعون الجناح الباطنى المتطرف من التصوف •

يضاف الى ذلك أن القلندرية يسترعون انتباهنا ــ فالدراويش من أمثالهم هم الذين كانوا موضع قبول لدى القبائل التركية فى الأناضول وغيرها وهم الذين لعبوا دور كهانهم فأصبح يطلق عليهم اسم بابا برغم أنه كانت تطلق عليهم أسماء أخرى ونجد أيضا أن دراويش « نشيطين » من هذا النوع ــ الذى كان يختلف اختلافا كبيرا عن نوع المتأملين المنعزلين فى المدن ــ هم الذين لعبوا دورا أساسيا فى دفع رجال القبائل الأتراك ومهاجرين آخرين الى أراضى الحدود لكى يشتركوا فى الجهاد الذى قامت عليه الامبراطورية • ومن هنا ما سبق أن لاحظناه فى بداية هذه المقدمة من حيث أن المغامرة العثمانية قد بدأت فى معظمها على أيدى رجال يتبعون شكلا لا يتمشى الى حد كبير مع العقيدة السليمة ومن ثم ذلك التفاوت فى الفكر الدينى ــ الذى عرضنا له ــ بين السلاطين وكثير من رعاياهم المسلمين

حين ازداد تأثر السلاطين بالمؤثرات السنية بحكم أنهم أخذوا منذ القرن الرابع عشر يعيشون بالتدريج حياة القصور المتحضرة ·

وفي خلال السنوات المائة التى شهدت توطيد أقدام العثمانيين في شبه جزير البلقان (١) لم يلق نفوذ الأخيان في المدن ونفوذ الدراويش بين رجال القبائل في آسيا الصغرى سوى معارضة طفيفة · اذ يبدو أن الأسرة المنافسة الرئيسية في الأناضول ، أى أمراء أسرة القرمان — أو غلو قد وطدوا أقدامهم بمساعدة رجال القبائل المارقين وأنهم كانوا يختلفون عن السلاطين العثمانيين في بقائهم مخلصين لعقيدتهم الأصلية (٢) . وكل هذا مما يفسر الصعوبة التى واجهها السلاطين العثمانيون في فرض نفوذهم على آسيا الصغرى وفي محاولاتهم الخاصة باقامة هيئات سنية مركزية أحلت سلطة القضاة المعينين رسميا محل سلطة رؤساء الأخيان (جمع آخي) ·

ومما له دلالته كذلك أن فترة الشغور التى أعقبت هزيمة بايزيد وأسره على يد تيمور قد تلتها ثورة أخرى في أوربا يقودها أيضا بابا من فئة القلدرية ساند مساعي أحد أبناء هذا السلطان للاستيلاء على العرش · ومن الطبيعي أن يؤدى قمع هذه الحركة على يد ابن آخر تولى العرش باسم محمد الأول الى تعميق تحامل السلاطين على المروق من عقيدة السنة ، وتوسيع شقة الخلاف بينهم وبين رعاياهم الذين كانوا يقرون زعامة البابات في المجال الديني · وفي النهاية قيض للسلاطين أن يحرزوا نصرا نهائيا — من الناحية

---

(١) عن أوجه نشاط الدراويش فيما يتعلق « باستعمار » الولايات الأوروبية انظر :

Barkan. Istila Devrinin Kolonizator Turk Dervisleri, in Vakiflar Dergisi, ii (Ankara, 1942).

(٢)

Kopruluzade, Les Origines du Bektachisme. 20 ; Anadoluda Islamiyet, 63-64; Wittek, Rise of the Ottoman Empire, 37.

الظاهرية على أى حال ـ وذلك فى بداية القرن السادس عشر وذلك حين أعلن سليم الأول مروق الشيعة فى أملاكه وقتل كل من استطاع العثور عليه بعد أن اشترك عدد كبير منهم فى ثورة عارمة نشبت فى الأناضول كان هدفها اقرار سلطة الشاه اسماعيل ـ مؤسس الامبراطورية الصفوية الشيعية فى فارس ـ فى هذه المنطقة • وكان أتباع الشاه اسماعيل هؤلاء يعرفون باسم قزلبش (ذوى الرؤوس الحمراء) ، وذلك بسبب القلنسوات الحمراء الخاصة بالدراويش التى وضعوها فوق رؤوسهم دليلا على ولائهم للأئمة (١) ، ولأن اصطلاح قزلبش فى ذلك الوقت أطلق فى تركيا على كل أتباع المذاهب المارقة فى الريف • ولكن منذ أن أعلن سليم مروق مثل هذه الهرطقة اضمحلت أهميته السياسية وان يكن قد نشب تمرد آخر بعد قرابة قرن ، ويبدو أنه يسجل انتشارا مؤقتا لدعوته (٢) •

على أنه حدث فى تلك الأثناء أن احدى طرق الدراويش اعتنقت عقيدة لا تختلف فى الواقع عن عقائد القلندرية (٣) وتغلغلت فى نظام الحكم وجمعت بين المروق ، وان يكن ذلك قد تم بشكل مخالف ، وبين قسط من السلطة السياسية فشلت هذه الثورات فى انتزاعه •

ونحن لا نستطيع أن نحدد بالضبط الوقت الذى شكل فيه البكناشية طريقة لها تكاياها وتسلسلها ، وكل بقية الأجهزة التى

---

(١) راجع : E. G. Browne, Literary History of persia IV, 48. عن الأنواع المختلفة من الطواقى (واسمها كولاه فى الفارسية) التى كانت تلبسها مختلف الطرق انظر Brown, The Darvishes, 59-62. وعن مغزاها انظر نفس المرجع ، ص ٩٩ ـ ١٠٤ •

(٢) Kopruluzade, Anadoluda Islamiyet, 81-85. راجع أيضا نفس المرجع ص ٨٩ وما بعدها حيث يوجد وصف بارع لنمو الحركات السرية الشيعية فى فارس قبل قيام المملكة الصفوية ونتائج غزوة تيمور •

(٣) Kopruluzade, Les Origines du Bektachisme, 13, 22; J. K. Birge, The Bektashi order of Dervishes (London, 1937, 32.

تتصل بدراويش « المدن » ويحتمل أن ذلك حدث حوالى بداية القرن الخامس عشر (١) • ولا يهمنا هذا التاريخ كثيرا • اذ أن البكتاشية كانوا قد باشروا نشاطهم فترة طويلة فى الأراضى التى كان السلاطين قد ضموها وشيكا واتخذوا اسم أبدالانى روم (٢) • وكان هذا الاسم مجرد أحد الأسماء التى كانت تميز بعض البابات المهيجين الذين سبق أن أشرنا اليهم • وكان الأبدالان يتصلون اتصالا وثيقا بمشروع الفتح العسكرى بأسره طالما يقوم به رجال القبائل الذين كانوا يباشرون نشاطهم بين ظهرانيهم ، بل لقد استطاعوا بعد اضطلاع جيش السلطان الثابت بالقسط الأكبر من هذا المشروع ، وكان يقوم على العبيد ، أن يقيموا أيضا مع هذا الجيش علاقة دائمة لا تقل عن ذلك فى توطدها •

ويبدو أن الأبدالان أصبحوا يعرفون بوجه عام باسم البكتاشية ونحن لا نستطيع أن نحدد بالضبط الوقت الذى شكل فيه البكتاشية طريقة لها تكاياهـا وتسلسلها وكل بقية الأجهزة التى تتصـل بدراويش « المدن » • ويحتمل أن ذلك حدث حوالى بداية القرن وذلك حين شكلوا طريقة مستقرة ــ فقد كانوا يضطرون ، باتفاق بينهم ، الى اتخاذ أحد كبـار فقهاء العصر الغابر راعيا لهم ، بل ويفترضون أنه مؤسس طريقتهم • ومن الطبيعى جدا أن يختاروا لهذا الغرض حاجى بكتاش ، بعد أن ثبت أنه كان من مريدى بابا اسحق الذى خلفه فى زعامة الحركة الصوفية الباطنية التى أسستها

(١) Kopruluzade. 21 ; Birge, 51 seqq. ومما يجدر ذكره أن أعضاء الفرق البكتاشية ، بعد هذا التعديل الجزئى ، أنفقوا كثيرا من وقتهم وهم يتجولون للشحاذة ، وهى عادة كانت محرمة على الطرق الأخرى (دوسون ج ٤ ، ص ٦٦٤) باستثناء الرفاعية بطبيعة الحال وبعض الطرق الأجنبية • وكان هؤلاء الدراويش المتجولون يعرفون باسم السياح •

(٢) مجانين روما (أى مجانين الامبراطورية الرومانية الشرقية) كوبريليزاده ، ص ٢٤ •

قبائل الأناضول فى أواسط القرن الثالث عشر بعد قمع أول ثورة كبرى قاموا بها ضد السلاجقة (١) • وعلى أى حال فقد اختاروه وبنوا تكيتهم الأم بجوار قبره فى قرشهر الواقعة بين أنقره وقيصرية فى أواسط الأناضول •

والآن ننتقل الى قدر من الوصف « الكلاسيكى » لانشاء الانكشارية يكفى لالقاء أضواء على هذا الحاجى بكتاش • ويقال انه بارك الفرقة الجديدة بوضع كمه على رأس أحد أعضائها ، ولهذا اعتبر الولى الراعى للانكشارية بعد ذلك • و لاشك أن هذا الوصف أسطورى ـ فحاجى بكتاش ـ بغض النظر عن أى اعتبار آخر ـ كان قد توفى قبل التفكير فى انشاء الانكشارية بوقت طويل • ولكن من الواضح أن هذا يتضمن الحقيقة الخاصة بأن الأبدالان فرضوا حمايتهم الروحية على المدفعية وكانوا قد فرضوا مثل هذه الحماية فى تلك الأثناء على رجال القبائل المحاربين • ذلك أن الانكشارية اعتبروا حاجى بكتاش فى الواقع راعيا لهم بحيث أطلق عليهم اسم آخر هو « الجند البكتاشية » • وقد اخترعت قصة الكم لتبرير غطاء الرأس الغريب الذى كان يضعه الانكشارية ، وكانت ترتبط به أنبوبة من القماش الملفوف توضع على الرأس وتنحدر تحت الوسط من ناحية الخلف ، فلباس الرأس هذا كان فى الواقع دليلا صارخا على انتشار الباطنية فى الوقت الذى أنشئت فيه الفرقة ـ ومما يكاد يكون أمرا مؤكدا أنه أخذ عن الأخيان •

وكان مرجع تكوين الانكشارية فى حد ذاته ـ لدرجة ما ـ هو نمو « حضارة » السلاطين • فقد سبق أن لاحظنا أن فكرة انشاء فرقة العبيد قد اجتذبتهم • ومن أسباب ذلك أنهم كانوا أقرب الى الثقة بولائها لهم وحدهم،وحدث تجنيد الفرقة لأول مرة بشكل محدد حين أخذ المشروع العثمانى يتخذ طابعا أسريا بشكل نهائى ، وكان

---

(١) كوبريليزاده ، Birge, 33 seqq.

حتى ذلك الوقت قد اتخذ طابعا شعبيا · ولهذا خطا البكتاشية ـ الأبدلان خطوة حاسمة ، سواء بشكل شعورى أو لا شعورى ، حين نقلوا تأثيرهم الى هذه الدائرة الجديدة · ويحتمل أنها كانت آخر فرصة تقريبا يستطيعون فيها أن يحققوا ذلك ، قبل أن يتحول السلاطين الى المذهب السنى بشكل نهائى · ويبدو فى الواقع أن من المحتمل أن انشاء طريقتهم كان بمثابة عملية تغطية سياسية ، اذ أن الطرق « المستقرة » كانت تحظى بالاحترام بمقارنتها بالبابات « النشطين » ·

وقد تجاوب رجال القبائل الأتراك مع التصوف المنحرف الذى ظهر فى القرون الأولى ، وذلك حين هاجروا الى الأراضى الاسلامية التى اشتهرت بالتسامح والحرية · ولكن فرقة الانكشارية كانت تحتوى على رجال مشابهين جرى ضمهم سواء باختيارهم أم قسرا ، ولهذا وضع نفس المبدأ الذى أخذ البكتاشية يبشرون به حينئذ فى شكل يناسبهم بطريقة تدعو الى الاعجاب · وطالما ظل الانكشارية يكونون فرقة عبيد ، فقد كانوا جميعا من أصل مسيحى الى أقصى درجة · ولهذا فليس عجبا أن نجد لدى البكتاشية ملامح متعددة ذات طابع مسيحى ، كالاعتقاد فى ثالوث يقوم على الله ومحمد وعلى ـ واعتقادهم فى قيمة الاعتراف والعفو (١) · ومن مبادىء الحركة

---

(١) وكانت عقائد وطقوس مماثلة من صفات فرقة الحروفية المهرطقة ـ انظر Encyc. of Islam, art. Hurufis (Huart) ويعزو ماسنيون هذه الطقوس الى بقايا التصوف الحلاجي أو انعاشه فى دوائر الحروفة والبكتاشية ـ وهو ما نكتشفه من أشعار الشاعر البكتاشى الشهير يونس أمرة (المتوفى حوالى عام ١٣٤٠) والشاعر الحروفى عماد نسيمى (المتوفى فى عام ١٤١٧) والمكانة البارزة التى كان يحتلها الندم عند المنطقة المسماة مشنقة الحلاج (دار منصـــور) فى الاحتفال البكتاشى ،

La Légende de Hallacé Mansur en pays turcs, in Revue des Etudes Islamiques, 1941-6, pp. 67 sqq; and cf. Birge, 170.

الصوفية ـ الباطنية المتطرفة أن كل الديانات صحيحة في الوقت نفسه ، بحيث أن الأخذ بمثل هذه المعتقدات والأعمال لم يكن يتضمن أي مساس بطابعها الأصلي . وفي الحق أن بعض الملامح شبه المسيحية التي بدت لدى البكتاشية كانت أمرا عاديا بالنسبة الى فروع الحركة الأخرى • وفي القرون المتأخرة من الحكم العثماني لما كان قبل ذلك يشكل العالم المسيحي الأرثوذكسي ، أدى انتشار مثل هذا المروق بشكل أو آخر بين كل الطبقات السفلى من السكان المسلمين ـ خارج الدائرة الفعلية للبكتاشية ـ الى تطور غريب • فتقديس الأولياء والاعتقاد في الأثر السحري للأماكن والأشياء التي ترتبط بها كان من أبرز ملامح الأشكال الشعبية جدا للمسيحية الأرثوذكسية وهذا النوع المارق من الاسلام • ولهذا أصبح عدد كبير من الأولياء والمزارات في شتى ربوع البلقان وآسيا الصغرى موضوعا للقداسة ويقصدها أتباع الديانتين على حد سواء ولكن لم يتم اندماجهم التام ، بسبب بقاء الخلافات اللغوية باعتبارها رمزا للتفرقة الدينية ولوجود طبقة عليا في كلا المعسكرين كانت تدافع عن الادعاءات الخاصة بأن ديانتها تقتصر على أتباعها وحدهم • وربما كان يفوق ذلك أهمية بهذا الصدد ما حدث في أواسط القرن الخامس عشر حين جرى تنظيم كل الذميين من الناحية السياسية في هيئات دينية منفصلة ـ وهو ما سنعرض له في الفصل القادم • فقد خلق كل ذلك وضعا جعل من مصلحة كل من الحكومة العثمانية والطوائف الدينية ذاتها أن تحتاط ضد دخول الذميين في العقيدة الاسلامية على مدى واســـع • يضاف الى هذا ما بدا منذ أوائل القرن السادس عشر ، حين ضمت سوريا والحجاز ومصر الى الامبراطورية من تدفق الفقهاء الأحناف من هذه البلاد الى استانبول ـ فجعلوا السلاطين وحكومتهم أكثر تشددا في أتباع المذهب السني ـ ولهذا استحال نهائيا ما تبقى حتى ذلك الوقت من أمل في قيام اندماج بين المسيحيين والمسلمين • وترتب

على ذلك الى حد كبير ما سنلاحظه من تفاقم العداء بين الطرفين ٠

ويحتمل أن ازدياد ارتباط السلاطين بالمذهب السنى قد جعل البكتاشية ، فى الأوقات المتأخرة على أى حال ، يذهبون الى أنهم ككل الطرق الأخرى فى الامبراطورية العثمانية ، كانوا سنيين ويبدون احتراما للخليفة الأول أبى بكر ـ فقد تميز الغلو بمحو ذكراه وذكرى الخليفتين التاليين عمر وعثمان ٠ ولا نعرف ما يكفى من هذا التاريخ المتقدم لكى يجعلنا نعتقد أنهم فعلوا ذلك باستمرار ٠ ومن ناحية أخرى نجد أن البكتاشية ـ وكانوا يحتفظون بأسرارهم الى درجة تفوق ما درجت عليه معظم طرق الدراويش (١) ـ يعتنقون اعتقادا استبقى كثيرا من الملامح الشيعية (٢) ، وسواء أكان تظاهرهم صادقا أو لأن ارتباطهم بالانكشارية حماهم من الاضطهاد على أيدى السلطات السنية ، فانهم أفلتوا من الحظر العام على اخوتهم فى العقيدة واستداموا قبضتهم على هذا الجزء الحيوى من نظام الحكم ٠ وكان الارتباط قويا ٠ وكان شيخ الطريقة يشغل رتبة الجوربجى الفخرية فى احدى فصائل الانكشارية ، ووكل الى ثمانية دراويش من البكتاشية ، الذين كانوا يقيمون فى ثكنات الانكشارية فى استانبول ، بالصلوات اليومية والدعاء من أجل رخاء اعلاء الامبراطورية ونصرة قواتها العسكرية ، وبأن يقوموا فى مناسبات الاحتفالات بتقدم الأغا سيرا على الأقدام ، مرتدين ملابس من القماش الأخضر وأيديهم متشابكة ، مطلقين حناجرهم برد يتخذ شكل كورس ٠ ولكن يبدو أن الاعتراف الرسمى بالارتباط بين البكتاشية

---

(١) وكانت طريقتهم هى الوحيدة التى تمارس طقوسها سرا ـ انظر دوسون ج ٤ ، ص ٦٥٧ ٠

(٢) ومما تجدر ملاحظته ، على سبيل المثال أنهم حافظوا على احتفال عاشوراء الذى اقتصر على الشيعة ـ دوسون ج ٤ ، ص ٦٥٥ ، بيرج ، ص ١٦٩ ٠

والانكشارية لم يصدر حتى قرب نهاية القرن السادس عشر • واذا كان ذلك كذلك فمن المفهوم أنه أصبح أوثق منه فى أى وقت تلا ذلك • ومهما كان الأمر فلما كانت الطبقات الدنيا من المسلمين ، الذين أصبح الانكشارية بالتدريج يجندون منهم وحدهم أثناء القرن السابع عشر ، تميل ميلا تقليديا الى الغلو ، وان يكن ذلك بشكل أقل علانية ، فان البكتاشية لا يمكن أبدا أن يكونوا قد قووا نفوذهم الا نتيجة لهذه العملية • ومن الملحوظ ، على أى حال ، أنه برغم أن الحكومة بعد القضاء على الانكشارية (اذا نظرنا الى المستقبل من زاوية دراستنا) قد اتخذت اجراءات متشددة أيضا ضد البكتاشية — وكان الفقهاء السنيون يوجهون اليهم نقدا لاذعا باعتبارهم هراطقة أنذال — فحتى ذلك الوقت لم يتفوه أحد بكلمة ضدهم أو يتخذ أى اجراء ضدهم • بل على العكس جرى تثبيت رئيسهم فى وظيفته التى كانت حتى القرن الثامن عشر قد أصبحت وراثية بعض الوقت ، شأنه فى ذلك شأن رئيس أى طريقة أخرى — وتم ذلك على يد شيخ الاسلام ذاته •

ونكتفى بهذا القدر فيما يتعلق بالبكتاشية • وبامكاننا الآن أن نتناول الطريقة الأخرى التى احتلت مكانة خاصة لدى الأتراك العثمانيين — ونعنى المولوية • وربما كانت المولوية هى أكثر الطرق شهرة لدى الأوروبيين ، لأنها طريقة الدراويش الراقصين • ورغم أن هذه التسمية جذابة الا أنها مضللة • ولا شك أن السبب فى خلعها عليهم هو الحركات المدهشة الغريبة التى كان يؤديها الأعضاء باعتبارها جزءا من عملية ترويض ارادتهم • وكانت تقوم على استدارة كل متضلع على قدمه الأيمن حتى يفسح الغثيان الطريق أمام الهيام • ولهذا • فان هذا الذى يسمى رقصا لا يزيد عن كونه الوسيلة الخاصة التى اتخذتها الطريقة للوصول الى هذه الحالة بالشكل الذى قام به

آخرون بتكرار بعض الكلمات ــ بل بتعاطي المخدرات (١) • وليس معنى هذا أن جهود أى طريقة من الطرق للوصول الى الكشف اللدنى كانت قاصرة على هذه الوسائل الآلية • فاللجوء اليها كانت تصحبه باستمرار عبادات تعتبر دينية بوجه عام كالصلاة والصوم (٢) • ولكن لما كانت الرياضات السابقة أكثرها غرابة ، فانها اجتذبت قسطا أوفر من الانتباه • على أنها باستمرار كانت موضع شك المتشددين في سنيتهم ، وبخاصة حين كان التصوف ذاته أمرا غير مقبول من الناحية الشرعية • وكانت رياضات الاستدارة عند المولوية عيبا آخر فى نظر أمثال هؤلاء المراقبين السنيين ، باعتبارها مصحوبة بعزف الموسيقى وترتيل الشعر ، وهى أوجه نشاط كانت لا تقل سفها وخطأ الا عن الرقص ذاته (٣) •

ومع ذلك فان المولوية فى ظل النظام العثمانى ــ فى مراحله الأخيرة على أى حال ــ كانوا يحظون برضى معدوم النظير من جانب السلطات يفوق ما كان يتمتع به البكتاشية ومن على شاكلتهم • ذلك أن الطريقة المولوية كانت حضرية الأصل ، ولم يكن أعضاؤها من الدراويش النشطين ، وكانت مبادؤها على قدر من الثقافة جعل رجال القبائل لا يتجاوبون معها ، وبالتالى لم تستلهمها أية حركات ثورية • وفى الحق انها بذلت باستمرار كل ما فى وسعها للوقوف الى جانب الحكومة •

وكان جلال الدين الرومى ــ الشاعر والمتصوف العظيم الذى ظهر فى القرن الثالث عشر ، ومن لقبه « مولانا » اتخذت الطريقة

---

(١) Cf. Encyc. of Islam, art. Tarika.

(٢) انظر عن صوم الدروايش : دوسون ج ٤ ، ص ٦٥٨ ــ ٦٠ •

(٣) راجع دوسون ج ٤ ، ص ٦٧٠ والمادة الغزيرة جدا فى اللغتين العربية والتركية عن صحة أو عدم صحة الموسيقى فى الرياضات الدينية •

اسمها ـ قد استقر فى بلاط السلاجقة فى قونية حيث اجتذب أتباعا كثيرين من بين المتصوفة والأخيان وموظفى الحكومة بل من الفقهاء الدينيين ورجال القانون • ومرجع محافظته على علاقات حسنة مع هؤلاء الآخرين أنه قبل كل شيء قد اتبع النظام الميتافزيقى الذى استنه ابن العربى ، وهو النظام الذى سبق أن لاحظنا أنه كان لديهم من الأسباب ما يدعوهم الى استثنائه • ولكن مما لا شك فيه أن شدة تقريب الأمير السلجوقى الحاكم له ربما يكون قد وجد بعض القبول لديهم • كما أن الاختلاف الرئيسى فى الآراء الدينية فى تلك الفترة كان بين نوعين من التصوف : الريفى ، والحضرى ، أكثر منه بين التصوف وبين الفقة الدينى السنى بمعنى الكلمة • وعلى أى حال كان من نتيجة هذا الاصطدام أن أوجه النشاط التى عارضها جلال الرومى أكثر من غيرها هى أوجه نشاط البابات الذين كان حاجى بكتاش واحدا منهم بالشكل الذى كانت له آثاره الخطيرة فى المستقبل • وحينئذ لم ينشىء « مولانا » طريقة ، مثله فى ذلك مثل حاجى بكتاش ، اذ أن خلفاءه هم الذين أسسوا الطريقة المولوية ، ولكن احتفظ رجال الطريقة خلال القرون التالية بعدائهم للأبدالان ثم بعد ذلك للبكتاشية • وقد ألقوا بثقلهم الى جانب الحكومة وبذلوا كل ما فى وسعهم لتأكيد سنينهم ، مخفين عن مبدئهم تلك المظاهر التى توقعوا أن تثير سخط الفقهاء السنيين (١) • وربما لهذا السبب احتلت طريقتهم أعظم مكانة لها فى القرون المتأخرة من تاريخ الدولة العثمانية ، لأن أسرة قرمان أوغلو فى قونية ـ التى ظلت قاعدة للمولوية ـ كانت تميل الى تفضيل الدراويش « الريفيين » على « الحضريين » • وعلى أى حال فان المولوية كانوا يحظون بمكانة سامية لدى السلطات العثمانية فى أواخر القرن السادس عشر •

(١) Kopruluzade, Les Origines, 17; Anadoluda Islamiyet, 67 ff.

وفي عام ١٦٣٤ خصص مراد الرابع جزية قونية ـ كما سبق ان ذكرنا ـ للتكية الأم (١) ، ويبدو أن المولوية قد احتلوا في عهد خلفه ابراهيم وضعا قويا مكنهم من أن يتسببوا في خلع ذلك السلطان الشاذ ، أن يطلبوا لرئيسهم (الجلبي أو الملاخنكار كما كان يسمى أحيانا) حقا ، أهمل في تلك الأثناء ثم أصبح معترفا به بوجه عام في القرن التاسع عشر ، وهو أن يخلع سيفا على السلطان بعد توليته ـ وكان الاحتفال يشبه التتويج ٠

ويتضح لنا مما سبق أن كلا من البكتاشية والمولوية كانوا أكثر ارتباطا بنظام الحكم في فترة اضمحلاله ٠ وربما كان مرجع ذلك أن السلاطين لجئوا الى المولوية لموازنة نفوذ البكتاشية ـ اذ أن الانكشارية الذين وضعهم البكتاشية تحت حمايتهم قد ازداد تمردهم وعصيانهم بمرور الزمن ٠ ومما يؤسف له ما يبدو من أن هذا النفوذ المتزايد الذى حصل عليه الدراويش قد جاء متأخرا جدا بحيث لم يستطع الحد من تطور آخر ظهر في ذلك العصر : أى نمو التعصب الاسلامي وتدهور العلاقات بين المسلمين وأهل الذمة ـ فلم يكن المولوية أوسع أفقا من البكتاشية فيما يتعلق باحترام الديانات الأخرى ٠ ومن الممكن تفسير هذا التطور تفسيرا جزئيا بربطه بازدياد خوف المسلمين من أوربا المسيحية ٠ ثم ان اطراح نظام الدفشرمة ربما يكون قد أدى الى ذلك بشكل مربك بحكم أنه عمق الفواصل بين الطوائف ٠ وأخيرا فمن المحتمل أنهم حين اتفقوا مع السنية كانت قد أوجدت اتجاها أكثر تشددا بين الدراويش أنفسهم ٠ ولكن يبدو أن هذا التعصب كان أوسع انتشارا في المدن منه في الريف ٠ فقد سبق أن أوضحنا ، حين تناولنا طوائف التجار ، أنه ظهر في دائرتهم ٠ وما حل ذلك في الوقت حتى أصبح طابع البكتاشية

---

(١) كانت أوقاف المولوية أحسن أوقاف الطرق ٠ دوسون ج ٤ ، ص ٦٦٥ ـ ٦ ٠

الحضرى فى دائرة نفوذها أقرب الى طابع الطرق التى كانت حضرية الأصل • وظلت هرطقة المسلمين من أهل الريف ـ وخصوصا قبائل الرحل ، اليوروكات ـ كما هى وان لم يعودوا عرضة للتمرد والعصيان • كانوا لا يزالون قزلبش فى تقدير الناس برغم ما أطلق عليهم فى بعض الأماكن من كلمات مثل تختجى (قاطع الخشب) ـ وهى أسماء تدل على عمل قبلى •

واستمر ازدياد عدد طرق الدراويش حتى القرن الثامن عشر • ويقدر دوسون ـ الذى كتب فى آخر القرن ـ عددها بما لا يقل عن ست وثلاثين وان كانت مصادر أخرى تضاعف هذا الرقم مرتين أو حتى أربع مرات (١) • وكانت الأغلبية العظمى لهذه الطرق من بقايا الطرق القديمة التى تشكلت خلال العهد العثمانى • وترجع أهميتها بوجه خاص الى أنها تبرز مدى التوسع الضخم فى نفوذها الذى شمل كل الطبقات والمناطق • وقد أنشأ عدد كبير من المشايخ البارزين طرقهم الصغرى الخاصة بهم ، وكان نفوذ بعضها قاصرا على المجال المحلى أو اختفت بسرعة ـ ولكن بقى بعضها الآخر بل انتشر فى الولايات والمناطق المجاورة • على أننا لا نستطيع أن نمر على الطرق الكبرى مرور الكرام ـ فبرغم أنها لم تلعب دورا سياسيا شبيها بدور البكتاشية والمولوية ، الا أن أعدادها كانت أكثر بكثير • وكان انتشارها فى الأملاك العثمانية عاملا اجتماعيا ذا أهمية كبرى

---

(١) دوسون جـ ٤ ، ص ٦١٦ وما بعدها • راجع

Brown, The Dervishes, 80-84.

ويقدر أوليا افندى (ترجمة هامر جـ ١ القسم الثانى ، ص ٢٩) ما يزيد على ١٤٠ ويورد الطويل (التصوف فى مصر ٧٥) حوالى ٨٠ فى مصر فى العهد العثمانى •

من حيث اختلافها عن هاتين الطريقتين فى أنها كانت تضم كلا من الترك والعرب (١) ٠

والطريقة القادرية هى فى الواقع أقدم الطرق النظامية التى لا تزال باقية ـ وقد تأسست فى بغداد حوالى عام ١٢٠٠ م (٢) وهى أكثر الطرق انتشارا فى العالم الاسلامى ٠ ولما كانت تعتبر أكثر الطرق سنية ، فقد يكون مما له دلالته أنها لم تدخل آسيا الصغرى وأوربا الا فى خلال القرن السادس عشر ٠ ولكن سرعان ما انضم اليها عدد كبير من الأنصار فى العاصمة وغيرها (٣) ٠ وكانت الطريقة الهامة الثانية التى نشأت فى العراق ـ وهى الرفاعية ـ تمتاز بألوان التعذيب التى أوقعها أتباعها بأنفسهم ـ وكان الرفاعية يسمون بالدراويش النابحين ، الذين درجوا على أن يطعنوا أنفسهم بالخناجر ويحرقوا أنفسهم دون أن يلحق بهم الضرر ٠ وقد انتشرت فى الأناضول فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر (٤) ، ثم بعد ذلك فى البوسنة ، ولكنها حصلت على قسط أوفر من الشعبية فى الولايات العربية وبخاصة فى مصر حيث أصبحت الطريقة الفرعية : الأحمدية أو البدوية ذاتها ـ وقد تأسست فى القرن الثالث عشر (٥) ـ مصدرا لعدد من الطرق الفرعية ٠

---

(١) لم تكن للمولوية تكايا الا فى حلب ودمشق والقاهرة ومدن أخرى كانت تقيم فيها جاليات تركية (راجع المرادى ج ١ ، ص ٣٢٩ ، ج ٣ ، ص ١١٦) بل لم يكد يكون للبكتاشية موضع فى مصر (الجبرتى ج ٢ ، ص ١٤٤) باستثناء تكية القيغسروز الشهيرة الى الجنوب من القلعة ٠

(٢) Encyc. of Islam, art. Kadiriya (Margoliouth)

(٣) يقدر براون ، (ص ٤٧٤ ـ ٧) عدد تكايا هذه الطريقة فى استانبول بسبع وثلاثين ٠

(٤) Köprülüzade, Ilk Mutasawiflar, 228 seqq.

ـ ويعدد براون (ص ٤٧٧ ـ ٨) ثمانى عشرة تكية فى استانبول ٠

(٥) انظر ما سبق ٠

وكان السعدى (٢) شيخ طريقة رفاعية فرعية أخرى ، وهو الذى أجرى الاحتفال الشهير بالدوسة فى القاهرة (٣) وفيه كان يركب حصانه ويدوس على أجساد دراويشه وغيرهم المتمددين منكفئين على وجوههم ، ومن الواضح أن هذه الطريقة الفرعية غطت على شعبية تجمعات الطرق الرفاعيـــة الأخرى فى العاصمة (٤) • وكان ثمة منافس قوى لهذه الطرق فى مصر ، وهو الطريقة المغربية السنية : الشاذلية ، ومنها تفرعت اثنتا عشرة طريقة فرعية أو نحو ذلك ـ ومع ذلك فان عدد أتباعها فى الولايات العربية (باستثناء شبه الجزيرة العربيـــة) وفى تركيـــا كان قليلا نسبيا (٥) • وكانت الطريقتان الأخريان اللتان تسترعيان انتباهنا قد نشأتا فى أواسط آسيا ولم تظهرا فى الامبراطورية العثمانية حتى أواخر القرن الخامس عشر أو أوائل القرن السادس عشر • ويبدو أن كلا منهما كانت لها ميول سنية قوية فى مواجهة الاتجاهات التحررية المنشقة التى بدت فى الطرق التركيـــة القديمـــة ، وبالتالى كانت موضـــعا

(١) ويبدو أنه لم يكن لأى من هذه الطرق اتباع خارج مصر ، ولكن براون (ص ٤٥٩) يعدد تكيتين بدويتين فى استانبول •

(٢) أسسها الشيخ السورى سعد الدين الجباوى فى القرن الرابع عشر •

(٣) دوسة ـ عن وصف الاحتفال انظر :
Lane, Modern Egyptians, ch. x.

(٤) راجع دوسون ج ٤ ، ص ٦٧٦ • ويعدد براون ص ٤٧٨ ـ ٨٠ سبعا وعشرين تكية سعدية فى استانبول •

(٥) Encyc. of Islam, art. Shadhiliya (Margoliouth).
ولا يعدد براون (ص ٤٨٠) الا تكيتين شاذليتين فى استانبول • ومن أقوى الطرق الفرعية فى مصر الطريقة الوفائية ، وهى طريقة فرعية تطرق اليها الاصلاح ، وقد أسستها فى القرن الرابع عشر أسرة من الأشراف • كما أبرزت الطريقة الشاذلية أشهر شخصيات المتصوفة العرب فى الأوقات المتأخرة وهو عبد الوهاب الشعرانى (المتوفى فى عام ١٥٦٥) انظر : Arberry, Sufism, 123-8.

لمحاباة خاصة من جانب العلماء · ولهذا فليس من الغريب أن نراهما وقد أصابتنا نجاحا سريعا فى تركيا بحيث استطاع أوليا أفندى أن يكتب فى القرن السابع عشر : « ان العليمين ببواطن الأمور يعلمون أن كبار المشايخ يمكن أن يوزعوا بين طريقتين رئيسيتين : الطريقة الخلوتية والطريقة النقشبندية » (١) ·

وقد نشأت الطريقة النقشبندية فى بلاد ما وراء النهر (٢) . ويبدو أن مشايخ من بخارى هم الذين أدخلوها الى تركيا · وقد وطدت أقدامها أيضـــا فى الهند ، حيث اكتسبت تعضيد أباطرة المغول ، وبذلك أصبحت حلقة الاتصـــال مع الامبراطورية السنية الكبرى الأخرى ، ورغم أن العلاقات بين الشعبتين الهندية والعمثانية لا تزال غير واضحة فان المحافل السورية للطريقة قد تأسست فى الواقع على يد داعية (٣) من الهند · وفى القرن الثامن عشر أحرزت الطريقة صيتا كبيرا فى آسيا العربية بسبب رحلات وكتابات الشيخ الدمشقى عبد الغنى النابلسى ، الذى يعـــد من أعظم المتصـــوفة المتأخرين (٤) · وقد فرض على أتباع الطريقة النقشندية ألا يهملوا أى ملحوظات وردت فى الشريعة ، وكانت أهم رياضاتهم (التى لمس فيها بعض المراقبين مؤثرات هندية) الاستغراق فى التأمل الصامت .

---

(١) Tr. Hammer, Vol. i, part ii, p. 29.

(٢) ومن الغريب أن تكون لها فى هذه المنطقة علاقة مبكرة بالطريقة البكتاشية التى تختلف عنها اختلافا كبيرا فى شخص أحمد يسوى ·
Faut, Ilk Mutasavviflar, 123.

(٣) مراد البخارى (المتوفى فى عام ١٧٢٠) وهو والد جد المؤرخ المرادى (الذى أشرنا اليه كثيرا فى هذه الصفحات) انظر :
Encyc. of Ilsam. Supplement, art. Muradi.

(٤) المتوفى فى عام ١٧٣١ ، المرادى جـ ٣ ، ص ٣٠ وما بعدها ·
Brockelmann, yes. d. Arab. Litt., ii. 345-8; Encyc .of Islam, s.v.

« وايقاف النفس » . وطبقا لما يذكره دوسون تأثرت النقشبندية كثيرا فى أيامه برجال علمانيين من جميع الطبقات ألزموا أنفسهم بصلوات خاصة كل يوم وصلاة جماعية مرة فى الأسبوع ، وكان من رأيه أنها اختلفت عن كل الطرق الأخرى فى ظهورها بمظهر الجماعة الدينية الخالصة التى لايتميز أعضاؤها بأى ملابس خاصة (١) .

وفى القرن الثامن عشر أصبح النقشبندية متحالفين بعض الشىء مع الطريقة الأخرى التى أشار اليها أوليا أفندى ـ أى الخلوتية الذين أطلق عليهم ذلك الاسم بسبب مادرجوا عليه من الاعتكاف لفترات تصل الى أربعين يوما ، يصومون أثناءها من الفجر الى الغروب فى خلوة نائية (٢) . وكانت ارتباطات الطريقة فى البداية غير مناسبة على نحو غريب مع وجهتى النظر السنية والعثمانية ، لأنها ظهرت بمظهر طريقة متفرعة عن الطريقة السهروردية والنورانية (٣) ، وانتشرت أولا فى شيروان وبين تركمان الخروف الأسود ، فى أذربيجان ، وكانت على علاقة وثيقة بالطريقة الفرعية الأخت : الصفوية المنشقة .

---

(١) دوسون جـ ٤ ، ص ٦٢٧ ـ ٩ راجع :

Kopruluzade Mehemet Faut,
Anadoluda Islamiyet, 127; Ilk Mutasavviflar, 66, 68 note ti 124-5, 187;

المرادى جـ ١ ، ص ١٠٧ ، ١٧٢ وغيرهما . يعدد براون (٤٧٠ ـ ٣) ٥٢ تكية نقشبندية فى استانبول .

(٢) خلوه من خلا بمعنى كان وحيدا . وقد أطلق اللقب على المؤسسين الأصليين للطريقة . ويجب التمييز بين الطريقتين الخلوتية والجلوتية ـ والأخيرة من أصل سهروردى أيضا ولكنها من الفرع الصفوى عبر البيرمية ، انظر ما يلى .

(٣) ورغم أن السهروردية كانوا يشكلون طريقة قوية فى العراق والهند ، فقد كانت تمثلهم فى استانبول والأناضول الى حد كبير طريقة فرعية هى الطريقة الزينية التى أسسها فى حلب زين الدين حوافى المتوفى فى عام ١٤٣٥) .

وبعد سقوط الآستانة اكتسبت أنصارا كثيرين من السكان ورجال القوات العسكرية العثمانية وتأسست طرق فرعية فى أجزاء متعددة من الأناضول وسوريا ، وكرس اثنان من كبار مشايخهـا نفسيهما لرعاية الناحية الروحية فى الأوجاقات الموجودة فى مصر بعد الفتح (١) • ولكن نشاط الخلونية وسنيتهم المشكوك فيها فى البداية جعلاهم موضع شك من جانب السلطات وأدخلاهم فى جدل مع العلماء ، وان يبدو أنهم اتجهوا بالتدريج صوب أشكال الصوفية السنية • وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الخلوتية أنشط الطرق وأكثرها صلابة ، اذ كانت تقوم عليها سلسلة من المشايخ والدارسين البارزين من أمثال نيازى المصرى الذى أدت محاولاته الجريئة لايقاف الفساد فى البلاط الى تكرار نفيه . ومصطفى البكرى وهو من مشايخ دمشق (وقد توفى فى عام ١٧٤٩) الذى أدت رحلاته وجهوده التبشيرية الى شدة انتشار الطريقة فى سوريا ومصر ، وان يكن هذا قد تم بصفة مؤقتة (٢) • وقد ألهم عددا من أبرز المشـايخ المصريين وأكثرهم نفوذا فأسسوا بوحى منه طرقا خلوتية فرعية (٣) ، وأصبح شيخ الطريقة فى أوائل القرن التاسع عشر زعيما بالوراثة للطرق الصوفية فى مصر •

---

(١) س• محمد دمرداش (توفى فى عام ١٥٢٤) و س• ابراهيم كلشـنى (المتوفى فى عام ١٥٢٧) اللذان أسسا طريقتين فرعيتين هامين •

(٢) المرادى ، ج ٤ ، ص ١٩٠ وما بعدها وصفحات أخرى ،
Depont et Cappolani, Les Confréries, 369-82; Brockelmann, ii; 348-51.
وهناك تاريخ باللغة العربية لأسرة البكرى تحت عنوان بيت الصديق ألفه محمد توفيق البكرى (القاهرة ، ١٩٠٥) •

(٣) وأهم هذه الطرق هى التى أسسها الشيخ محمد الحفنى شيخ الأزهر فيما بين عامى ١٧٥٧ ـ ٦٧ (الجبرتى ، ج ١ ، ص ٢٨٩ ـ ٣٠٤) ـ وقد أصبح أحـد طلبته الجزائريين ، وهو محمد بن عبد الرحمن (المتوفى فى عام ١٧٩٤) داعيـة نشطا للطريقة الخلوتية فى الجزائر ، حيث أسس الطريقة الفرعية : الرحمانية :
Depont et Cappolani, 382 sqq.; L. Rinn, Marabouts et Khouan. 452-80.

ولو نظرنا الى عدد المحافل والتكايا التابعة للطرق لوجدنا أن الخلوتية كانت أكثر الطرق شعبية فى استانبول والأناضول (١) ٠

والى جانب الطرق « النظامية » « وغير النظامية » التى عرضنا لها كانت توجد حركة دراويش أخرى لايذكرها دوسون ولا غيره ممن كتبوا فى القرن الثامن عشر لأنهـــا كانت سرية فى وقتهم ٠ وكانت تمثل احياء للملامتية التى أطلق عليها فى ذلك الوقت اسم الملامية (٢) ٠ وكان مؤسسها الأصلى حاجى بيرام الذى ذاع صيته فى أنقرة فى أواسط القرن الخامس عشر (٣) ٠ وكان حاجى بيرام وخلفاؤه يشبهون الملامتية القدامى من حيث أنهم لم يرتدوا ملابس خاصة وعاشوا حياة « عادية » واحتقروا النفاق ٠ ولهذا فبرغم عاداتهـــم المقصـــود منها استرعاء الأنظـــار ، فان صراحتهـم سرعان ما أوقعتهم فى متاعب مع السلطات ٠ فهذه الصراحة قد دفعتهم الى المناداه علنا بوحدة الوجود التى كان الدرواويش بوجه عام يؤمنون بها ولكنهم كانوا من اللباقة بحيث أخفوها ٠ وقد أدت

(١) يعدد براون (٤٦٢ ـ ٦) ٧ تكايا فى استنبول تابعـــة لنظام الطرق الرئيسى . الى جانب التكايا التابعة للطرق الفرعية وكانت الطريقة السنبلية واحدة منها ، تضم ١٥ تكية ٠ (نفس المرجع ص ٤٨٠ ـ ٢) ٠ ويلحظ أوليا افندى (ترجمة هامر جـ ٢ ، ص ٨) بروز التكايا الخلوتية فى بروسة ٠

(٢) نحن نقصد استعمال اصطلاح « حركة » ، فى اشارتنا الى الملامية لأنها لم تكن طريقة صوفية بمعنى الكلمة ـ فلم يقتصر الأمر على انتساب أعضاء طرق أخرى اليها أحيانا ، بل لم تكن لها تكايا وما الى ذلك أو احتفالات خاصة بها وحدها : عبد الباقى ، وبخاصة ص ١٩٠ ـ ٣ ، ص ١٩٤ ، انظر أيضا براون ص ٢٢٥ ـ ٤١ حيث يورد ترجمة لمقطوعة أدبية ملامية ٠

(٣) انظر اوليا أفندى جـ ٢ ، ص ٢٣١ ، ص ٢٣٣ ـ ٤ ٠ وكانت الطريقة التى اسسها فرعا ـ دخلت عليه الاصلاحات ـ من الطريقة الصفوية التى تفرعت عن السهروردين ٠

سلسلة الأحكام بالسجن والاعدام التى صدرت ضد رجال الطريقة الجديدة الى اتجاه الأنظار اليها ٠ ولكن هذه الأعمال لم يتعد أمرها اجتذاب أتباع جدد ، وفى خلال القرن السادس عشر ، فى أعقاب اصلاح متشدد (١) ، قامت الدعاية للمبدأ فى كل ربوع الروملى وبخاصة فى البوسنة وفى منطقة أدرنه ٠ يضاف الى هذا أن خيالة البلوك اتبعوه ، وكذلك السباهية الثابتة ، ومن الواضح أنهم كانوا بذلك يقلدون الانكشارية الذين انتسبوا الى البكتاشية وساهموا كما يبدو فى اشتداد المنافسة القائمة بين الفريقين (٢) ٠

ويسترعى تاريخ الطريقة خلال النصف الأول من القرن السابع عشر انتباهنا بشكل متزايد ـ فهى الى جانب انتشارها فى شبه جزيرة العرب ضمت صدرا أعظم (٣) وشيخ الاسلام ذاته (٤) ٠ ولكن أمكن لرئيسها فى عام ١٦٦٢ أن يجتذب عددا كبيرا من الاتباع بحيث أثارت غيرة مشايخ دراويش آخرين وبعض رجال العلم ، ورغم أن سنه حينئذ كانت تزيد على ٩٠ سنة فانه

(١) قام به الشيخ حمزه من بروسة ومن هنا عرف الملاميون بوجه عام باسم الحمزاوية ٠ ويبدو من غير المؤكد ما اذا كان الحمزاوية قد انفصلوا عن البيرامية : وربما كان القصد من اصلاح الشيخ حمزة هو اعادة تنظيم الجماعات البيرامية بعد أن أنشأ بيرافتادة (المتوفى فى عام ١٥٨٠) طريقة فرعية جديدة اسمها الجلوتية التى يبدو أنها تأثرت كثيرا بالخلوتية ، وأحيانا تعتبر طريقة خلوتية فرعية كان أبرز ممثليها الشاعر والعلامة اسماعيل حقى من بروسة (وقد توفى فى عام ١٧٢٤) ٠

(٢) عبد الباقى ص ١٦٩ ـ ٧١ ٠

(٣) توفى خليل باشا فى عام ١٦٣٠ بعد أن تولى وظيفة فى عهد أربعة سلاطين : أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان الثانى ومراد الرابع : عبدالباقى ص ١٣٦ ٠

(٤) مصطفى أفندى أبو الميامن (١٥٤٦ ـ ١٦٠٥) : نفس المرجع ص ١٣٦ ٠

شنق علنا هو وأربعون من أتباعه وألقيت جثثهم فى البحر (١) ؛ وبعد ذلك عدل قادة الطريقة أساليبهم فأخفوا شخصياتهم وواصلوا نشاطهم سرا (٢) • ولكنها ظلت توجد حتى فترة دراستنا بل وتجاوزتها ، وكان لايزال لها أنصار فى المراكز العليا • وفى أوائل القرن الثامن عشر تولى القيادة بالفعل أولا شيخ اسلام آخر (٣) ثم صدر أعظم آخر (٤) •

والى جانب دلائل عامة على السنية النسبية للطرق الرئيسية لم نحاول اطلاقا فى عرضنا السابق أن نحدد بدقة المبادىء المميزة لكل منها • فهذه المهمة صعبة جدا وحساسة فى الواقع — فحتى لو حددنا وجهات نظر مؤسسى كل طريقة لن يعنى ذلك بأى حال أن وجهات النظر هذه ظلت كما هى عبر القرون • بل على العكس نجد أن كل الأدلة تشير الى أن طابعهم الرئيسى هو المرونة المتناهية — وهذا ما نتوقعه من الأسس الفردية والتجريبية التى قام عليها التصوف • فنحن نجد أن عددا كبيرا من الطرق التى بدأت مارقة انتهت الى أن أصبحت من دعامات السنية ، وبالعكس من ذلك نجد أن الطريقة الصفوية التى حولت فارس الى الشيعية بدأت « سنية » • ولكن مثل هذه التغيرات الخارجية ، أيا كانت أهميتها ، لا تمثل الا مظهرا واحدا من مظاهر هذه العملية • وعلى

---

(١) وقد أمر بهذه الأحكام الثانى من الصدور انعظام من أسره كوبريللى — فاضل أحمد باشا — فى عهد محمد الرابع •

(٢) عبد الباقى ص ١٧٣ •

(٣) بشمعجى — زاده سيد على أفندى المتوفى فى عام ١٧١٢ •

(٤) شهيد على باشا الذى قتل فى ميدان القتال فى ١٧١٦ فى عهد أحمد الثالث (ملحوظة فى تاريخ عطا ج ٢ ، ص ٨٤ — ١٠٠) •

حين أننا استطعنا في بداية هذا الفصل أن نميز عناصر عدة في التصوف المبكر ، فانهـــا في الفترة التي تهمنـــا قد أصبحت من التداخل بحيث بات من المستحيل فصلهـــا . ومما قوى عملية الادماج ما حدث من الجمع بينعضوية أكثر من طريقة . فالارتباطات المتعددة كانت هي القاعدة بين المتعلمين . وحدث بالفعل في القرن السادس عشر أن شخصا مستنيرا كالشعراني كان باستطاعته أن يفخر بأنه كان عضوا منتظما في ٢٦ طريقة (١) . ومن المحتمل أن كل طريقة أو طريقة فرعية جديدة كانت تمثل تشكيلا جديدا يأخذ أجزاء من طرق مختلفة . فالاسلام في القرن الثامن عشر كان يشبه سجادة متعددة الألوان ، لايقوم نموذجها فقط على القرآن والحديث والتطهر الشرعي والأخلاقيات الملامية والوجد الحلاجي والتفسـير الباطني ووحدة الوجود عند ابن العربي ، والحساسـية الجمالية عند ابن الرومي والطقوس المخدرة أو الخوارق عنـد الطرق التي تتميز بالهيام الصوفي ، بل أيضا على الفلك والكشف والسحر — وفوق ذلك كله تقديس الأولياء أحياء وأمواتا .

وكانت الفكرة التي تذهب الى وجـود سلسلة من الأوليـاء الأحياء الذين ظلوا يوجهون شئون العالم (وهو ما سبق أن أشرنا اليه في هذا الفصل) يشترك فيها كل أولئك — وكانوا حينئذ هم الأغلبية العظمى من السكان المسلمين ان لم يكونوا كلهـم — وقد انخرطوا في سلك التصوف بأشكاله المختلفـة برغم أنه كان من الممكن أن لا يوافق المتضلعون على صفة الأشخاص الذين يكونونها . ولهذا رأى العامة في الأولياء أحياء وأمواتا أشخاصا لهم مكانتهم في العالم وتاريخه . ولم يكن بامكان أية سلطة علمانية أن تنافسهم

---

(١) الطويل . التصوف في مصر . ص ٧٥ — يأخذ عن المناقب الكبرى ، ص ٦٦ .

فى كسب ولاء المؤمنين . واطلاق صـــفة أهل الغيب على سلسلة الأولياء كان معناه أن تكوينها سر على أى حال بالنســـبة الى غير الأعضاء . وكان بامكان أي شخص أن يكون وليا مستترا ، وكانت دلائل الولاية أمرا يتحمس الناس فى البحث عنه . ومن الطبيعى أن يكون أحسن المرشحين من بين الأحياء محترفو ممارسة التصوف، ومن بين الأموات ـ الى جانب الشيوخ الأجلاء ـ الأنبياء والدراويش الذين يحاطون بالاجلال فى حياتهم بصفتهم أولياء وأولئك الذين يعتقد أن قبورهم ـ أحيانا عن طريق الصدفة ـ تفيد من يقصدونها بهدف الشفاء والتوصل الى الكرامات . وملخص القول أن جماعة الأولياء كانت وافرة العدد ، وكانت عباداتهـم بوجه عام أكثـر حيوية مما يجرى فى المسجد .

ولكننا في هذا التاريخ ـ كما سـبق أن أشرنا ـ لانستطيع باستمرار أن نفرق تفريقا واضـحا بين المسجد والتكية . وكان العلماء أنفسهم مؤمنين عن اقتناع بقداســة الأولياء ، بل كانوا مرشحين لأوجه التكريم التى تضفيها هذه القداســة . وكانوا لايقلون عن المشــايخ المتصوفين فى شرحهم أسرار الفنـاء فى الله ووحدة الوجـود للمؤمنين ـ فهم لم يقلوا حماســـة عن الجماهير فى التهامهـم قصص المعجزات والعجائب والروايـات الشفهيـه الخاصـــة بها وممارستهم للطقوس الصوفية وان يكونوا قد قاموا بذلك بصورة أكثر حذرا . أما القلة التى كانت لديها الجرأة على نقد ادعاءات الأولياء فقد كان يلومهم زملاؤهم من العلماء وأحيـانا ما كانت حياتهم تتعرض للخطر بسبب عنف الغوغاء والحماســـة الرسنمية (١) . وقد سـبق أن لاحظنـــا أن التحول الذى ألحقه

---

(١) وقد وجد التدين التركى وسيلة حتى للتوفيق بين هذا وتبرير التطهر الشرعى : انظر الحكاية التى يذكرها لويس ماسينون فى :
Revue des Etudes Islamiques, 1941-6, 82.

التصوف بالإسلام قد أضفى عليه حيـــاة جديدة كمـا خلع عليه تماسكا اجتماعيا لم توفره له السنية الأصولية ٠ وكانت النتائج عامة ومتزايدة ، فلدى المسلمين على اختلاف أعمالهم وطبقاتهم كانت الرياضات الروحية تنبض بالحرارة ، وأحيـــانا ما كانت مجلبة لقسط كبير من الراحة ٠

ولكن كان من الواجب دفع مقابل للرتبة البراقة فى نظـام الدراويش ســـواء بشكل مباشر أو ضمنى ـ وفى كلتا الحالتين كان الثمن فادحا ٠ فقد ازدحمت المدارس بشباب المدن والقرى ـ وفى حالة عدم وجود الوظائف المناسبة كانوا يكونون عصـــابات السفتة التى كان لايمكن السيطرة عليها ، وكان آلاف من الآخرين يدخلون التكايا باعتبارهم مرشحين لدخول الطريقة ، وكان المجتمع يخسر خدماتهم ٠ وكلما ثقلت الحيـاة على الزراع كلمـــا ازداد اغراؤهم بالبحث عن الطريق الأســـهل فقد تكاثرت التكايا فى المدن ٠ وفى عام ١٦٣٨ وفقا للتعداد الرسمى الذى يرجع اليه أوليا أفندى كان يوجد ٥٥٧ ، « خانكاه كبيرة » فى اســـتانبول و ٦٫٠٠٠ خلوة وحجرة أصـغر من ذلك ـ وكان كلهــا خاصا بالدراويش (١) ٠ وللانفـاق على هذه المؤسسات أنشأ السلاطين والوزراء والموظفـون والأثـرياء من كل الرتب أوقافا من الأرض والأملاك الحضرية ، وبمرور الزمن اشـتد ازدياد عدد مثل هذه الأوقاف (٢) ٠ وقد أوضـحنا فى الفصل السابق الضغوط التى

---

(١) انظر ما سبق ص   ٠ وراجع المرادى ج ٢ ، ص ٣٢٥ ٠

(٢) ترجمة هامر ج ١ القسم الثانى ص ١٠٣ ٠ ويعطينـــا نفس الاحصاء ٧٤ مسجدا كبيرا من مساجد السلاطين ، و ١٫٩٨٥ مسجدا كبيرا من مساجد الوزراء و ٦٫٩٩٠ مسجدا صغيرا من مساجد أحياء المدن . و ٦٫٦٦٥ مسجدا آخر بين صغير وكبير ٠ ويقدر اولنا نفسه انه كانت توجد فى بروسة : ٣٠٠ خانقاه : نفس المرجع ج٢ ، ص ٨ ٠

فرضها ذلك على رخاء الامبراطورية الاقتصـــادى والمشكلات التى قيض له أن يثيرها ٠

ويحتمل أن الثمن كان أفدح فى المجال الروحى ٠ فكل نظام يحتوى على جرثومة فساده ، وعلى حين أننـا لانستطيع أن نوافق على الاتهام غير المتحفظ الذى وجهه المصلحون الاسلاميون المحدثون الى الحركة الصوفية ، فان دلائل فسـادها نتيجة للتطرف كانت جسيمة ٠ فلقد كانت الخبرة الروحيـــة الأصيلة نادرة الحدوث نســبيا بطبيعة الحال ، كما أن النظام الصوفى لم يكن يتضمن غرسها أو تطويرها لدى كل ممارسيه ٠ ويقول أوليا أفندى المحب للأولياء « ليس كل درويش صوفيا » برغم أنه قد يكون درويشـا موحدا صادقا (١) ٠ وكانت دلالات القوة الخارقة لدى المتضلعين هى أكثر ما كان يقدره الناس أثناء بحثهم عن الولاية (٢) وتزخر آداب القرنين السابع عشر والثامن عشر بشخصيات قدسية من كل الأنواع والطبقات وبأمثلة من قدراتهم الخارقة للعـادة وكراماتهم الخاصة (٤) ٠ ولكن مثـل هذه الأدلة لم يمكن ابرازها بشـكل منتظم ، ولهذا لم يكن من الممكن مقاومة اغراء ابرازها زيفا ٠ والذى

---

(١) راجع : Mustafa Akdag in Bulletin, xiv no. 55, p. 363.

(٢) ط ، القســـم الثانى ، ص ٩٩ وقد خلع عليه لقب أوليا (جمع ولى) بسبب حبه للأولياء ٠

(٣) دوسون جـ٤ ، ص ٦٧٧ ، ص ٦٧٩ ٠

(٤) فعلى سبيل المثال كان درويش رفاعى فى دمشق يلبس حلقات حديدية فى ذراعية وأصابعه وبدعى أنها تمثل مدن الاسلام ٠ وقد حدث فى أحد الأيام أن انتزعت منه حلقة بالقوة . وبعد وقت قصير وصلت الأخبار بأن مدينة عظمى فى أوربا سقطت فى أيدى المسيحيين : المرادى جـ٢ ، ص ٤ ٠ انظر أيضا أوليا ، جـ١ القسم الثانى ، ص ٢٥ ــ ٢٨ ٠

حدث بالفعل هو أن أعمال الغش التى مارسها الدراويش كانت تسىء الى سمعة الطرق فى نظر العلماء والعلمانيين (١) . ولكن أصبح « رجل الشارع » ـ يفوقه « رجل الحقل » ـ يضع ثقته فى تلك الأثناء فى قوة معجزات الدراويش التى غلبت لديه على القيام بالعبادات التى نصت عليها الشريعة . وكان الاسلام من الناحيه التطبيقية تشوبه (٢) الخرافات بشكل غير منظم بحيث لم يعد يستطيع أن يتصدى للاحتكاك بأفكار ترد من منطقة أخرى اشتد فيها بالفعل انفجار خرافات لاتختلف عن ذلك ـ حتى وان حلت محلها خرافات أخرى .

وهكذا كانت عقلية المسلمين وكذلك عقلية رعاياهم من غير المسلمين الى حد ما قد تأثرت كثيرا بالتعاليم الصوفية عن طريق العدوى . ولما كان لايعترف بعدم اتفاق كثير من هذه التعاليم فى الواقع مع الشريعة التى كانت تمثل التقاليد الاسلامية الأولى ، ولما كان الاسلام ـ كما لاحظنا ـ قد أصبح يتضمن نظامين متعارضين وان تظاهرا بأنهما نظام واحد ، فان الموقف الذى كان يثيره أحد هذين النظامين الخاصين بالحياة والسلوك كان يتعدل بسبب منافسة المكانة التى كان يتمتع بها النظام الآخر ، وكانت الشريعة بوجه عام أقوى لدى الطبقات العليا ، و « الحكام » اما مكانة ، أو أثر ، التصوف بالنسبة الى ، سلوك الطبقات الدنيا أو المحكومين، فقد تمخضت عن آثار اجتماعية معينة من الممكن أن ننتهى بمحاولة تلخيصها .

---

(١) الجبرتى جـ١ ، ص ٤٨ ـ ٥٠ ، ص ٧٨ ـ ٨٠ وراجع دوسون جـ٤ ، ص ٦٤٨ .

(٢) دوسون ، ص ٦٧٢ ، ص ٦٧٩ ـ ٨٣ .

فبادىء ذى بدء نجد أن التحرر قد سمح للناس بأن يوغلوا فى ملذات معينة كانت الشريعة لا ترضى عنها ـ وعلى سبيل المثال ألوان الأداء الموسـيقى . أما فيمـا يتعلق بأراضى الامبراطورية الأصلية ـ الروملى والأناضول ـ فان الفارس دوسون على أى حال يلحظ شـدة تعلق الناس فى هاتين الولايتين بالموسيقى ، وكان الدراويش المولوية أشهر العازفين . وكان استعمالهم للموسيقى أثنـاء أدائهم لرياضـاتهم ـ وان لم يكن ذلك فى الواقع خاصـا بطريقتهم (١) ـ قد مارسه بالفعل مؤسسو الطريقة المولويه الى حد كبير بحكم ما كان معروفا من أن أهل الأناضول يميلون كثيرا الى الفن (٢) . وكذلك يبدو أن محرمات الشريعة كانت لا تراعى بصورة واسعة فى مسائل تعاطى الخمر والقهوة وتدخين الطباق واستحلاب الأفيون والحشـيش ـ فالشريعة بالتـأكيد لم تكن تعرف القهـوة والطباق . مما سبب للعلماء كثيرا من (تفتيش القلب) . وفى كلتـا الحالتين كان يبدو أنهم شعروا بأن روح الشريعة تقف ضد استهلاك هاتين السلعتين . ولكن فيما يتعلق بهذه الناحية لم يكن ثمـة نص يستند اليـه ، ومن ثم انحناؤهم آخر الأمر أمام مطلب الجماهير . ومن الصـعب أن نذهب الى كيفيـة كون هذا الطلب انسانيا محضا ، وأن ندرس مدى تأثره باتساع عقلية الدراويش . ولكن من المؤكد أنهم هم الذين سبقوا غيرهم فى شرب الخمر وتعاطى

---

(١) وعلى سبيل المثال كان يستعملها الرفاعية (انظر وصف ابن بطوطة فى الخلوة الأم للطريقة فى العراق فى أواخر القرن الثالث عشر جـ ٢ ، ص ٤ ، ص ٥) ويقال انها أدخلت بالفعل باعتبارها عادة من عادات الدراويش وذلك على يد مؤسس الطريقة القادرية ـ انظر دوسون جـ ٤ ص ٦٥٦ . راجع عبد الباقى ص ٢٥ .

(٢) دوسون جـ ٤ ، ص ٤١٤ وما بعدها .

المخدرات . وكان تحريم الخمر باستمرار موضعا للتندر في البلاد الاسلامية ـ فحوليات الخلافة مليئة بالحديث عن شرب الخمر ، وقد سخر عدد كبير من خيرة الشعراء العرب والفرس والأتراك مواهبهم لقرض الشعر والتغزل في الخمر ولكن ذلك اعتبر باستمرار أمرا مشينا . ولهذا السبب بالذات استعمل المتصوفة في كلامهم وكتاباتهم الخمر باعتبارها كناية عن حب الله ـ تماما كما استعملوا صورا غزلية للتعبير عن هذا الحب . وفي هذا المفهوم نظمت أبيات شعرية كثيرة تثير تساؤلنا . فهل يتكلم حافظ عن خمرة علوية ـ وحب علوى ـ أو عن حب حقيقي ؟ وأحيانا ما نجد الاجابة على هذا السؤال أمرا مستحيلا . ومن المحتم أن يمتد هذا الخلط الى مجال التطبيق . فالخروج على الواجبات التي فرضتها الشريعة كان باستمرار من صفات التصوف .

ونحن نجد أن خرق المتصوفة لأحكامها بوجه خاص هو الذى أثار غضب أهل السنة في البداية (١) ، وكان تحريم شرب الخمر أحد التكاليف الشرعية التي كان خرقها مجلبة للسرور ، ويذكر دوسون أن السلاطين في أيامه كانوا لايقربون الخمر على الاطلاق ، وأن موظفي الحكومة لم يشربوها الا بحرص متزايد (٢) ، في الوقت الذى كانت فيه الطبقات الدنيا ـ وبخاصة الجنود والبحارة ـ تتعاطاها بحرية يقمعها الضمير بقدر ما تحد منها يقظة السلطات ، وكان الدراويش يتعاطونها دون أية حدود (٣) ، وكان موقف العلماء

---

(١) راجع Encyc. of Islam, art Tarika.

(٢) يقال ان الصدر الأعظم الشهير كوبريلي فاضل أحمد باشا مات قبل الأوان بسبب تعوده شرب الخمر . راجع دائرة المعارف الاسلامية .

(٣) كانت الخمارات لا توجد الا في الأحياء التي يسكنها المسيحيون ، وكان البوليس يغلقها لدى دنو أي عيد ، دوسون ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ج ٤ . ص ٥٢ ـ ٦٧ .

من تعاطى المكيفات أقل تحديدا من ذلك ، فقد اختلفوا حول قانونيتها برغم كونهم أكثر الناس تنديدا بها • وترتب على ذلك أن انتشارها كان يفوق انتشار الخمور حتى لدى علية القوم •

وفى الحق ان الكثيرين ممن كانوا يرغبون فى الامتناع عن تعاطى الخمور قد تخلصوا من طعمها بتعاطى الأفيون أو المكيفات الأخرى أما عن الدراويش فقد استعملت بعض الطرق المنشطات كما سبق أن ذكرنا ، لكى يحققوا هدفهم الخاص باثارة النشوة ، وبهذا الشكل حللوا استعمالها فى نظر أتباعهم (١) •

ومن النتائج الأخرى التى ترتبت على خشية الأولياء والدراويش واجلالهم ، الاحترام الذى كان يحظى به المجانين بوجه عام وازدياد انتشار الاعتقاد فى السحر وقراءة الطالع والتنبؤات والتنجيم ص ٢٠٥ • فقد كان يعتقد أن المجانين تمر بهم باستمرار حالة تجرد عن الأغراض الدنيوية التى كان الدراويش لا يصلون اليها الا بين حين وآخر بعد رياضة طويلة ومضنية : فقد كانوا أولياء طبيعيين اذا ما جاز لنا القول (٢) • ورغم وضوح تحريم القانون لممارسة فنون التنجيم وقراءة الطالع وما الى ذلك ، فانها كانت منتشرة فى كل مكان بل كانت تمارسها الحكومة والسلاطين وأهم ما أقره القانون فيما يتعلق بالتحقق من المستقبل قراءة الطالع من القرآن والتعبد لله أملا فى كشف ما يخبئه الغيب • ولكن ثبت أن تحريم القانون للتنجيم كان باستمرار أقل فعالية

---

(١) نفس المرجع ص ٦٧ ـ ٧٦ •

(٢) نفس المرجع جـ ، ص ٣١٣ ـ ١٤ • راجع أيضا الملحوظات المتعددة عن الأولياء المجانين ، فى المرادى (جـ ١ ص ٤٣ ـ ٤٤ ، ص ٢٥٠ ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ ، ص ١٨٣ وغيرهما) •

من تحريمه لشرب الخمر . وحتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر كان يتم حسم القضايا السياسية الكبرى أحيانا وفقا لنصيحة كبير المنجمين . ويمكننا الحكم على مدى قانونية نشاط هذا الموظف من أنه كان يعين بالفعل عضوا في هيئة العلماء ذاتهم (١) . ومن الممكن القول ان الدراويش لم يكونوا هم وحدهم المسئولين عن الاعتقاد في التنجيم - فلم يكن بحاجة الى مساعدتهم - ولكن الأعاجيب التى أذهلوا بها المعجبين بهم والأقاصيص الخارقة للعادة عن التنبؤ والكشف التى تملأ قصص حياة الأولياء وشراءهم الطلاسم لطرد الشر وشفاء الأمراض - كل ذلك خلق جوا كان فيه الاعتقاد فى السحر والمعجزات - مع الايغال فى الخرافات - قد ازدهر بشكل يكاد يخرج عن نطاق المنطق السليم .

ولكن يحتمل أن أكثر نتائج انتشار التصوف بين الشعب تأثيرا فينا هو ما سبق أن ذكرناه عن انتشار عدم الشعور بالمسئولية والايمان بالقضاء والقدر . وقد سبق أن لمسنا الأسباب الاقتصادية التى كانت كامنة وراء نمو الفساد فى المجتمع العثمانى فى ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولكن مما يجب ملاحظته أن هذين القرنين شهدا أيضا فى نفس الوقت اضمحلالا فى الثقافة والعلم كان مرتبطا بهذا الفساد الى حد كبير ، وامتدادم الى الطبقات العليا التى كان الفساد أوسع انتشارا بينهم منه بين أية طبقة أخرى بسبب تأثير الدراويش . ومن الصعب تجنب النتيجة الخاصة بأن هذه التطورات كانت مترابطة : فيبدو لنا كما لو كانت الشريعة قد فقدت سلطانها فى مجال الأخلاق لحساب منافسيها الدراويش . حقيقة ان هذين القرنين شهدا انتصار كبار

---

(١) دوسون جـ ١ ص ٣٣٣ - ٤٢٢ .

العلماء باعتبارهم طبقة أرستقراطية ، وكان العلماء ممثلي الشريعة . ولكن سلطتهم كانت سياسية أكثر منها أخلاقيـــة ، وفي الحق ان كثيرا منهم كانوا أمثلة صارخة للفساد . يضاف الى ذلك ما سبق أن رأيناه من أنه كان من الصعب حتى القرن الثامن عشر وضع حد فاصل بين الدراويش والعلماء . ويبـــدو أن هذه الظروف تفسر ظرفا آخر لاحظه دوسون : فقد كان احتقار القانون في أيامه يعتبر جريمة أكثر بشاعة من نقضه وكان عقابه أشد (١) .

وقد سبق أن رأينا أن ثمة تغاضيا عاما في الواقع عن بعض الأعمال المنافية للقانون وفي الوقت الذي تفشى فيه اهمال العلماء أنفسهم في تطبيق القانون ، كما تفشى سوء تطبيقهم له ـ ان لم يكن كل ذلك قد أصبح أمرا عاما . ولكنهم كانوا شديدي الحماسة في التشدد فيما يتعلق بانتظام الناس في الوفاء بواجباتهم الدينية ، معتبرين أي تقصير بهذا الصدد دليلا على الكفر .

ولم يستطع مراقب أوروبي للامبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر أن يتجاهل الايمان بالقضاء والقدر ـ اذ تمخضت عنه آثار مذهلة : فأحياء بأكملها من استانبول كانت تحترق باستمرار وخلال كل بضع سنوات كان الناس معرضين لأن يفتك بهم الوباء . ولكن لم يوجد ما يجعل المسلمين يبنون منازلهم بمادة أخرى غير الخشب أو يتخذون الاحتياطات ، عن أنفسهم وأسراتهم ، ضد العدوى وكان سلوكهم في الواقع متناقضـــا : فعـــلى سبيل المثال كانوا يستدعون طبيبا لكي يعالج مريضا ويبذلون كل ما في وســـعهم للقضاء على تلك البلوى : فما كان يتضمن الهروب من القدر كان يحسم حسب العرف لا بأي طريقة أخرى . ومن هنا كانت الشكوى

---

(١) دوسون جـ ١ ، ص ١٧٠ ، ص ٣٢٨ ـ ٣١ .

من سوء الحظ تعد استهتارا لايغتفر : فمعناه أن القضاء يحل لسبب آخر خارج عن مشيئة الله ، أو أن مشيئة الله ظالمة • وكانت الاستجابة الصحيحة هي التسليم التام بقضاء الله وقدره والاشارة الى القسمة أو التعذير (١) •

ولم تكن آثار اتخاذ هذا الموقف من الأحداث شرا كلها فقد أوتى المسلمون قدرة لانظير لها على تحمل المصائب باستسلام• وهذه الميزة كانت تعني الكثير ازاء كل المصائب التى قيض لهم أن يتحملوها • ولكن هذا الرضى بالأمور كما كانت عليه قد اعترض محاولتهم تحسين أحوالهم • ومن هنا كان يجب فرض كل الاصلاحات من أعلى ، على أيدى قادة تحركهم روح أخرى ـ وليس كما يقال أحيانا من أن السبب هو أن السلاطين وحدهم هم الذين كانوا يتمتعون بسلطات سياسية وأنهم كانوا يجعلون سكانا من العبيد خاضعين لطغيانهم • وفى القرن الثامن عشر ، كما سبق أن لاحظنا ، كان أقوى عناصر الامبراطورية هم الانكشارية ـ وكانوا حينئذ يكادون يتكونون من الحرفيين وممثلى التصوف الشعبى ـ والعلماء • وازاء اتحاد الطرفين أصبح من الصعب جدا على السلاطين أن يفرضوا ارادتهم •

---

(١) الكلمة العربية قسمة راجع :

Hughes, Dictionary of Islam, s.v. Predestination.

انظر دوسون جـ ١ ، ص ١٦٦ ـ ٧٦ ، جـ ٤ ، ص ٣٨٥ وما بعدها •

الفصل الثامن

أهل الذمة (١)

استعمل مصطلح « ذمي » في الشريعة للاشارة الى الرعايا غير المسلمين الخاضعين للحاكم المسلم ، وذلك على اعتبار أن عقدا

(١) من النادر جدا أن نعثر على المادة الأصلية الخاصة بدراسة موضوع هذا الفصل التى سبق لنا استخدامها فيما يتعلق بالمؤسسات الاسلامية . وهذه المادة الأصلية لا تتضمن فقط الوثائق العثمانية بل أيضا الأرشيفات الخاصة بكل الطوائف غير الاسلامية التى كانت تقطن الامبراطورية العثمانية أو تتصل بها . ولكن اتضح لنا اننا لا نستطيع أن نستبعد من دراستنا فصلا يتعلق بهذه الطوائف ولو استندنا الى مصادر ثانوية الى حد كبير فيما لو قارناه بالفصول الأخرى . ونحن ننتهز هذه الفرصة لنشكر دكتور ألفورد كارلتون Alford Carlton الذى أذن لنا بالاستعانة برسالته غير المنشورة التى تناولت نظام الملل (المؤلفان) .

واشكر الزميل الدكتور وسام عبد العزيز فرج لاشتراكه معى فى ضبط بعض المصطلحات الخاصة بالذميين سواء خلال العصر العثمانى أو خلال ما قبل ذلك من العصور (المترجم) .

(ذمة) كان ينظم هذه العلاقات بعد أن تم الاتفاق عليه فى الوقت الذى انضوى فيه البلد المعنى فى دار الاسلام ٠

وكما هو الحال فى كل الأمور الأخرى التى تناولتها الشريعه كانت المبادىء التى تحكم العلاقات بين الحكام المسلمين وبين غير المسلمين قد تشكلت خلال القرون الأولى من التاريخ الاســـلامى وان تكن المذاهب السنية الأربعة قد اختلفت فى تحديدها برغم أن جذورها كانت مستقاة من موقف الرسول (صلعم) من الديانات الأخرى التى تعرف عليها ومن المشكلة المرتبطة بما واجهته رسالته من معارضة ٠ ويبـــدو أنه تعـــرف على خمس ديانات : اليهودية والمسيحية ودينى الصـــابئة والزردشتية والديانات ذات الآلهـــة المتعددة فى شـــبه الجزيرة العربيـــة ولو أن الديانتين اليهودية والمسيحية كان لهما أثر خاص فى تصـــوره لنعالم ٠ وأيا كانت وجهة النظر الخاصة بأصل القرآن فمن الواضـــح أن مادته ذات صلة وثيقة بما يمكن التعرف عليه من الموضـــوعات الواردة فى التوراة والانجيل ٠ بل لقد أقر الرسول (صلعم) ذاته بأن موسى وعيسى قد سبقاه فى النبوة ولهذا كان اليهود والنصارى فى نظره أفضل من المشركين على اعتبار أن لهم على الأقل « كتابين » خاصين بهم يلتمسان لهم العذر لعدم تلقيهم رسالته ، وبالتالى كان لهم هم والصابئة اليهود وضع خاص فى القرآن باعتبارهم من «أهل الكتاب»٠ ولم يشر القرآن الى الزردشتيين الا اشارة واحدة وردت بصـــورة غامضة بحيث لايسهل علينا أن نقطع بكونهـــم من أهل الكتـــاب أو من المشركين (١) الذين اشتد القـــرآن فى التنديد بهم وفرق

---

(١) « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة » سورة الحج الآية ١٦ ٠

بينهم وبين أهل الكتاب · وهكذا لم تلبث الشريعة أن نصت ـ لدى احتلال الجيوش الاسلامية لأراض جديدة ـ على قبول المشركين للاسلام والا تعرضوا للقتل ، فى حين كان يسمح لأهل الكتاب بالاحتفاظ بدينهم السابق وفقا لشروط خاصة تضمنها العقد الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك طالما لم يرفعوا سلاحا فى وجه المسلمين (وفى حالة قيامهم بذلك كان يمكن قتلهم أو استعبادهم) · وهكذا أصبح أهل الكتاب « ذميين » أى كفارا ينطبق عليهم التسامح ·

وكان موقف الرسول الذى تميز بالعطف على أهل الكتاب يرتبط الى حد كبير بتفضيله اياهم على المشركين الذين كانوا الد أعدائه · ولكن قيض للمشركين أن يختفوا من المسرح الاسلامى نتيجة للقضاء عليهم أو لاعتناقهم الاسلام ، وبالتالى مالبث الذميون أن فقدوا الوضع الخاص الذى ميزهم به الرسول وأصبحوا فى نظر المسلمين الممثلين الوحيدين للكفر · حقيقة أن نطاق التسامح كان يتسع فى بعض البلدان بحيث شمل أشخاصا ليسوا بالفعل من أهل الكتاب بأى حال ، كما حدث فى فارس حيث فسرت الآية الغامضة لصالح الزردشتيين ، أو فى الهند حيث كان المشركون من الكثرة بحيث تعذر تحويلهم الى الاسلام أو القضاء عليهم · الا أن الفريقين أصبحا يتمتعان بالتسامح وفقا لنفس المبادىء المطبقة على المسيحيين واليهود ومن ثم لم يتحقق ما من شأنه أن يعيد هاتين الجماعتين الى وضعهما السابق باعتبارهما تشغلان مكانة وسطا · لهذا أصبح المجتمع فى شتى أنحاء العالم الاسلامى ينقسم الى مجرد مسلمين وكفار (أو ذميين) ·

وكانت شروط عقد الحاكم المسلم مع الذميين تضمن حياتهم وحرياتهم والى حد ما أملاكهم وتسمح لهم بممارسة ديانتهم ، فى

مقابل تعهدهم بدفع الجزية والخراج وموافقتهم على تحمل بعض القيود التى تجعلهم يشغلون وضعا أدنى من ذلك الذى كان يتمتع به المسلمون • وهذه القيود متنوعة – اذ الذمي لايرقى الى الوضع القانونى المخصص للمسلم : فلا تقبل شـــهادته ضد المسلم فى محكمةالقاضى ، ولا يحكم بالاعدام على مسلم قتل ذميا ، وعلى حين كان لايسمح للذمى بأن يتزوج مسلمة كان يســـمح للمسلم بأن يتزوج ذمية • وبالاضافة الى ذلك كان الذميون يرغمون على ارتداء ملابس تختلف عن ملابس المسلمين حتى يســـهل التمييز بين الطائفتين ، كما حرم عليهم ركوب الخيل وحمل السلاح • وأخيرا فعلى حين كان يمكن تحويل كنائسهم الى مساجد ، وهو ما تم فى حالات كثيرة ، كان لا يسمح لهم ببناء دور عبادة جديدة – وكان أقصى ما يســـمح لهم بعمله بهذا الصدد هو ترميم ماتهـــدم من هذه الدور (١) •

وكانت حركة التوســـع التى أدت الى قيـــام الامبراطورية العثمانية تشبه فى بعض نواحيهـــا الحركة التى أدت الى قيـــام الخلافة التى أقامت أول دولة اسلامية عظمى • وكلتـــا الحركتين أدتا الى أن ضمت دار الاسلام أراضى واسعة كانت مسيحية من قبل كما أدت الى خضوع أعداد كبيرة من الرعايا الذميين للحكام المسلمين • الا أن كلا من العالمين الاسلامى والمسيحى قد تغير خلال الفترة الفاصلة بين عصر الخلافة وبين العصر العثمانى • فالعـــالم المسيحى قد انقســـم مابين أرثوذكس وكاثوليك ، فى حين أصاب التغيير العالم الاسلامى – كما رأينا – بفعل المؤثرات الصوفية •

---

(١)
Encyc. of Islam, art. «Dhimmis»; A.S. Tritton, The Caliphs and their non-Muslim Subjects (Oxford, 1930), 5-17.

وفى الواقع ان هذا الانقسام الكبير الذى حل بالعالم المسيحى قد أوجد الأرثوذكس فى وضع يشبه المسيحيين الذين خضعوا من قبل للفاتحين المسلمين الأول ، وذلك لأن معظمهم ، فى سوريا وبلاد مابين النهرين ومصر ، كانوا مهرطقين من أنواع عدة ـ نساطرة أو مونوفزيت ـ وبالتالى خارجين على الكنيسة الأرثوذكيسية ـ الكاثوليكية (١) التى كانت لاتزال متحدة ، بالضبط كما كان الأرثوذكس فى العصور التالية معادين للكاثوليك • ولهذا ففى كلتا الحالتين كان عدد كبير من المسيحيين الذين أصبحوا ذميين قد تحمسوا بشدة لوضعهم الجديد الذى مكنهم من تجنب سوء معامله أولئك الذين اعتبروهم مهرطقين • وحتى نهاية القرن الخامس عشر كانت حدود الفتوح العثمانية فى أوروبا تتمشى الى أقصى حد مع حدود المذهب الأرثوذكسى وكانت الطائفة الأرثوذكسية الكبيرة الوحيدة التى بقيت خارج نطاق سلطتهم هى الجماعة المسكوفية • ورغم أن قياصرة موسكو اعتبروا أنفسهم منذ البداية ورثة لبيزنطة (٢) ، فان امارة موسكو لم تكن ، فى أوائل عهد الامبراطورية ، من القوة بحيث تسترعى انتباه الأرثوذكس القاطنين داخل الدولة العثمانية •

وكان موقف العثمانيين الأول من غير المسلمين ، الذين حاربوهم هم وانتصروا عليهم ، يختلف عن الموقف الاسلامى المعروف • ولكنه كان من ناحية أخرى يشبه الى حد ما موقف المسلمين الأول ـ الذين فتحوا سوريا ـ من غير المسلمين وهو الموقف

---

(١) وفى مصر ، على سبيل المثال ، ساعد الأقباط المونوفزيت العرب بالفعل أثناء الفتح •

Encyc. of Islam, art «Kibt».

(٢) تزوج القيصر ايفان الثالث ابنة قسطنطين التاسع آخر الأباطرة •

الذى كان خيرا من موقف خلفائهم وأكثر تحررا • وكان الفاتحون العثمانيون يشبهون العرب فى تأثرهم بدوافع الطمع والأمل فى الاستحواذ على الأرض والغنائم بالاضافة الى الحماسة الدينية ، وكانت العقائد الدينية الأكثر انتشارا لديهم هى عقائد الطرق الصوفية الباطنية • وحينئذ كان التصوف أميل الى المساواة بين كل الأديان كما كانت الباطنية أميل الى ترويج مبادىء ذات لون شبيه بالمسيحية (١) • ولهذا فليس من عجب أن تجد أن العلاقات القائمة بين المسلمين والمسيحيين خلال القرون الأولى من الحكم العثمانى كانت أوثق منها فى عهد الأسر الحاكمة السابقة التى كانت تتمسك بالسنة (٢) ، أو فى عهد الأسر الحاكمة التى قيض لها أن تسير على هذا المنوال فيما بعد حين تحول السلاطين الى الاصولية السنية • ولهذا ففى المعارك التى خاضها العثمانيون الأول نجدهم يحظون بمساندة كثير من المسيحيين ، كما تزوج كثير من السلاطين الأول أميرات مسيحيات • وبالاضافة الى ذلك فقد تحول كثير من المسيحيين الى الاسلام أثناء غزو البلقان ـ ورغم أن ذلك قد لا يكون دليلا على حسن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، الا أنه حدث بالفعل لأنه يوضح أن الانتقال ـ اذا ما بنينا حكمنا على كثرة حدوثه ـ كان أقل ايلاما فى هذه الفترة مما أصبح عليه فيما بعد حين قضت السنية الاسلامية على أى حل وسط فيما يتعلق

(١) عن مبادىء البكتاشية انظر ما سبق •

(٢) عن الموقف المتناقض الذى اتخذه غزاة الأناضول (الذين قامت على أكتافهم الدولة العثمانية) ازاء السكان المسيحيين انظر :

P. Wittek, The Rise of the Ottoman Empire (London, 1938), pp. 28-29, p. 43.
«Les Souverains seljoukides et leurs sujets non-musulmans» in studia Islamica (Paris, 1953), pp. 65-100.

بالعقيدة • ويبدو لنا فى الواقع أنه لولا هذه العودة الى السنية أو التمسك بها لكان بامكان احترام أتباع الديانتين للأضرحة المشتركة (١) أن يفضى الى القضاء على الخلافات والى ظهور عقيدة مسيحية صوفية بامكانها التوفيق بين النقيضين •

ويبدو أن التحول الى الأصولية الاسلامية قد بدأ بعد اعادة السلطنةالى سابق وضعها فى عهد محمد الأول ، وكان ذلك ناتجا عن قمع تمرد باطنى (٢) ، خاصة وأن ازدياد سوء علاقات السلاطين بأنصارهم الأصليين (٣) قد تمخض عن نتائج منها ادخال نظام الدفشرمة • ولاشك أن هذا النظام الذى كان يقتضى جمع الأولاد المسيحيين للقيام بالخدمة فى قصور السلاطين وجيوشهم قد جعل الآباء الذميين الذين حرموا من أولادهم يمقتون سادتهم المسلمين • ورغم ذلك فقد كانت الدفشرمة توفر فى الواقع مجالا للوصول الى أعلى مناصب الدولة • ففى خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان يشغل كل هذه المناصب عبيد السلطان الذين تحولوا الى الاسلام وكان معظمهم قد جرى اقتناصهم عن طريق الدفشرمة ، وفى كثير من الأحيان كان كبار الضباط والموظفين هؤلاء يسخرون سلطتهم لمصلحة أقاربهم الذميين • ولهذا ففى خلال هذه الفترة كان من الميزات الفعلية التى يتمتع بها من يطمحون الى تولى أعلى الوظائف كونهم قد ولدوا ذميين صالحين للتجنيد ، ومن ثم أصبح من المعتاد أن نجد آباءً يسعون الى اختيار أبنائهم حتى ولو كانوا غير صالحين (٤) ، مما ترتب عليه أن أصبح السكان الذين ولدوا مسلمين مستائين من استبعادهم عن تولى شئون الدولة • وهكذا تلت الفترة الأولى التى كان فيها الابتعاد

---

(١) و (٢) و (٣) و (٤) • انظر ما سبق •

عن أصول الدين الاسلامى يسمح لمعتنقيه بالابقاء على علاقات حميمة مع المسيحيين فترة أخرى كان فيها نفوذ المسلمين والذميين فى الامبراطورية متوازنا بصورة مرضية ، وذلك نتيجة لتخصيص المناصب العليا فى هذه الدولة الاسلامية لأشخاص ولدوا ذميين (١) .

والى هنا نكون قد عرضنا للذميين ، على الأقل للذميين المسيحيين ، كما لو كانوا يشكلون طائفة واحدة . الا أن الأمر لم يكن كذلك : فما ذكرناه بالفعل عن الدفشرمة ، على سبيل المثال ، والدور الذى لعبه الذميون فى الدولة خلال أزهى عصورها ، لاينطبق الا على الطائفة الأرثوذكسية ، بل لاينطبق عليها كلها . الا أن الأغلبية العظمى من الذميين كانوا فى أوائل عهد الدولة ينتسبون اليها ، وكان موقف المسلمين والحكومة من الذميين الآخرين حتى وقت لاحق يتوقف الى حد كبير على موقفهم من الأرثوذكس .

ولايغرب عن بالنا أن العثمانيين استولوا على أهم الأراضى التى قامت عليها امبراطوريتهم على الوجه التالى تقريبا : الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، معظم شبه جزيرة البلقان ، ماتبقى من آسيا الصغرى ، القسطنطينية ، أواسط وجنوبى بلاد اليونان ، الشام ومصر والحجاز . وبمعنى آخر فعلى حين أن كل هذه الأراضى ، باستثناء الحجاز ، كانت مسيحية يوما ما ، فقد بدأ حكمهم فى قسم منها كان لايزال مسيحيا ثم امتد الى قسم كان فى أيدى المسلمين لفترة تقرب من ثلاثة قرون ، وفى النهاية ضموا الجزء الباقى الذى كان كله ، باستثناء فترة الحكم الصليبى ، فى أيدى المسلمين منذ القرن السابع وأخيرا فلأن بعض سكان

(١) ومن المؤكد أن هذا لا ينطبق على مناصب هيئة اهل العلم .

هذه الأراضى من المسيحيين ظلوا تحت السيطرة الاسلامية فترة أطول من تلك التى أمضاها غيرهم ولأن الكنيسة الأولى فى الشرق كانت عرضه لنمو حركات الانشقاق فيها ولأن المبشرين الأول كانوا أميل الى أن يمنحوا الكنائس المحلية طقوسا تختلف عن تلك التى أصبحت تعتبر أرثوذكسية ، فقد كان يمكن العثور فى الامبراطورية العثمانية فى الوقت الذى وصلت فيه الى أقصى اتساعها على كثير من مختلف الطوائف المسيحية • وكان موقف السلاطين من كل طائفه تحدده الظروف التى خضعت فيها لسيطرتهم • ولما كانت هذه السياسات لم يتم تطويرها بعد أن تحددت بحيث تؤدى الى التماثل فقد بدا فيها بعض التعارض • وحتى يتسنى لنا تتبع الأسباب الكامنة وراء ذلك نجد لزاما علينا أن نستعرض موقف الطوائف الذمية خلال ثلاث مراحل مختلفة • وفى البداية سوف نستعرضها خلال المرحلة التى كانت فيها الامبراطورية تضم بالفعل الروميللى والأناضول ، ثم خلال المرحلة التى أصبحت فيها تضم البلدان « الناطقة بالعربية » ، وأخيرا خلال مرحلة اضمحلالها •

على أننا قبل الخوض فى ذلك نفضل أن نتوقف لكى نؤكد أن الحكومة العثمانية كانت فى العادة تعامل الذميين على اختلاف أنواعهم باعتبارهم أعضاء فى طائفة لا باعتبارهم أفرادا • ويرتبط هذا ليس فقط بالتنظيم العام للمجتمع العثمانى الذى سبق أن رأينا أنه كان تعاونيا بالضرورة ، بل أيضا بطبيعة الشريعة التى رغم تنظيمها لعلاقات الذميين بكل من الأفراد المسلمين والدولة الاسلامية الا أنها باعتبارها قانونا مقدسا لكون التفرقة بين الذميين والمسلمين تقوم على أساس دينى ، لم تسع الى تحديد علاقات الذميين بعضهم بالبعض الآخر • فهم يقعون خارج نطاقها الذى يشمل المسلمين وحدهم الا اذا اتصل هؤلاء بغير المسلمين أو اذا

وافق الذميون حين يحتكمون الى القانــون على أن تطبق عليهـم نصوصها • لهذا كانت تنظم علاقات الذميين « الداخلية » ، حسب قوانين الأديان التى يتبعونها ، وهنا أيضا نجدها تعتبر معتنقى كل من هذه الأديان وكأنهم يشكلون طائفة يشرف عليها القائمون على تقاليدها الدينية • وكان الحاكم المسلم يرغم أفراد الذميين على التمشى مع القواعد التى سبق أن عرضنا لها ، ولكن فى مسائل أخرى كان الحاكم أميل الى التعامل مع كل طائفة ذمية ككل : وفى مثل هذه الحالات كان يمثل الطائفــة كبار رؤسائها الدينيين ــ البطاركة أو الحاخامات ، وكان هؤلاء الرؤساء بدورهم يحصلون على مساندة الحاكم فى فرض الانضــباط على أتباعهم • وملخص القول فان وضع الفرد الذمى كان يرتبط ارتباطا كليا بعضويته فى طائفة تتمتع بالحماية •

وكان يطلق على هذه الطائفة فى المصطلح العثمانى اســـم مللت (١) ، وكان الموظف المسئول أمام الدولة عن ادارتها يعرف باسم مللت ــ باشى • ورغم أن بعض التفصيلات الادارية (وربما أيضا المعنى الخاص للمصطلح) كانت من ابتكار العثمانيين فان النظام ذاته لم يكن كذلك ــ اذ كانت جذوره مستقاة من الممارسات العامة التى طبقتها الامبراطورية الرومانية وامبراطوريات العصور

---

(١) ويبدو أن كلمة ملة العربية مستقاة من الكلمة السريانية ملتات ، وقد أشار اليها القرآن بمعنى دين (وبخاصة فى فقرة « ملة ابراهيم » ، وقد احتفظت بنفس المعنى فى السياق العربى فيما بعد • ولكن لما كان المصطلح المجرد « دين » لا ينفصل على الاطلاق بصورة واضحة عن مجموع معتنقيه فانه يعنى كذلك « طائفة دينية » ــ وفى المصطلح الاسلامى الوسيط ينطبق بوجه خاص على ديانة المسلمين وجماعتهم تمييزا لهم عن أهل الذمة (انظر دائرة المعارف الاسلامية) • ولهذا كله يبدو لنـا أن المعنى الذى أضفاه العثمانيون كان جديدا • واستعمال الأتراك لكلمة « مللت » فى الوقت الحاضر بمعنى « أمة » لم يحدث الا فى القرن التاسع عشر لا قبل ذلك » •

الوسطى التى درجت على السماح للطوائف الخاضعة لحكمها بأن تحافظ على قوانينها الخاصة وأن تطبقها تحت الاشراف العام لسلطة معترف بها مسئولة أمام السلطة الحاكمة ٠ وكان جاثليق الكنيسة النسطورية فى عهد الملوك الساسانيين الذين حكموا فارس قبل الاسلام يكلف رسميا بأن يشرف على كل مسيحيى الامبراطورية (١) . ونحن نستدل على احتفاظ خلفائه بنفس الصلاحيات القانونية فى عهد الخلفاء بعدد كبير من الأدلة الثانوية والوثيقة التى وصلت الى أيدينا وكانت تتعلق بتعيين جاثليق نسطورى فى عام ١١٣٨ (٢) وبوجود عدد كبير من كتب القانون الخاصة بمختلف الطوائف المسيحية (٣) ٠ وكان يشرف على الطائفة اليهودية (أو الطوائف اليهودية على اعتبار أن الربانيين كانوا يختلفون عن القرائين) كبار الحاخامات فى بغداد ثم بعد ذلك

---

(١) انظر ملحوظات W. A. Wigram ـ عن مجمع اسحاق الذى تم الاتفاق على كونه قد انعقد فى عام ٤١٠ م فى كتابه التالى :

An Introduction to the History of the Nestorian Church (London, 1910), pp. 95-6.

(٢) درسها H. F. Amedroz فى J.R.A.S. ، ١٩٠٨ ص ٤٤٩ ـ ٥٢ (النص فى ص ٤٦٧ ـ ٧٠) ٠ انظر أيضا

Tritton J.R.A.S. op. cit., pp. 86-88.

وتشير اليه الوثيقة المذكورة باعتباره جاثليق المسيحيين النساطرة فى بغداد واراضى الاسلام الأخرى ورئيسهم هم وغيرهم من اليونانيين واليعاقبة والملكانيين فى كل البلاد ، كما تشير الى مهمته باعتبارها « ادارة شئونهم ورسم سياستهم واقامة العدالة بين القوى والضعيف » ٠

(٣) انظر : C. A. Nallino, Raccolta di Scritti and c., IV, Rome, 1942. pp. 546-80.

أيضا : Graf. Gesch d. christlichen arabischen literature, vol II (Vatican City;1947).

فى القاهرة (٢) • وفى الدولة البيزنطية ذاتهـــا كان للأرمن فى القسـطنطينية تنظيم مماثل (٥) وكذلك الحال بالنســبة الى اليهود (٣) •

ولهذا فرغم أن اتجاهات الشريعة الخاصــة بالجماعات غير الاســلامية كانت متأثرة فى تفاصيلهما باتجاهات المسلمين فمن الممكن اعتبارها فى الواقع وكأنها تسترجع بوجه عام مبدأ مقررا • ونظرا لألوان الخلط الكثيرة المرتبطة بالموضـــوع ، نجد من المهم أن نميز بين الوضع القانونى للذميين (أى الطوائف غير الاسلامية الخاضعة للحكم الاسلامى) وبين اســـتقلالهم الذاتى وما جرت به العادة فيما بعد حين منحت حقوق امتيازات لجماعات من التجــار الأجانب الذين لم يكونوا رعايا للحاكم المسلم • وهؤلاء الأخيرون الذين أطلقت عليهم الشريعة صفة المستأمنين (بمعنى الأشخاص الذين منحوا الأمان) كانوا خلال العهود الاسلامية الأولى يعاملون بوجه عام معاملة الذميين • ومنذ القرن الثانى عشر ، جرى تنظيم طوائف التجار من الناحيتين المدنيـــة والقانونيـة تحت اشراف القناصل الذين يتبعون حكوماتهم ، مع مزايا خاصة تتصل بفرض الضرائب ونسب الرسوم الجمركة وفقا لشروط اتفاقيات يجرى التفاوض بشأنها مع كل حكومة من حكوماتهم ، وهكذا دخلت مثل

---

(١) ترتون ، ص ٩٦ ـ ٩٧ ، أيضا

R.J.H. Gottheil,, Dhimmis and Moslems in Egypt, in Old Testament and Semitic Studies in memory of Willim R. Harper Vol. I (Chicago, 1908).

عن المحاكم اليهودية فى الامبراطورية الساسانية انظر ـ

Funk, Die Juden in Babylonien, Vol. I (Berlin, 1902).

(٢) Runciman, Byzantine Civilization (London, 1933) 93, 289.

(٣) انظر ما يلى :

هذه الاتفاقيات بوجه عام فى نطاق القانون أكثر منهـا فى نطاق الشريعة وتجاهلت بالفعل وجهات نظر المدارس القانونية فى عدد من النقاط أهمها الامتياز الخاص بالنظر فى الحالات التى يكون فيها المسلم شاكيا أمام المحاكم القنصلية • ومن الواضح أن أصل هذه الاتفاقيات يرجع الى اطراد العلاقات التجـارية مع المدن ـ الدول الايطالية ، وكانت هذه الاتفاقيات التى تم التوصـل اليها مع حكام مسلمين قد سبقتها بدورها اتفاقيات مشابهة مع الأباطرة البيزنطيين والدول الصليبيـة وهى الاتفاقيـات التى قلدوها الى حد كبير (١) •

ومن هنـا يـكون بامكاننـا أن نفترض أن سـلاطين آل عثمان ـ حتى لو لم يتوفر لدينا الدليـل المباشر ـ لم يطبقوا نظام الملل فى امبراطوريتهم الا بعد فتح القسطنطينية ، وأنهـم كانوا يطبقون مبادئه بالفعل على الجماعات الاسلامية الخاضـعة لحكمهم • على أن أدلة كافية وان تكن متناثرة قد وصلتنا من الفترة الأولى لتجعل هذه الحقيقة مؤكدة سواء بالنسبة الى الأرثوذكس(٢) أم بالنسبة الى اليهود (٣) •

وكان العثمانيون الأول يرون أن شـبه جزيرة البلقـان والأناضول تضمان ثلاثة أنواع من الذميين : الأرثوذكس والأرمن

---

(١) عن مناقشة التطور القانونى لوضع الأجانب فى القانون والممارسة الاسلاميين انظر :
W. Heffening, Das islamische Fremedenrecht (Hanover, 1925)
M. Khadduri, War and Peace in the law of Islam (Baltimore Md., 1955).

(٢) انظر قائمة المراجع التى اشار اليها Brehier فى
Camb. Med. Hist., IV; 625.

(٣) Y. Young, Corps de Droit Ottoman, II, 123.

واليهود . فهم قد ميزوا بين الأرثوذكس والأرمن تمييزا صحيحا ، بحكم أن كنيسة الأرمن كانت منذ وقت بعيد جدا تقوم على أساس مستقل . فقد أخذت بمذهب الطبيعة الواحدة للمسيح (مونوفزيت) ومن ثم فانها كانت شديدة الهرطقة ، فى نظر الأرثوذكس ـ وفي الواقع لقد تشكلت القرارات الدينية التى توصلت اليها الكنيسة الأرمنية من وقت الى آخر على أساس كره الأرثوذكس الى حد كبير . لهذا يستحسن أن نبحث الآن موقف العثمانيين من هذه الجماعات الثلاث وأسلوب تعاملهم معها .

ونبـدأ بالأرثوذكس . فقد كانت معظـم هذه الأراضى فى بداية الأمر تخضع لاشراف بطريركية القسطنطينية (١) . ولكن منذ تأسيسها كان الجزء الأكبر من شبه جزيرة البلقان قد تحول من الناحية الاثنوجرافيـــة بفعـل الغزوات المتتالية التى شنها السلاف والبلغار الذين لم يعتنق أى فرد منهم الدين المسيحى حتى القرن التاسع الميلادى ـ وباستثناء اليونان بما فيها تراقيا كانت المنطقة الوحيدة فى شبه الجزيرة التى حافظ سكانها الأصليون على قدر من نقائهم هى ألبانيا ، ورغم أن مناطقها الجنوبية كانت فى تلك الأثناء قد خضعت لسيطرة أباطرة بيزنطة ، فقد خضعت المناطق الشمالية لزعماء الجنس الصربى الذى كان قد استقر فى القرن السادس فى الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة (٢) وحينئذ كانت سيطرة أمراء صربيين آخرين قد امتـدت صـــوب الجنوب الشرقى مع اعترافهم بالسيادة البيزنطية ، وخلال فترة التحول الى المسيحية كان البلغاريون أشد هذه الشعوب بأســا ،

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : art. Orthodox Eastern Church.

(٢) نفس المرجع . arts. Albania and Servia

وحينئذ كانوا قد انطبعوا بالطابع السلافى بحيث فقدوا لغتهم الأصلية · ثم اطردت قوة الامبراطورية البلغارية واتسعت مساحتها بحيث امتدت فى أواخر القرن التاسع من نهر الدانوب الى تراقيا ومن البحر الأسود الى بحر الأدرياتيك · ولهذا فحين اعتنق القيصر بوريس المسيحية فى عام ٨٦٤ كان بامكانه أن يصر على وجوب وجود رئيس واحد للكنيسة البلغارية مما أدى فيما بعد الى شغل رئيسها لرتبة البطريرك · وبالاضافة الى ذلك فان تحول البلغاريين والصربيين الى المسيحية قد تم على أيدى تلامذة القديسين سيريل (كورولوس) ومثوديوس اللذين زودا كنائسهما بطقوس دينية تستعمل اللهجة السلافية التى كان يجرى التحدث بها فى مقدونيا (١) · ورغم ما حدث فى أوائل القرن الحادى عشر حين عاد الحكم البيزنطى من جديد الى كل شبه الجزيرة ، باستثناء شمالى ألبانيا ، فقد سمح ببقاء البطريركية البلغارية وهذه الطقوس الدينية المتميزة · وفى تلك الأثناء كان مقر البطريركية قد انتقل مرات عدة وفقا للضرورات السياسية ، وان يكن قد استقر فى النهاية فى أوخريدا الواقعة فى غربى مقدونيا (٢) · ولكن حدث فى أواخر القرن الثانى عشر أن ظهرت امبراطورية بلغارية ثانية عاصمتها تورنوفو فى الشرق ، مما أدى

---

(١) نفس المرجع · **art. Roman Empire, Later** ومما تجدر ملاحظته أن البلغاريين أخذوا بالأرثوذكسية بدلا من الكاثوليكية لأسباب أغلبها سياسى ، وأن البابا اعترف أثناء المصالحة التى جرت بين القرنين التاسع والعاشر بامبراطور البلغار وبطريركهم :

Steen de Jehay, De la situation legale des sujets ottomans non-Musulmans (Brussels, 1906), p. 148.

(٢) وكانت تقع فى ولاية موناستر ·

الى قيام بطريركية منافسة ومستقرة قاعدتها هذه المدينة (١) ·
وأخيرا شهدت أوائل القرن الرابع عشر الازدهار المفاجيء قصير
الذى لامبراطورية صربية أسس ملكها ستيفن دوشان بطريركية
جديدة في ايبك (٢) · وهكذا ففى الوقت الذى تم فيه
الفتح العثماني كان الفرع السلافى من الكنيسة الأرثوذكسية
الداخل في حوزة السلطان يضم مالايقل عن ثلاث بطريركيات
منفصلة في كل من أوخريدا وتورنوفو وايبك ·

وحينئذ كانت هذه الكنائس ، برغم أن لغة طقوسها الدينية
كانت سلافية ، تفصلها عن الأرثوذكسية اليونانية خلافات لاترتبط
بالعقيدة ، بل بحركات عرقية وأسرية ، وبالتالي فانها وفرت بؤرا
للشعور القومي · ولهذه الأسباب فحين أصبح محمد الفاتح في
نهاية الأمر في مركز يمكنه من بحث سياسته الخاصة بالكنيسة
الأرثوذكسية ككل ، وضع كل أتباعها دون استثناء تحت رئاسة
البطريرك الأكبر · وقد ألغيت بطريركية تورنوفو بالفعل ـ ورغم
أن بطريركيتي أوخريدا وايبك قد استبقيتا هما واللغة السلافية
لغة الطقوس الدينية ، فانهما أخضعتا للقسطنطينية (٣) ·

---

(١) الا أن أوخريدا كانت خارج حدود الامبراطورية الثانية ·
Steen, 150; Encyc. Brit.
arts. Bulgaria and Ochrida.

(٢) الواقعة فى صنجق نوفى بازار الشهير (يعنى بازار فى التركية) ·
دائرة المعارف البريطانية arts. Ipek and Servia وقد نصب أول بطريرك في عام
١٣٥١ · ولكن لم يحدث حتى عام ١٣٧٦ أن اعترف البطريرك المسكوني بالكنيسة
باعتبارها ذات رئيس خاص بها : ستين ، ص ١٧٥ · وكانت كنيسة الجبل
الأسود تابعة لهذه البطريركية · نفس المرجع ، ص ١٨٠ ·

(٣) دائرة المعارف البريطانية art. Bulgaria راجع ستين ، ١٣٦ ·

وقد جرى هذا التوحيد فى أعقاب الاستيلاء على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ حين أصبح ذلك ممكنــا للمرة الأولى • فرغم أن السلاطين كانوا طيلة فترة طويلة يحكمون رعايا أرثوذكس يزيد عددهم عمن كانوا يخضعون لحكم الأباطرة ، فقد اضطروا حتى ذلك الوقت الى السيطرة عليهم عن طريق قسسهم المحليين (١) • أما بعد ذلك فلما كان البطريرك خاضعا لمحمد الفاتح ويأتمر بأمره ، فقد نظم السلطان الكنيســة باعتبـارها مللت يخضع لسلطـة البطريرك وخلع عليها اسم « روم مللتى » أى الطائفة الرومانية (وكلمة روم فى المصطلح الاسلامى تطلق على الدولة الرومانيــة الشرقية أو البيزنطية) وأصــبح تنصيب البطريرك يجــرى بالاحتفالات التقليدية الكثيرة التى كانت تقــام حين لايكون ثمة امبراطور ، وخلعت عليه رتبة « باشا » التشريفيـة ذات الثلاث أطواغ آ٢) وسمح له بأن تكون له محكمة خاصة وسجن خاص فى حى الفنار وكان يتمتع بسلطة مدنية على ذميى كنيسته وبمسئولية

---

(١) Camb. Med. Hist. IV, 625.

(٢) F. Giese, Die Geschichtlichen Grundlagen der christlichen untertanen in osmanischen Reich, in Der Islam, XIX, 1. 274.

عن الأطواغ انظر ما سبق •

مطلقة عنهم (١) . وحتى فيما يتعلق بالضرائب فرغم أن المبلغ الذى كان على المللت كله أن يدفعه كان يحدده موظفو الباب العالى بالتعاون مع السلطات الدينية المحلية ، فان توزيعه على الطوائف

---

(١) لم يصل الى أيدينا سجل وثائقى عن منح هذه السلطات والمزايا بصفة رسمية للبطريرك الجديد جناديوس الذى نصبه السلطان بعد شهور قليلة من الفتح . ــا برغم أن الحادثة نفسها ، نظرا لما سبق ذكره ، لا ينطرق اليها كثير من الشك . وقد قام الدكتور كارلنون ، فى رسالته التى سبقت الاشارة اليها ، بتحقيق جديد للدليل المعاصر الذى أورده مؤرخان يونانيان هما جورج فرانتزس (المتوفى فى عام ١٤٧٧) وماركوس كريتوبولوس ومؤرخ تركى هو عاشق باشازاده ـ المتوفى فى عام ١٤٩٩ ـ وعلى ضوء هذه الدراسة نجد أن السياق الذى يورده فون هـامر (Ges. d.Osmanishen Reich i, 426-8) تفاصيله ، كما نجدمضطرب فى أن الترجمة المزعومة لنفس الكتاب التى قام بها Hellert مليئة بالاضافات (Hist de l'Emp. ott, 2 ed., i ii. 3-5.
مليئة بالاضافات الخاطئة التى لا تستند الى أساس وهى التى أخذ بها ليس فقط معظم المؤرخين الأوروبيين والأتراك المتأخرين ، بل أيضا تعرضت بمرور الوقت لمزيد من الاضافات . انظر أيضا . Giese, Der Islam XIX, 246-77.

ويبدو من المشكوك فيه ما اذا كانت أى وثيقة يمكن أن يكون قد حصل عليها جناديوس من محمد الثانى كان يمكنها ، بأى حال ، أن تتضمن ميثاق حريات أو مزايا وذلك لعدم وجود عمل يقوم به محمد الفاتح بامكانه أن يلزم خلفاءه فيما يتعلق بعلاقتهم بالبطاركة . وفى الواقع يوجد دليل ما على أن مسألة ما اذا كانت القسطنطينية قد « سلمت بمحض ارادتها » ـ وهذا وحده طبقا للقانون الاسلامى كان يمكن أن يبرر منح حقوق ذمة لسكانها الأرثوكس ـ قد أحيلت فى عهد سليم الأول وسليمان القانونى الى السلطات القانونية وصدق عليها اثنان من اختيارية الانكشارية الذين نجوا من الحصار .

انظر جيسى ص ٢٧٣ ـ ٦ (يذكر
Crusius, Turcograeciae (Base, 1584) .
وفتوى أصدرها شيخ الاسلام أبو السعود أفندى) . وسنلاحظ أن من المسلم به أن اليهود وطوائف معينة أخرى كانوا قد شكلوا مللا لعدة قرون قبل أن يعترف بذلك رسميا .

والأفراد تـرك للبطريرك الذى كان يشرف على تحصـيله وكان مسئولا عن دفعه (١) ٠

على أن مواطنى غلطة ، باعتبارهم جنويين ، منحوا مرسوما منفصلا ضمن لهم أمن أملاكهم وحرية التجارة والتنقل بشرط أن يدفعوا خراجا (٢) وأكد المرسـوم ذاته تمتعهم بحقوق امتيـاز ، طبقا للنظام القائم (٣) ٠

ويكفى هذا القدر فيما يتعلق بالأرثوذكس خـلال فترتنـا الأولى ٠ وبصورة تكاد تكون مشابهة تم الاعتراف بتشكيل اليهود لملت آخر (٤) ٠ وقد سمح لهم الفاتح بأن يقطنوا استنبول وتصب حاخام باشى أو كبير الحاخامات (٥) رئيسا لكل أبناء ملته المقيمين فى الامبراطورية وخلعت عليه صلاحيـات تشبه تلك التى كان يتمتع بها البطريرك ٠ ومنح الحاخام باشى بالفعل أسـبقية على

---

(١) سنتين ، ٨٤ ــ ٩٠ ، ٩٤ ٠

(٢) ضريبة رأس ــ انظر ما سبق ٠

(٣) **T.O.E.M.** جـ ٥ ، ص ٥٢ ــ ٣ والوثيقة تحمل التاريخ التالى ، فى نهاية الشهر الخامس من عام ٨٥٧ أى فى بداية يونية ١٤٥٣ ، ومن ثم فمن المحتمل أنها سابقة على تعيين جناديوس بطريركا عن طائفة **(Comunita)**بيرا ٠ انظر أيضا : **Young, Corps de Droit Ottoman, ii, 123-5.**

(٤) دائرة المعارف الاسلامية **arts. Turks, Nasara** ويعطى سنين (ص ٩٢) الانطباع بأن الذميين جميعـا كانوا حتى عام ١٤٦١ يخضـعون للبطريرك الأعظم ، ولم يحدث حتى عام ١٨٣٩ أن جرى الاعتراف الرسمى بتشـكيل اليهود لملت (يونج ، جـ ٢ ، ص ٤٣) ٠

(٥) دائرة المعارف اليهودية : **art. Turkey** وكان المدعو موسى كبسالى هو أول من شغل هذه الوظيفة ، ولكننا لا نقطع بما اذا كان هذا التعيين قد تم قبل عام ١٤٦١ ٠

البطريرك وكان يلي كبير العلماء (١) ، كما تحسن وضع اليهود من جميع النواحي • وكانوا في العهد البيزنطي يعاملون من الناحية النظرية نفس معاملة العثمانيين للذميين : فقد نص جستنيان على وجوب حسم المنازعات التي تنشب بين أبناء دينهم في محاكمهم هم ، وحرم عليهم أن يشهدوا ضد المسيحيين أو يشغلوا مناصب عامة أو يحظوا علنا بأي نوع من التشريف (٢) • وهكذا كانوا يعتبرون من المنبوذين في المجتمع البيزنطي الذي شكلت فيه طائفتهم قطاعا صغيرا • ومن ناحية أخرى نجد أن الطوائف الذمية في المجتمع الاسلامي (قبل الاستيلاء على المناطق التي يتحدث أهلها اللغة العربية) كانت تفوق المسلمين عددا ، وبالتالي فبالرغم من القيود المفروضة عليهم فقد توفرت لهم الحماية من الكره الذي تتعرض له أقلية صغيرة من المنشقين • وبالاضافة الى ذلك فقد حصل اليهود بالفعل على عطف السلاطين السابقين ـ فقد استهل مراد الثاني العادة الخاصة بتعيين أحدهم طبيبا خاصا له ومنح آخرين مناصب هامة في البلاط (٣) ، كما لم يصر على أن يرتدوا ملابس مميزة بل سمح لهم بأن يمارسوا حياتهم الخاصة كما يريدون (٤) • ثم حين طبقت المعايير السنية بعد ذلك على كل نواحي الحياة العثمانية أرغم اليهود ، شأنهم في ذلك شأن

---

(١) نفس المرجع ـ أيضا يونج جـ ٢ ، ص ١٤١ وما بعدها وكتاب فرانكو Franco التالي :

Essai sur l'histoire des Israelites de l'Empire Ottoman (Paris, 1897) 32.

(٢) دائرة المعارف البريطانيه **art. «Jews»**

(٣) فرانكو ص ٣٠ •

(٤) دائرة المعارف اليهودية **art. Turkey**

المسيحيين ، على مجاراة القوانين الخاصة بتعديل النفقات وأصبحوا يتمتعون بوضع أقل امتيازا • على أنه حين تمت الفتــوح كانت الظروف التي يعيشون في ظلها في الامبراطورية العثمانية تختلف اختلافا كبيرا عن الظروف التي فرضت عليهم في مختلف أرجــاء العالم المسيحي بحيث شهد القرن الخامس عشر تدفق اليهـــود بأعداد كبيرة على أملاك السلطان (١) • فخــلال النصف الأول من هذا القرن تعرض اليهود لألوان من الاضطهاد في بوهيميا والنمسا وبولنده ، ولو أن الاجراءات التي اتخذت ضدهم في اســبانيا وتمخضت عن طردهم في عام ١٤٩٢ هي التي أدت الى ازدياد هذه الهجرة (٢) • ولما كانت اســـبانيا طيلة قرون عدة أكثر مراكز الحياة اليهودية تقدما ، فان المهاجرين الذين قصدوا الامبراطورية العثمانية جلبوا اليها تقاليد ثقافية قيمة • ولقد قوبلوا بحماســة شديدة لأن طردهم حدث في الوقت الذى سقطت فيه امارة غرناطة الاسلامية بحيث ارتبط الحدثان ارتبــــاطا كبيرا مما أدى الى اصطحابهم عددا كبيرا من « اللاجئين » المسلمين ــ بل يصرح مراقب بندقي عاش في القــرن السادس عشر بأن هؤلاء اليهود ومواطنيهم المسلمين ، علموا ، ويعلمون ، الأتــراك كل الفنــون المفيدة وأن القدر الأكبر من الحوانيت والحرف في أيديهـــم وهم يقومون بالعمــل فيها » (٣) • ورغم أن هذا القول يتضمن مبالغة

---

(١) فرانكو ص ٣٤ انظر :

Gallanté, Turcs et Juifs (Istanbul, 1932, p. 24).

وهو يشير الى خطاب أرسله حاخامان ألمانيان ، كانا يسعيان الى الهجرة الى الامبراطورية العثمانية ، الى مواطنيهم في أوائل القرن الخامس عشر يشيدان فيه بجمال هذه الامبراطورية ومزاياها •

(٢) فرانكو ص ٣٥ وما بعدها •

(٣) ليباير ، ص ٢٤١ ــ يأخذ عن

Ramberti, The Affairs of the Turks.

لايقبلها العقل فمما لا شك فيه أن هؤلاء المهاجرين قد أسـهموا بشكل ملحوظ فى الازدهار قصير الأمد الذى أصابتـه الحضـارة العثمانية فى عهد سليم الأول وسليمان القانونى · ولاشـك أن الثقافة الاسلامية تحتوى على عناصر تدعو الى التعاطف مع الطبيعة اليهودية · وعلى أى حال فمن الحقائق المقـررة أنه رغم حصول اليهود على وضع الذميين المتدنى منذ ظهور الخلافة وحتى الغاء أحياء اليهود فى أوروبا كانت أكثر مراكز اليهود ازدهـارا توجـد فى البلدان الاسـلامية : فى العراق فى ابـان العصر العباسى وفى اسبانيا خلال الحـكم الاسـلامى ثم بعـد ذلك فى الامبراطورية العثمانية (١) ·

ومالبثت أن ظهرت أربعة أقسام رئيسـية من اليهود فى الامبراطورية العثمانية كما كانت عليه فى ذلك الوقت · فالطوائف « الأصلية » ـ أى تلك التى استقرت فى هذه البلدان قبل هجرات القرن الخامس عشر ـ كانت تنقسم من الناحية العقائدية الى ربانيين، وهم أولئـك الذين يقدسـون التلمـود ، والقرائين (٢) الذين لم يحترموه · وكان انفصال القرائين قد بدأ فى بلاد مابين النهرين فى أوائل العصر العبـاسى حين اصـطدم رئيس علمـانى منتخب للطائفة اليهودية (٣) برؤسـاء المدارس اللاهونيـة ، (جيونيم) وبعد ان سجن هاجر لكى يؤسس كنيسا فى فلسطين · ومن الجدير بالملاحظة مايقـال من أن عقائد القرائين قد تأثرت

(١) راجع :

S. W. Baron, The Turkish Community (Philadelphia, 1945), I. p. 157.

(٢) اسم مشتق من نفس الأصل السامى بمعنى « يقرأ » ومنه كلمة قرآن ·

(٣) وهو الاسم الذى خلع على رئيس الطائفة فى بلاد ما بين النهرين ·

بتعاليم أبى حنيفة النعمان ، الفقيه والمشرع الاسلامى الذى أخذت الامبراطورية العثمانية بمذهبه رسميا والذى كان معاصرا لمؤسس مذهب القرائين وزميلا له فى السن • وعلى أى حال فما لبثت أن انتشرت عقيدة القرائين فى أجزاء مختلفة من آسيا وجنوب شرقى أوروبا ، وان يبـــدو أن أعداد معتنقيها لم تقـــارب قط أعداد الربانيين (١) ، وعلينـــا أن نلحق كثيرا من المهاجرين من أوروبا بالربانيين • ولكن المهاجرين من ألمانيـــا شكلوا طبقة متميزة هم الاشكنازيم ، قسمنا الثالث • أما القسم الرابع فقد ضم المهاجرين من أسبانيا والبرتغال الذين عرفوا باسم السفارديم •

وسرعان ما وصلت العالم اليهودى الأنباء القائلة بأن اليهود يلقون ترحيبا فى الامبراطورية العثمانية • وبالاضافة الى البلدان التى أشرنا اليها ، فقد بدأ المهاجرون يصلون من المجـــر وملدافيا (التى لم تكن قد خضعت بعد للحكم العثمانى) والقرم وأجزاء من آسيا يستوى فى ذلك الربانيون والقراءون • ولم تكن العلاقات بين الطرفين ودية باستمرار ــ فبالاضـــافة الى الخلاف بين الربانيين والقرائين نشب خلاف آخر فى عام ١٤٦٠ بين القرائين ذاتهـــم • يضاف الى هذا أنه حين بدأت أعداد السفارديم تزداد داخل المللت ، مالوا الى الانعزال عن أبنـــاء دينهم وأنشئوا هيآتهم الخاصة ذات الطقوس الدينية المتميزة (٢) ولكن لم تضمهم طائفـــة متماسكة ، بل انقسموا الى هيئات صغيرة تحافظ كل منها على عادات وقيم

---

(١) دائرة المعارف البريطانيه

art. Qaraites

Gratez, History of the Jews (Eng. translation, London, 1892) IV pp. 291 ff.

أيضا : Franco, 33-34; Barcon, I, p. 178.

(٢) جراتز ، ج ٤ ، ص ٤١٥ وما بعدها ــ راجع فرانكو ، ص ٢٨ •

المكان الذى هاجر منه أفرادها فى الأصـل (١) مما أدي الى كثرة الخلافات الداخلية بين اليهود وان لم تصل الى حد زعزعة وحدة الملك الذى ظل الحاخام باشية يشرفون عليه · يضاف الى ذلك أن الحاخام باشية كان ينتخبهم اليهود أنفسهم قبـل أن يثبتهم الباب العالى فى مناصبهم (٢) ·

وقد حدث طرد اليهود من أسـبانيا فى عهد بايزيد الثانى الذى خلف محمد الفاتح ، وكان بايزيد يتعاطف معهم تعاطفا خاصا وأصـدر مرسوما يدعو الى حسن معاملتهم فى أملاكه (٣) · ومن المؤكد مايبدو من أن المسلمين فضـلوا الذميين اليهود على الذميين المسيحيين فى ذلك الوقت لأن هؤلاء الأخيرين كانوا لايزالون موضعا للشك على اعتبار أنهم يتعاطفون مع الدول المسيحية بشكل غير عادي (٤) · وكان بعض المهاجرين من أسبانيا والبرتغال يضمون للمارانوس Marranos (٥) أى اليهود الذين جاهروا باعتناقهم للدين المسيحى بسبب المزايا التى كان يوفرها التحول عن دينهم أو بهدف النجاة من الاضطهاد · ولكن يبدو أن هؤلاء كانوا عادة يضعون حدا لتخفيهم حين كانوا يجدون ملجـأ فى الامبراطورية ، ومن ثم انخراطهم فى هيئة السفارديم · وكان من أهم المراكز التى

---

(١) جراتز ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ ــ فرانكو ، ص ٤٠ ·

(٢) حل الياس مزراحى محل كبســـالى بعد وفاته · جراتز ، ج ٤ ، ص ٤٣٠ ــ ٣١ ، فرانكو ، ص ٤٥ ، دائرة المعارف اليهودية art. Turkey

(٣) جراتز ، ج ٤ ، ص ٣٩٠ ·

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٢٨ ·

(٥) فى الأصل maranos (المترجم) ·

استقر فيها السفارديم هى استنبول وأدرنة ونيكوبوليس فى الولايات الأوروبية ، وبورصة وأماسيا وتوكات فى الولايات الآسيوية . ومالبثت استنبول فى الواقع أن ضمت أكبر جماعة يهودية فى أوروبا بأسرها ، كما أصبحت سالونيك مدينة يغلب عليها العنصر اليهودى (١) . وكان تدفق السفارديم من القوة بحيث كانت أعدادهم تفوق كل الهيئات الدينية الأخرى فى كل المدن الكبرى بالامبراطورية وبذلك تزعموا المللت بأسره . وقد سبق أن أوضحنا أن الذميين ، من يهود ومسيحيين على السواء ، أصبحوا خلال هذه الفترة المبكرة أعضاء فى طوائف الحرف الصناعية والتجارية جنبا الى جنب مع المسلمين ـ وقد اشتهر المارانوس بوجه خاص بكونهم صانعى أسلحة الحرب (٢) ، فى حين اشتد انخراط آخرين فى التجارة البرية والبحرية . كما ازداد الطلب على السفارديم المتخرجين من مدرسة الطب فى سلمنكا وكان قدر كبير من المزايا التى تمتعوا بها حتى عام ١٧٠٠ ناتجا عن نفوذ أطباء البلاط (٣) . كما كان من المعتاد جدا أن يشغل اليهود وظائف المترجمين نتيجة لارتباطهم بأوروبا ومعرفتهم بها (٤) .

والآن ننتقل الى الطائفة الثالثة : الأرمن الذين لم يجر

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٣٠ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ـ فرانكو ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) فرانكو ، ص ٣٩ .

(٣) Young, Corps de droit ottoman, II, p. 142.

راجع فرانكو ، ص ٤٦ والبحث التالى :

Bernard Lewis, The Pivilege granted by Meh. II to his physician, B. SOAS, XIV, 550 seqq.

(٤) جراتز ، ج ٤ ، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ، فرانكو ، نفس المرجع السابق .

الاعتراف بهم باعتبارهم مللت الا فى عام ١٤٧١ (١) • وقد توجه الباب العالى فيما يتعلق بهم بمشكلة لم تبرز بصدد مللت الأرثوذكس أو مللت اليهود • فعلى حين أن البطريرك كان أهم الشخصيات الدينية فى الكنيسة الأرثوذكسية (٢) وأن اليهود لم يكن لهم زعيم روحى يلقى اعترافا من الجميع باعتباره رئيسا أعلى ، فان رئيس الكنيسة الأرمنية ، جاثليقها ، لم يكن يقيم داخل حدود الامبراطورية العثمانية • وكان وضع الأرمن فى الواقع شبيها بوضع الأرثوذكس قبل الاستيلاء على القسطنطينية •

وقد سبق أن رأينا أن الكنيسة الأرمنية كانت تأخذ بمذهب الطبيعة الواحدة (المذهب المونوفيزى) وبالتالى كان الأرثوذكس يعتبرونها مهرطقة (٣) • وكان يشار اليها بوجه عام باعتبارها جريجورية (تمييزا لأتباعها عن مواطنيهم الذين كانوا يرتبطون بكنيسة روما) ، نسبة الى منظمها الشهير الذى ظهر فى القرن الثالث : جريلورى المستنير Illuminator (٤) • وكانت الكنيسة الأرمنية تحظى فى السابق بنفوذ ضخم ليس فقط فى أرمينيا ذاتها ، بل أيضا فى شتى ربوع المنطقة الواقعة مباشرة الى الجنوب

---

(١) ليبابر . ص ٣٤ (هامش) — جورج يونج ، ج ٢ ، ص ٧٣ وما بعدها •

(٢) رغم أنه لم يكن رئيسها الأعلى — راجع ما يلى •

(٣) رغم أن سلطات كل من هذه الكنيسة والكنيسة اليعقوبية أنكرت كون عقائدها مونوفزية وبالتالى مهرطقة وذهبت الى أن ايضاحها لطبيعة المسيح انما يستند الى أن الطبيعتين غير الشخصيتين للمسيح قد اتحدتا من جديد فى طبيعة واحدة هى الطبيعة الالهية — ستين ، ص ٣٢ ، و ص ٤٥ •

(٤) على أنه لم يحدث حتى صلح تركمانشاهى (١٨٢٨) أن اطلق اسم جريجورى Gregorian الذى كانت تستعمله الحكومة الروسية • ستين ، ص ٤٦ •

من سلسلة جبال القوقاز ، وكانت كنيستا جورجيا وأران تدينان لها بوجودهما وتتبعانها • ولكن تحولت الأولى الى الأرثوذكسية فى القرن السادس فى حين انهارت الثانية ابان الغزو السلجوقى خلال القرن الحادى عشر • وبالاضـــافة الى ذلك فقد حـدث فى فترة سابقة من نفس القرن أن دخلت مملكة أرمينيا ـ التى ظلت مستقلة حتى ذلك الوقت ـ فى نطاق الامبراطورية البيزنطية ورضى أمراء معينون من أسرة بقراط بأراض فى كبادوكيا وكيليكيا فى مقابل أراضيهم الأصلية التى دخلت تحت سيطرة القسطنطينية المباشرة وذلك رغبة منهم فى تعزيز حدود الامبراطورية الشرقية فى مواجهة الهجمات التركية • وصحبت هذه المبادلة الاقليمية هجرة أرمنيـة ضخمة الى جنوبى آسيا الصغرى مما أدى فى النهاية الى ظهـــور مملكة أرمينيا الصغرى ـ ولهذا فمنذ ذلك الوقت كان يوجد مركزان أرمنيان : أحدهما فى منطقة جبال طوروس والآخر فى الجبـــال الممتدة فى شرقى الأناضول •

وكانت أشميادزين فى اريفـــان هى القـاعدة الأصليـــة للجاثليق الأرمنى (١) ، ولكنها انتقلت فى العصر السلجوقى الى سيواس أولا ثم الى أرمينيا الصغرى • على أن الولايات الأرمنية فى الشرق سقطت بعــــد غزوة تيمور فى أيدى الأسرات الحاكمة التركمانية المعروفة باسم الخروف الأبيض والخروف الأسود (٢) ـ وبعد أن دخلت أرمينيا فى نطاق امبراطورية المماليك بعد زوال الحكم الصليبى عاد الجاثليق الى أشميادزين • على أنه فى الوقت الذى تشكلت فيه المللتات لم تكن ولايات أرمينيا القائمة فى الشرق

---

(١) نقلت من دفين Dvin الى اشميادزين فى عام ٨٩٣ :
V. Minorsky, Studies in Caucasian History (London, 1953), p. 118.

(٢) قره قويونلو واق قويونلو •

أو أرمينيا الصغرى قد سقطت بعد فى أيدى العثمانيين • ولهذا فحين أقام محمـــد الفاتح الملت الأرمنى وقع اختياره على أسقف بورصة الجريجورى (هوراغيم Horaghim) لكى يشرف عليه وخلع عليه منصب بطريرك استنبول ومنحه صلاحيات شبيهة بتلك التى كان يتمتع بها بطريرك الأرثوذكس والحاخام باشى (١) •

وهناك صفة غريبة للملت الأرمنى تتمثل فى أنه كان يشمل الأرمن بمعنى الكلمة بالاضافة الى كل رعاية السلطان الذين لم يكن قد تم تحديد وضعهم (٢) • ولهذا فاننا نستنتج أن جماعة البوجوميل – أو البولسيين Paulicians (٣) – قد جرى ضمها بهذه الطريقة ، واذا كان هذا الافتراض صحيحا فان هذا الضم كان مناسبا بحكم أن أتباع المذهب كانوا بالفعل من أصل أرمنى • وكان الأرثوذكس يعتبرون المذهب البولسى أكثر هرطقة بكثير من مذهب الكنيســة الأرمنية ذاتها ، لانه لم يقتصر على كونه مؤمنا بالتبنى – بل كان أيضا مانويا – : بمعنى أنه أكد من ناحية أن عيسى رجل تبناه الله بسبب قداسته الكاملة ورفعه الى مرتبة الألوهيــة ، كما أكد من

---

(١) دائرة المعارف البريطـــانية – مادة Armenia – سبيري ص ٤٥ وما بعدها • ومما يجدر ذكره أنه نظرا للتقلبات التى مرت بها الكنيسة الارمنية . فما حل الوقت الذى تشكل فيه الملت حتى كان لا يوجد ما لا يقل عن خمســة بطاركة من الأرمن كان ثلاثة منهم وهم بطاركة أتشميادزين وسيس واغتامير يحملون لقب جاثليق • أما الاثنان الآخران فهما بطريركا القدس والقسطنطينية •

(٢) ليباير . ص ٣٥ (هامش : يشير الى كل « من لم يكونوا مســـلمين أو يونانيين ارثوذكس » متجاهلا الملت اليهودى الذى لا شك أنه قد جرى الاعتراف به قبل ذلك • (راجع ستين ، ص ٦١ – ٦٢ هامش) الذى يذكر أن اليهود ضموا فى البداية الى ملت اليهود •

(٣) أطلق عليهم هذا الاسم نسبة الى بولس الساموساتى (نسبة الى الاسم القديم الذى كان قد أطلق على سوريا) •

ناحية أخرى على وجود مبدئين مقدسين أحدهما خير والآخر شرير كان الكون مسرحا للصراع بينهما • وقد دخلت هذه العقيدة أوروبا للمرة الأولى في القرن الثامن حين استقر بعض الأرمن المؤمنين بها في تراقيا ، وفي القرن العاشر حول اليها آخـــرون ممن نقلهم الامبراطور الى مكان قريب من فلبوبوليس أعدادا كبيرة من البلغار الذين كان من المتوخى أن يوفروا حاجزا أمامهم وكان هؤلاء البلغار هم البوجوميل الأصليون وهو اسم يحتمل أنه مستقى من اسم زعيم قديم وما لبثوا باعتبارهم مهرطقين أن اضطهدتهم الكنيســة الأرتوذكسية القومية التي نشـــأت خلال القرن السابق (١) ، ونتيجة لذلك فر رجـــال هذه الطائفـــة الى المناطق الجبلية غير المطروقة ، وبمرور الزمن أرسلوا مبشرين عبر سلاســـل الجبال وطرق التجارة صوب الشمال والغرب بحيث انتشر المذهب في الخارج في كثير من أنحاء العالمين الأرثوذكسي والكاثوليكي • وفي الغرب كان يمثل هذه الطائفة بصـــورة واضـــحة الكاثاريون (الالبجنسس) Albigenses والوالدنسيس Waldenses (في اقليمي بروفانس وبيدمونت) (٢) وفي الشرق كان يمثلهـــم الباتارين Patarenes في البوســـنة ـ وقد حافظ أتبـــاع هذه الطائفة في الصرب وبلغـــاريا على اســـمهم الأصلي • وحين غزت الجيوش العثمانية البلقان يقال ان كثيرا منهم اعتنقوا الاســـلام (رغم مايشتم من هذا التأكيد اعتراف أرثوذكسي بالذنب) • فعلى سبيل المثال نجد أن معظم من تحولوا عن دينهم كانوا يقيمون في

---

(١) انظر ما سبق ـ عن البوجوميل بوجه عام انظر :

D. Obolensky, The Bogomils, a study in Balkan Neo-Manichaeism (Cambridge, 1948).

(٢) كان من الممكن كذلك العثور على الدنسيس في شمال فرنسا والفلاندرز • انظر دائرة المعارف البريطانية • art. Anabaptists

البوسنة حيث تحولت الى الاسلام نسبة من السكان تفوق نسبة من تحولوا في أي مكان آخر • وقد زعم أنهم باثارين • ورغم ذلك فان كثيرا منهم كانوا يقطنون موطنهم الأصلي في المناطق الممتدة حول مدينة فلبوبوليس وحافظوا في ظل الحكم العثماني على دينهم الغريب ـ وقد عرفوا باسم بافلنيكي Pavleniki (١) •

وهناك طائفة أخرى لم يعترف بها رسميا باعتبارها مللت ـ وتلك هي الطائفة الكاثوليكية • فلم تكن أعداد الكاثوليك كبيرة في الامبراطورية في الوقت الذي تم فيه فتح القسطنطينية ولكن كانت توجد في العاصمة ذاتها ، على سبيل المثال ، جالية جنوية كانت تقطن حي غلطة ، وقد سمح لها السلطان بأن تبقى حيث كانت (٢) • وأصبح كاثوليك آخرون رعايا للباب العالي حين تم الاحتلال (٣) النهائي للمناطق الوسطى من بلاد اليونان في عام ١٤٥٦ وللمورة بعد ذلك بأربع سنوات • ومنذ احتلال اللاتين للقسطنطينية كان يحكم هذه الأراضي كاثوليك غربيون من أصول متنوعة ، وذلك رغم أن السلاطين البيزنطيين استعادوا السيطرة على معظم أجزاء شبه الجزيرة في بداية القرن الخامس عشر • وكان من نتيجة ذلك أن قامت هيئة كنسية كاثوليكية خضع لها

---

(١) بمعنى بولسيين : دائرة معارف الأديان والأخلاقيات art. Bogomils

(٢) انظر ما سبق • ويقال ان محمد الفاتح قد غير موقفه حين زار الكنائس الكاثوليكية في حي غلطة لحضور الاحتفال (دائرة المعارف الاسلامية) art. Constontinople وكان ميخائيل باليولوجس قد سمح للجنويين في عام ١٢٦١ بعد عودة الامبراطورية ـ بأن يشكلوا طائفة تتمتع بالحكم الذاتي ـ نفس المصدر •

(٣) وكانت الحملات أو التهديدات العثمانية قد انزلقت بما يقرب من كل بلاد اليونان الى وضع دافعي الجزية •

الأرثوذكس · ورغم ذلك لم يتحول الى المذهب الكاثوليكى عدد كبير من السكان ، وحين جرى اقصاء الرؤساء اللاتين فى الوقت الذى تم فيه الفتح العثمانى تأكدت سيطرة الكنيسة الأرثوذكسية (١) ·

وقد سبق أن رأينا أن الملت الأرثوذكسى كان يمتاز على باقى الملتات الثلاثة التى اعترف بها العثمانيون ، وهو مايمكن أن نعتبره قصورا أو ميزة ـ اذ كان الملت الوحيد الذى خضع أعضاؤه لعملية الدفشرمة ـ ومن هنا لم يكن يتسنى للأرمن واليهود أن يصبحوا قبوقوللرى ، وبالتالى حرموا من كل الفرص التى كان هذا الاجراء يوفرها للطامحين · على أن استبعادهم كان يعتبر ميزة فعلية لا أمرا يدعو الى الدهشة ، وهو ما نستشفه من أن الذميين المقيمين فى استنبول ، أيا كان دينهم ، كانوا يعفون هم الآخرون · وكانت الدفشرمة آخر الأمر تستند الى مانصت عليه الشريعة فيما يتعلق بالعبيد أسرى الحرب ، وان يكن ذلك قد تم بصورة قسرية ، ومن هنا فقد بدت فى الأصل وكأنها نوع من المهانة · وبالاضافة الى ذلك فانها حكمت على من كانوا يجمعون بهذه الطريقة بالافتراق عن أهلهم فى سن مبكرة وبأن يرغموا على التخلى عن دينهم ويتلقوا تدريبا شاقا وطويل الأمد · وكانت الميزة التى تمتع بها الأرمن واليهود ترجع الى ماقبل فتح القسطنطينية وانشاء الملتات ، ويحتمل أن ذلك قد حدث منذ أن أخذ بنظام الدفشرمة للمرة الأولى · وقد يرجع اضفاء هذه الميزة الى وجود عدد قليل نسبيا من الأرمن واليهود فى الولايات التى كانت تضمها الامبراطورية فى ذلك الوقت ـ اذ أن هجرة اليهود التى سبقت الاشارة اليها لم تكن قد جرت بعد ، كما أن الأماكن التى كان يسكنها الأرمن لم تكن قد أصبحت عثمانية بعد · لهذا كان معظم الأرمن من رعايا

---

(١) Miller, Latins in the Levant, pp. 438 ff.

السلطان من سكان المدن ، كما هو الحال بالنسبة الى كل اليهود في حين كان أبناء الفلاحين هم المفضلون في التجنيد • وهناك سبب آخر للاعفاء هو أن السلاطين ، حين لجئوا الى الدفشرمة ، كانوا يسعون الى أن يضفوا عليها شكلا مشروعا بزعمهم أنهم لايتعدون ممارسة الحق الذى تتيحه الشريعة للامام فيما يتعلق بالاحتفاظ بنسبة من الأسرى الذين يقعون فى أيدى المسلمين أثناء محاربتهم للكفار وذلك لكى يقوموا بخدمته وقد حملهم هذا التهرب على قصر التجنيد على الولايات الأوربية التى كانت فى الماضى القريب تشكل جزءا من دار الحرب بخلاف الولايات الآسيوية التى كانت قد انضوت فى دار الاسلام منذ عدة قرون • ولكن الجيوش الاسلامية لم تصادف معارضة الا من جانب الأرثوذكس على اختلاف أجناسهم ، وبالتالى لم يكن من الممكن تطويع القانون لالحاق العقاب بهم فى مقابل الأخطاء التى ارتكبها آباؤهم • حقيقة ان أرثوذكس الأناضول طبقت عليهم الدفشرمة هم الآخرون ، الا أن شرعيتها فى ذلك الوقت كانت أمرا مسلما به • على أن اليهود والأرمن حافظوا على ميزتهم ربما لأنهم لم يعتبروا صالحين تماما للجندية • كما لم تطبق الدفشرمة على البلدان الناطقة بالعربية التى ضمها سليم وسليمان •

وقد أدى احتلال هذه البلدان الى تغيير كبير فى وضع الذميين • فمن ناحية كان معظم سكانها من المسلمين مما ترتب عليه أن أصبح المسلمون أكثر عددا من الذميين بعكس ما كان عليه الوضع حتى ذلك الوقت • وحينئذ حصلت الدولة العثمانية للمرة الأولى على أغلبية مسلمة وهى الأغلبية التى كانت لفترة طويلة أمرا عاديا فى بلدان العالم الاسلامى • ومن ناحية أخرى فنتيجة طبيعية لتركيب سكان أملاك السلاطين ، وهى نتيجة يحتمل أنه كان لايمكن تجنبها اذا مانظرنا اليها من زاوية دينية ، ازداد ميل آل عثمان الى السنية المتشددة التى فرضتها عليهم الضرورات

السياسية • ومن ناحية ثالثة نجد أن أعداد الطوائف الذمية قد ازدادت نتيجة لضم أعداد قد تزيد وقد تنقص من أبناء دينها القاطنين فى الأرض المفتوحة • وأخيرا فقد انضوت أنواع جديدة ومختلفة من الذميين تحت حكم السلاطين •

والآن نبدأ بتناول النقطة الثالثة • فنتيجة لفتح سوريا ومصر أولا ثم بعد فتح قبرص وكريت وما أصبح نيابات شمالى افريقيا ، أصبحت الامبراطورية العثمانية تضم كل الأراضى التى كانت الكنيسة الأرثوذكسية قد ازدهرت فيها وبخاصة البطريركيات الثلاث القديمة فى أنطاكية والقدس والاسكندرية (١) • وكانت هذه البطريركيات الثلاث قد دخلت فى نطاق الحكم الاسلامى منذ القرن السابع باستثناء فترة الحكم الصليبى فى سوريا وفلسطين (اذ أن الصليبيين كانوا ، باعتبارهم كاثوليك ، يقفون موقفا معاديا من الكنيسة الأرثوذكسية وممارساتها بصورة تقوى أو تضعف بحسب الأحوال ، وبالتالى لم يقوموا بالكثير لتحسين وضع البطريركين المعنيين) • وبالاضافة الى ذلك فان هذه البلدان كانت قبل الفتوح الاسلامية هى المسرح الرئيسى للهرطقة فى الامبراطورية الشرقية وبالتالى كان عدد الأرثوذكس القاطنين فيها قليلا نسبيا •

وكان تركيب الكنيسة الأرثوذكسية يختلف عن تركيب الكنيسة الكاثوليكية من حيث أنها لم يكن لها رئيس أعلى • وكانت تدير شئونها أو ليجاركية من البطاركة الذين كان كل منهم يتمتع داخل أبروشيته بوضع شبيه بوضع البابا الكاثوليكى (٢) ،

---

(١) كانت بطريركية الاسكندرية تلى الكنيسة المسكونية فى الأسبقية ـ ستين ، ص ١٢٨ •

(٢) ستين ، ص ٨١ ـ دائرة المعارف البريطانية :
Art. Orthodox Eastern Church.

وبالتالى لم يتضمن وضع كل البطريركيات الأربع فى نطاق دولة سياسية واحدة أى صعوبات فيما يتعلق بمسألة حكم الكنيسة . حقيقة ظل البطريرك المسكونى فى نظر الباب العالى رئيسا للمللت ، الا أنه كان يشارك زملاءه فى السلطة الروحية كما كان الحال من قبل . ولكن تعزز تفوق العنصر اليونانى فى الولايات السوريه بمقتضى مرسوم يعزى الى البطريرك جرمانوس فى أعقاب احتلال سليم الأول لها ، نص على تحريم دخول الرعايا اليونانيين من سكان سوريا وفلسطين الذين يتكلمون اللغة العربية الى الأديرة اليونانية مما عرقل توليهم المراكز الكهنوتية العليا باستثناء رتب رجال الدين العلمانيين (١) .

وبالاضافة الى البطريركيات الثلاث فاننا نجد أن الفتوح العثمانية التى جرت فى القرن السادس عشر قد ضمت الى المللت هيئتين أخريين هما كنيستا قبرص وسيناء وان تكن هذه الأخيرة لم تشمل سوى دير سانت كاترين المشهور (٢) وهو كل ما تبقى من كنيسة بلاد العرب القديمة فى الوقت الذى كان يجب فيه اعادة تنظيم كنيسة قبرص التى كان قد جرى الاعتراف بها منذ زمن بعيد باعتبارها هيئة مستقلة استقلالا ذاتيا (٣) ، وكان يدير شئونها

---

(١) وسواء كان هذا التنظيم قائما بالفعل أم لا فمن المؤكد أن هيئة الكهنة فى فلسطين كانت تختار كلها منذ القرن السادس عشر من « أخوة القبر المقدس » التى كانت عضويتها قاصرة على اليونانيين . انظر :

Y. Graf, Gesch. d. christlichen arab Lit., III, p. 28.

(٢) رغم أنها كانت فى وقت متأخر على الأقل تستحوذ على أملاك فى مختلف أجزاء الامبراطورية وكان استقلالها باستمرار موضع شك . انظر ستين ، ص ١٤٤ ــ ٤٦ .

(٣) مجمع افسوس (٤٣١م) . ستين ، ص ١٤٣ .

كبير رجال دين العاصمة الذى نصب رئيسا لأساقفة قبرص كلها ٠ ولكن حين أصبحت الجزيرة قاعدة لمملكة لاتينية أثنــاء الحملة الصليبية الثالثة وقامت فيها هيئة لرجال الدين ألغى منصب كبير الأســاقفة وأرغم الأساقفة الأرثوذكس على تقــديم فروض الولاء للكنيسة اللاتينية وعلى أن يقسموا على طاعتهــا وأنقص عدد دوائر الأساقفة من حوالى ٢٠ الى ٤ ؛ وساند البنادقة ـ الذين خلفوا أسرة لوزنيان فى عام ١٤٧٥ ـ السيطرة الكاثوليكية ، ولهذا فحين تم فتح قبرص بعد قرن اعتبره الأرثوذكس تحريرا لهــم ٠ واختفت هيئة رجال الدين الكاثوليك وتحولت كاتدرائيتهم فى نيقوســيا الى مسجد ، ورغم عدم اعادة دوائر الأساقفة الأرثوذكس التى تم الغاؤها ، فقد أعيد تنصيب كبير أســاقفة له نفس الصلاحيات السابقة (١) ٠

كما اشتد ســاعد مللت اليهود الى حــد كبير نتيجة لفتوح سليم وسليمان فى آسيا ٠ فبالاضافة الى الطوائف التى قطنت هذه الولايات باستمرار ، اتجه كثير من اليهود الأوروبيين الى فلسطين بعد أن ترامت الى أسماعهم أخبــار الحيــاة الرغدة التى كانت تنتظرهم فى تركيا ٠ ويرد ذكر منطقة الدين وستريا والمجر وملدافيا باعتبارها مراكز وفدت منها الهجرة ، ويبدو أنها كانت وافرة العدد برغم بعض العراقيل التى وضعها فى وجههــا فرنسسكان القدس الذين طلبوا من البابا أن يحرم على البنادقة نقل الركاب اليهود الى البقاع المقدسة (٢) ٠ وبالاضافة الى ذلك فحين تم طرد اليهود من أسبانيا والبرتغال استقر عدد كبير منهم ليس فقط فى فلسطين بل أيضا فى سوريا ومصر ، وذلك رغم أن معظم المهاجرين

---

(١) دائرة المعــارف البريطــانية : art. Cyprus ستين ، ص ١٤٣ ٠

(٢) جراتز ، جـ ٤ ، ص ٢٩٣ وما بعدها ٠

من هذه البلدان ممن لجئوا الى الامبراطورية العثمانية قد قصدوا ولاياتها الأوروبية (١) • وفي فلسطين كانت القدس ذاتها ومدينة صفد في الجليل هما أهم مركزين للاستقرار وفي مصر الاسكندرية والقاهرة وفي سوريا دمشق (٢) • وكما حدث في الولايات الأوروبية سرعان ما سيطر السفارديم على أبناء دينهم في هذه المراكز ، وفي مصر كانوا أميل الى اضطهاد من يختلفون عنهم في مسائل الدين بعد أن كانوا قد أفلتوا من الاضطهاد • وبعد أن استولى سليم على مصر أصدر مراسيم جديدة للطائفة اليهودية ، التي كان من الغريب أن تجرى في داخلها عملية معاكسة لاقامة مللت • فحتى ذلك الوقت كان يشرف على اليهود المصريين حاخام وأمير — قاض لقبه رئيس Nagid كانت سلطته تكاد تشبه السلطة المخلوعة على حاخام باشي العاصمة ، وكانت وظيفة هذا الشخص تشبه وظيفة الرؤساء العلمانيين للطائفة اليهودية الذين تزعموها في منطقة مابين النهرين في أوائل العصور الوسطى وكانت سيادتهم غير مكتملة • وربما لهذا السبب أو لأن سليم كان يخشى أن تصطدم سلطته بسلطة الحاخام فانه ألغاها وأصدر أمرا بأن على كل هيئة دينية أن تحكم نفسها بنفسها ، ورغم ذلك فاننا نقرأ أن الحاخام باشي الذى كان يتولى منصبه في عهد سليمان كان يمثل كل يهود الامبراطورية — وبالتالى يبدو لنا أن تمتع الهيئات الدينية بالحكم الذاتى المحلى كان محدودا (٣) •

---

(١) جراتز ، جـ ٤ ، ص ٤٢٤ — فرانكو ، ص ٤٢ — ٤٣ ، ص ٤٤ • ومما يجدر ذكره أن الطرد حدث قبل ضم مصر وسوريا الى الامبراطورية •

(٢) جراتز ، جـ ٤ ، ص ٤٢٧ •

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٢١ — ٢ ، فرانكو ص ٤٤٥ •

وشهد عهد سليمان اجراء جديدا فيما يتعلق بادارة المللت اليهودى تمثل فى تعيين كاخيا يمثل مصالحه أمام الحكومة على نمط ماكان يقوم به كاخيا طوائف الحرف • وكان الكاخيا ذاته يهوديا ، ولكن كان له حق مقابلة السلطان ووزراء الباب العالى الذين كان بامكانه أن يعرض عليهم حالات الظلم الذى يوقعه الحكام المحليون أو المسيحيون المتعصبون بأبناء دينه (١) •

ولم تقتصر فتوح سليم الأول على كل الامبراطورية المملوكية بل انها استطاعت كذلك أن تضم الجزء الأكبر من أرمينيا بمعناها الحرفى وكانت قد سقطت فى يده بعد أن هزم الشاه اسماعيل الصفوى فى عام ١٥١٤ ـ وبذلك انضوى « الوطن الأصلى » للأرمن فى الأملاك العثمانية خلال فترة حكمه وكذلك أشميادزين قاعدة الجاثليق • على أنه يبدو أن بطريرك استانبول الجريجورى كان لايزال يشرف على شئون المللت كلها (٢) • ومهما كان الأمر فما لبثت اشميادزين أن دخلت من جديد فى نطاق الأملاك الفارسية بعد أكثر من قرن وذلك حين تنازل الباب العالى للشاه عباس عن اريفان •

وكانت الولايات الأرمنية قد عانت طويلا من الحروب والغزوات والغارات • فالغزو السلجوقى تلته غزوة المغول ثم غزوة تيمور • وكانت أسرتا التركمان : الخروف الأبيض والخروف الأسود قد خربتا البلاد وجعلتاها مسرحا لصراعاتهما مما أصاب

---

(١) جراتز ج ٤ ، ص ٣٢ ، فرانكو ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ، غضب أول كاخيا على الحاخام باشى لتدخله فى شئون المللت التى لم تكن من اختصاصه •

(٢) جرى فى وقت متأخر ، على أى حال ، الاعتراف ببطريرك استنبول باعتباره صاحب السلطة على الأرمن العثمانيين رغم أن جاثليقى سيس وأغتامين ظلا من الناحية الدينية لا يخضعان الا لبطريرك اشميادزين • ستين ، ص ٦٤ ـ ٦٥ •

رخاءها فى الصميم • وكانت أعداد الأرمن قد قلت كثيرا نتيجة للموت المفاجىء والهجرة ثم دخلت القبائل الكردية النشطة الى الأراضى المهجورة من الشمال والجنوب الشرقى الى أن أصبحت الأجزاء الواقعة فى أقصى جنوبى ما كان أرمينيا كردية بقدر ماكانت أرمنية من حيث السكان • وحين ضم سليم هذه المنطقة وجدها نهبا للصراعات المحلية وصمم على اعادة تنظيمها • وترتب على الفوضى أن ترك السكان كثيرا من الأراضى الصالحة للزراعة فى الوديان والسهول وطفقوا يبحثون عن مأوى لهم فى الجبال • وكانت السياسة العثمانية تقوم على اسكان الأراضى الخالية بالأكراد وتقسيم المنطقة كلها الى صناجق صغيرة ووضع ما يسهل الوصول اليه منها تحت اشراف موظفين يعينهم الباب العالى مع ترك البقية تحت سلطة زعماء القبائل المحليين • وكان معنى ذلك محاباة الأكراد الذين ساعدوا سليم ضد اسماعيل الذى حاول الحد من غاراتهم التخريبية • ولهذا فرغم أن الفتح العثمانى أعاد بعض الهدوء الى المنطقة فانه ألحق الضرر بالأرمن على المدى البعيد لأنه أضاف الى عجزهم باعتبارهم ذميين سيطرة أعدائهم الألداء : الاكراد • وطالما بقيت الحكومة المركزية من القوة بحيث تستديم نوعاً من الاشراف عن طريق موظفيها كان يمكن التوصل الى توازن مابين الأرمن والأكراد • ولكن حدث فى أوقات متأخرة أن توفرت للأكراد حرية العمل مما أدى الى معاناة الأرمن •

مما سبق يتضح لنا أن كل الأنواع الأخرى من الأرمن الذين خضعوا للحكم العثمانى نتيجة لفتوح سليم وسليمان كانوا مسيحيين ينتسبون الى عدة كنائس يعتبرها الأرثوذكس مهرطقة • وبامكاننا أن نتناول هذه الكنائس حسب تسلسل تأسيسها •

والكنيسة النسطورية هى أولى هذه الكنائس وكان اختلافها

من حيث جوهر العقيدة المسيحية عن المذهب الأرثوذكسى على النقيض من المونوفزية . والمعروف أن المذهب الأرثوذكسى قرر فى القرن الخامس أن للمسيح طبيعتان احداهما الهية والأخرى بشرية مع كونه شخصا واحدا على حين ذهب المذهب النسطورى الى أن له شخصيتان لكل منهما طبيعتها . وحين أدان مجمع افسوس هذا الاعتقاد ندد الأرثوذكس بأتباعه ثم اضطهدوهم مما دفعهم الى الهجرة شرقا الى داخل أملاك فارس حيث رحب بهم الأباطرة الساسانيون باعتبارهم خارجين على سلطة روما . ورغم اعتراض رجال الدين الزردشتيين على التسامح معهم فانهم عوملوا معاملة طيبة وازدادت أعدادهم وسلطتهم ومنطقة نفوذهم الى أن جاءت الفتوح الاسلامية التى أتاحت لهم تشكيل أكبر طائفة مسيحية داخل دار الخلافة . وطيلة العصر العباسى (أى حتى ١٢٥٨ م)(١) ظلوا يشكلون أعدادا كبيرة برغم هوانهم باعتبارهم ذميين . وكان بطريركهم يقطن بغداد ، الا أن جهودهم التبشيرية التى أدت الى اقامة الكنائس النسطورية حتى فى الهند والصين اقتصرت حينئذ على مناطق آسيا الصغرى الداخلية الخارجة عن نطاق دار الاسلام. على أنهم تعرضوا لكارثة لم ينجوا من آثارها وذلك نتيجة للغزو المغولى فى القرن الثالث عشر . حقيقة أن عددا كبيرا من المغول ذاتهم ، بما فى ذلك بعض خاناتهم ، قد تحولوا بالفعل الى النسطورية ، الا أن هذا لم يكف لتعويض الدمار الذى حل بمركز الكنيسة فى العراق فى حين قرر المغول ، بعد اجراء نوع من الموازنة ، أن يعتنقوا الاسلام . وانتهى العهد الذى تمتع فيه النساطره بالرخاء . وكانت الجماعة وافرة العدد الوحيدة الممكن

(١) يورد المؤلفان تاريخ انتهاء الخلافة العباسية على أنه عام ١٢٥٦ — وقد قمنا بتصحيح هذا التاريخ (المترجم) .

العثور عليها داخل الأراضي التي تضمها الامبراطورية العثمانية (١) هي تلك التي كانت تقطن المنطقة الواقعة الى الشرق من أواسط نهر دجلة وفي مرتفعات كردستان الواقعة بين الموصل وبحيرة وان • وقد أطلق على هذه الجماعة اسم « الآشوريين » (٢) (الذين اجتذبت معاناتهم اهتمام العالم في الماضي القريب) ـ وكانت (ولاتزال) تخضع لزعامة البطريرك الوراثي ، المار شمعون ، جاثليق الشرق الذى كان يقيم في قرية تقع شمال الموصل • وكان منصب الجاثليق ينتقل من العم الى ابن الأخ • وخلال فترتنا كانت الطائفة النسطورية تعاني من التدهور الثقافي والاقتصادى الشديد كما عانت بالاضافة الى ذلك من اقامة بطريركية منافسة في كتشانس Kotsannes الواقعة على الحدود التركية ـ الفارسية ، وهي البطريركية التي قامت منذ أواسط القرن السابع عشر حتى بداية القرن التاسع عشر (٣) •

وكانت الكنيسة المهرطقة الثانية هي المونوفزيت (التي تميزت بعقيدة يدل عليها اسمها مفادها ليس فقط أن المسيح شخص واحد

---

(١) على أن بطريرك اسطانبول تولى بعد ذلك الاشراف على كل الأرمن العثمانيين ، وذلك رغم أن جاثليقات سيس وأغتامين ظلوا من الناحية الكهنوتية لا يخضعون الا لبطريرك اشميادزين • ستين ، ص ٦٤ ـ ٦٥ •

(٢) راجع كتاب « الآشوريون في العراق ـ ١٩١٨ ـ ١٩٣٦ » تأليف رياض رشيد الحيدرى ـ القاهرة ١٩٧٧ (المترجم) •

(٣) ستين ، ٢٦ ـ ٣٣ • دائرة المعارف البريطانية ـ

Church Hi tory, Nestorign

أيضا G. Graf, Geschichte der christlichen arabischen literatur, III Vatican City, 1949, 61-4.

بل انه كذلك ذو طبيعة واحـدة) (١) • وقد انقسمت الى فرعين هما اليعاقبة) (٢) في سوريا والأقباط فى مصر • وقد تعرضت كلتا الطائفتين حتى زمن الفتوح الاسلامية لاضطهاد الأرثوذكس • ورغم ذلك فان هذين الفرعين حظيا بولاء معظم السكان بحيث وصف أرثوذكس مصر وسوريا على حد سواء بأنهم ملكانيون ـ رجـال الملك • ولهذا فحين بدأت الفتوح العربية لم يتردد عدد كبير جدا من السوريين والمصريين فى استبدال سيادة الامبراطور بسـيادة الخليفة • وعلى حين أن معظم الطائفة الملكانية فى مصر كانت تضم اليونانيين والأجانب الآخرين القاطنين فى الاسـكندرية ، فان أبناء مصر ، مع استثناءات قليلة ، كانوا مونوفزيت ، وبالفعل ساعدوا المسلمين فى فتوحهم • وفى كلا البلدين اختفت الطائفة الملكانيـة رغم أن بطريركياتها الثلاث ظلت قائمة دون أن يكون لديها سوى حفنة من الأتباع وهو ما سبقت الاشارة اليه •

ولم تقتصر الكنيسة اليعقوبية على سـوريا ، بل كانت قد انتشرت قبل ذلك فى جنوبى آسيا الصغرى وبلاد مابين النهرين وبذلك غطت على منافستها النسطورية • وكان لها هى الأخرى بطريرك أطلق عليه لقب بطريرك أنطاكية الذى كان فى العهـود التى تمتعت فيها بأكبر قدر من الرخاء فى أوائل العصور الوسطى يرأس هيئة تضم مائة وخمسين أسقفا • ومنذ القرن الثامن اتحد

---

(١) رغم أنها أنكرت تخطى يوتشيس مؤسـس الهرطقـة المونوفزية انظر ما سبق •

(٢) أطلق عليها هذا الاسم نسبة الى الأسقف يعقوب البرادعى Baradeus (بار أداى Bar Addai الذى احياها بعد الاضطهاد الذى تعرضت له خـلال القرن السادس •

اليعاقبة وقتا ما بصفة مؤقتة مع الكنيسة الأرمنية التى كانت هى الأخرى مونوفزيت وهو ماسبقت الاشارة اليه ، ولكنهم كانوا أقل نجاحا من النساطرة فى المحافظة على أعدادهم فى مواجهة جاذبية اعتناق الاسلام ، وان تكن هذه الجاذبيــة قد قلت بالتدريج • وقد أثرت فيهم الحروب الصليبية بدورها بصورة أو بأخرى ، وذلك بحكم أن موقف الصليبيين ــ الذين أثبتوا أينما حلوا أنهم دعاة متحمسون لروما ــ من المنشقين عن المذهب الأرثوذكسى كان أسوأ من موقفهم ازاء الأرثوذكس ذاتهم ؛ وما لبثت الحملة الصليبية الأولى أن أدت الى هجرة أعداد كبيرة من اليعاقبة من ســـوريا الى مصر • وفى القرن السادس عشر ــ وبعد الفتح العثمانى بوقت قصير ــ قدر عدد اليعاقبة المقيمين فى سوريا بحوالى ٥٠٠٠٠ أسرة • على أن جماعة أخرى ظلت توجد فى بلاد مابين النهرين وبخاصة فى بغداد ، ثم درج البطريرك على أن يقيم فى الجزيرة (١) •

كذلك لم تقتصر الكنيسة القبطية على مصر • فبالاضافة الى هذا القطر امتــدت سلطتها الى القدس وبنتابوليس (٢) والنــوبة والحبشة • على أنها حصلت فى وقت مبكر جدا على وضع الكنيسة

---

(١) فى دير الزعفران بالقرب من ماردين : ستين ٣٤ ــ ٤٢ ، دائرة المعارف البريطانية art. Jacobite church. كما عانت الكنيســة اليعقوبية من بطريركية منافسة فى طور عابدين : G. Graf, III, 52-3.

عن المعلومات الخاصـــة باليعاقبة فى العصر العثمانى انظر جراف جـ ٤ ص ٣ ــ ٤١ •

(٢) اصطلاح كان يطلق فى الأصل على خمس مدن أو مستوطنات أســسها اليونان بدءا من القرن السادس قبل الميلاد فى أماكن عدة منها فلسطين وبرقة • وعليه فلم نستطع التأكد من كون المؤلفين يشيران الى امتداد سلطة الكنيسة القبطية أما على مناطق فى برقة أو فى فلسطين (المترجم) •

الوطنية في مصر ، ولهذا فقدت كل نفوذها في كل مكان وذلك باستثناء اتصالها بالحبشة وكانت هي الأخرى يرأسها بطريرك كان يقطن الاسكندرية ثم أصبح يقطن القاهرة (بعد تأسيسها) . وقد فقدت الكنيسة القبطية بعد الفتح العربي بعض أتباعها نتيجة للتحول الى الاسلام الذى كان من أهم أسبابه المزايا الاقتصادية والاجتماعية التى كان يضفيها عليهم اعتناقهم للاسلام . ورغم ذلك فقد ظل الأقباط حتى فترتنا ، وفى خلالها ، يشغلون وظائف رسمية وبخاصة فى المجال المالى . ورغم أن القوانين الهادفة الى تكريس وضع اجتماعى متدن للذميين كانت تطبق عليهم أحيانا بقدر كبير من التشدد ، فانهم احتفظوا برخائهم النسبى حتى القرن الثالث عشر . على أنه حدث فى عصر المماليك أن دمرت معظم الكنائس والأديرة ، وانكمشت أعداد أتباع الكنيسة حتى غدوا أقلية صغيرة ـ حوالى عشر السكان وهى النسبة التى لم تتغير منذ ذلك الوقت ، وبالتدريج بطل استعمال اللغة القبطية المتفرعة عن اللغة المصرية القديمة . ومثل هذا العناء الذى حل بالكنيسة هو الذى جعل البطريرك يرسل فى عام ١٤٣٩ وفدا الى مجمع فلورنسة للاشتراك فى الاتحاد المقترح بين الكنائس المسيحية ، ومن الجلى أنه قام بذلك تحقيقا لرغبته فى الحصول على بعض المساندة من العالم الخارجى . ولم تؤد هذه الخطوة التى يبدو أنها لم تتعد كونها حركة سياسية ، الا الى الجدل ـ ورغم المفاوضات التى جرت بعد ذلك (١) فقد احتفظت الكنيسة القبطية باستقلالها عن روما (٢) .

---

(١) انظر ما سبق .

(٢) دائرة المعارف البريطانيه art. Copts ستين ، ص ٤٣ ـ ٤ ايضا :

(★) Butcher, The Story of the church in Egypt, Vol. II (London 1897) G. Graf, IV 114 ff.

وكانت طبيعة الكنيسة الثالثة الموسومة بالهرطقة ، أى الكنيسة المارونية ، أقل تحديدا حين استولى العثمانيون على سوريا ، الا أن أتباعها الذين استقروا فى لبنان ، لبنان الداخل وجبل هرمون (جبل الشيخ) ، وكانوا فى وقت سابق ـ منذ القرن السابع وحتى القرن الثانى عشر على الأقل ـ قد اعتنقوا المذهب المعروف باسم التوحيد : تأكيد أن المسيح ليست له سوى ارادة واحدة على خلاف العقيدة الأرثوذكسية التى ذهبت الى أن له ارادتان ، واحدة لكل طبيعة (١) · ويبدو أن الهرطقة دخلت الى هذه المناطق بعد عام ٦٨٠ بوقت قصير على أيدى لاجئين نجوا من الاضطهاد وذلك على أثر ادانة مجمع القسطنطينية لهما · ويقال ان بعض أساقفة الكنيسة المارونية دانوا بالولاء لروما فى أواخر القرن الثانى عشر ، وفى عام ١٤٤٥ أى بعد مجمع فلورنسة اتحدت رسميا مع الكنيسة الرومانية · على أن البطريرك والأساقفة لم يستطيعوا أن يجتذبوا الى صفهم صغار رجال الدين والشعب لهم بصدد هذه الحركة وبقوا صامدين طيلة ثلاثة قرون رغم أن الارتباط بروما لم يتوقف على الاطلاق (٢) · ولهذا فمن وجهة نظر الحكومة العثمانية كان الموارنة بعد الفتح العثمانى يشكلون طائفة تختلف عن أى طائفة أخرى فى الامبراطورية ـ اذ لم تكن توجد الا طائفة أخرى مرتبطة بروما هى طائفة الأرمن الكاثوليك المستقرين فى كيليكيا أى جماعات الأرمن الموجودة فى هذه المقاطعة

---

(١) انظر ما سبق · وقد فند المدافعون عن الموارنة دلائل هذا الانشقاق المبكر فيما بعد ·

CF. Graf, III ,361 ff ; Dict. de Théologie Catholique, Vol X (Paris, 1927) art. Maronite.

(٢) جراف ، جـ ٣ ، ص ٤١ وما بعدها ·

التى أثر فيهـــا الصليبيون (١) بحيث اعتنقوا عقيدة الكنيســـة الرومانية الكاثوليكية فى عام ١٣٣٥ بعد أن كان مجمع فلورنسة المنعقد فى عام ١٤٤٩ قد قبل انضمامهم اليها • على أن وضــعهم اختلف عن وضع الموارنة من حيث وضوحه التام •

وقد سبق أن أشرنا الى أنه كان يوجد بالتأكيـــد كاثوليك « لاتين » عاديون وفى الواقع لقد ازدادت أعداد هذه الطائفة الى حد كبير نتيجة لفتوحات القـرن الســادس عشر • وكان السكان الكاثوليك المتماسكون الوحيدون يوجدون على الحدود الشــمالية الغربية للعالم الأرثوذكسى فى ألمانيا وكرواتيا والمجر وهى الحدود التى كانت الامبراطورية العثمانية قد اخترقتها نتيجة للجهود التى بذلها سليمان • ولكن كلا من قبرص وجزر بحر ايجة التى كانت تشكل حتى ذلك الوقت دوقية الأرخبيل اللاتينية كانت قد انتزعت من حكامها الكاثوليك الذين خلفوا وراءهم بعض معتنقى ديانتهم على الأقل • ويبــدو دون شـــك أنهم كانوا قليلى العدد فى قبرص ومما يدل على ذلك الغاء هيئة رجال الدين اللاتين التى كانت متنفذة فى ظل حكم أسرة لوزنيان والبنادقة (٢) • ومن ناحيـــة أخرى كانت الطائفة كثيرة العدد فى الجزر بصـــورة تبرر الابقـاء عليها برغم احتجاجات البطريرك المسكونى (٣) • أما فيما يتعلق

---

(١) رحب ملوك أرمينيا الوطنيون بالصليبيين وأقاموا علاقات تجـــارية مع الجمهوريات الايطالية ، وبالاضافة الى ذلك فقد انتقلت المملكة فيما بعد الى يد فرع من أسرة لوزنيان التى تولت الحكم منذ عام ١٣٤٢ وحتى الفتح المملوكى • وخلال هذا القرن والقرون التالية هاجر عدد كبير من الأرمن الموحدين الى سوريا وبلاد ما بين النهرين • جراف جـ ٣ ، ص ٥٩ ــ ٦٠ •

(٢) انظر ما سبق •

(٣) H. Miller, Latins in the Levant, 635.

وقد تم الفتح فى عام ١٥٦٤ رغم أن الدوق كان يقوم قبل ذلك بدفع الجزية للسلطان •

بالأملاك الجديدة فى آسيا فقد قام صـــلاح الدين بعد استرجاع القدس بطرد رجال الدين اللاتين الذين اسـتقدمهم الصليبيون ، ويبدو أن عددا قليلا من المسيحيين الكاثوليك قد بقوا فى سوريا وذلك باســتثناء رعايا الدول الأجنبية • على أن الفرنسيسكان احتفظوا بارسالية منتظمة فى القدس خـــلال الفترة الممتدة مابين عامى ١٣٣٦ و ١٥٧١ قبل أن يتم طردهم من ديرهم الواقع على جبل صهيون ونقلهم الى حلب (١) وقد امتد نشاط فرنسيسكان القدس إلى مصر هى الأخـرى ، الا أن معظم المحاولات الأولى لاقامة ملاجىء خيرية فى ذلك البلد قد فشلت نتيجة للمعارضة الاسلامية : وفى عام ١٦٩٧ وضعت كنائس مصر العليـــا تحت اشراف رجـل دين منفصـــل ، وما حلت أوائل القرن الثامن عشر حتى كانت لدى الفرنسيسكان تسع مؤسسات فى مصر العليا بالاضافة الى ملاجىء خيرية فى القاهرة والاسكندرية ورشـيد حافظت على علاقات مع الأقباط الكاثوليك (٢) •

ولم يستخدم خلفاء محمد الفاتح سابقتـه الخاصــة بتنظيم مختلف طوائف الذميين فى مللتات معترف بها ـ اذ اقتصروا على الابقاء على المللتات الثلاثة الأصلية واعتبروا كل رعاياهم من غير الأرثوذكس أرمن • وفى الواقع لقد أعتبر المللت الأرمنى وكأنه مللت المهرطقين بحيث أدخـــل فيه غير المنسجمين من الكاثوليك والنساطرة واليعاقبة جنبا الى جنب • وكانت للبطريرك الأرمنى ، من الناحية الرسمية ، سلطة مدنيـة عليهم (٣) رغم مايبدو من أنه

(١) جراف ، ج ٤ ، ص ١٦٩ وما بعدها •

(٢) عن الأقباط الموحدين انظر ما يلى •

(٣) عن النساطرة انظر سنين ص ٢٨ وعن اليعاقبة انظر ص ٣٧ •

كان يقوم بالفعل بادارة شئونهم المحلية عن طريق أعيانهم الدينيين. على أن الطوائف المقررة كانت تحظى دون شك بميزة على الطوائف الأخرى ، وكان باستطاعتها على أى حال أن تحتج بصورة فعالة حين كانت الكنائس الأخرى تحاول تحويلها عن عقائدها .

وبعد استعراضنا للجماعات الذمية التى كانت تقطن الامبراطورية العثمانية فى الوقت الذى بلغت فيه أقصى اتساعها ننتقل الآن الى دراسة آثار العلاقات التى قامت بينها وبين الجماعة الاسلامية نتيجة لفتوح القرن السادس عشر . قد سبق أن أشرنا الى أن أهم الآثار هو التغير الذى طرأ على توازن السكان بحيث أصبحت أعداد المسلمين أكثر من أعداد الذميين بعد أن كان العكس هو الصحيح قبل ذلك . وقد أثر هذا فى اتجاه المسلمين بوجه عام . فمن ناحية كان غالبية رعايا السلطان الجدد يفوقون سابقيهم فى تشددهم السنى ، مما أدى الى ازدياد الاتجاه الى السنية المتشددة التى كانت قد غلبت على السلاطين وحكومتهم لمدة تزيد على قرن وترتب على ذلك نمو الاتجاه الى عدم التسامح مع غير المسلمين . حقيقة ان الذميين كانوا يحظون بالحماية فى نطاق محدود وذلك طبقا لما نصت عليه أحكام الشريعة المتعلقة بالسيطرة عليهم ، الا أن معاملتهم الفعلية كانت ترتبط دون شك بالروح التى كانت تحرك سادتهم المسلمين . ومن ناحية أخرى فان تشكيل المسلمين لأغلبية سكان الامبراطورية جعل قصر الوظائف العليا على أشخاص ولدوا ذميين يبدو فى نظر المسلمين أمرا غير منطقى الى حد كبير بل أكثر شذوذا مما كان عليه الحال من قبل . وكانت النتيجة هى ثورة المسلمين على هذا الاحتكار خلال فترة الاضمحلال.

ويعتقد بوجه عام أن هذا قد حدث فى السنة الألف من الهجرة وهو ماسبقت الاشارة اليه . ومما يدل على نمو الشعور

المعادى للذميين بحلول هذا التاريخ ما كان متوقعا من أن يؤذن العام الألف بهزيمة الاسلام على يد العالم المسيحى ، بحيث كان من المتوقع أن تحدث هذه الهزيمة على أيدى الدول المسيحية ولكن بمساعدة المسيحيين الذميين الذين اعتبروا الحلفاء الصليبيين للعدو الخارجى • ومما لاشك فيه أنه كان يؤخذ بوجهة النظر هذه الى حد ما وأنها كانت تلقى تشجيعا نتيجة المحاولات التى بذلهـا البابوات والملوك فى القـرن الرابع عشر لشن حروب صليبية تستهدف استرجاع البلقان • ولكن ثبت بعد ذلك عدم صحة هذا الافتراض اذ فضل الأرثوذكس بوضـوح أن يحكمهم المسلمين لا الكاثوليك بشرط أن يحافظوا على استقلالهم • ولكن ما حل ذلك الوقت حتى كان المسلمون بوجه عام لا يكادون ينتبهون الى وجود هذا الخلاف ، اذ كانوا يعتبرون المسيحيين على اختـلاف نحلهم وكأنهم شيء واحد •

وحين نتناول الذميين خلال فترة الاضمحلال يستحسن أن نبدأ بالأرثوذكس كما فعلنا فى السابق • ولا شك أنهم تأثروا أكثر من غيرهم من الطوائف الذمية باستيلاء المسلمين على جهاز الحكم وذلك على اعتبار أنهم كانوا الوحيدين الذين بامكانهم أن يدخلوه وهو ماسبقت الاشارة اليه • ولاشك أنهم رحبوا بالالغاء التدريجى للدفشرمة وارتاحوا له • ولكنهم كانوا يدركون أن خطف الأطفال كان سلما للمجد وبالتالى أبدوا أسفهم لالغائه • ومن وجهة نظر الدولة العثمانية لا شك أن اطراح الدفشرمة كان مدعاة للأسف ليس فقط لأنه كان يتضمن مساسا بالنظام البديع الذى كان حتى ذلك الوقت من مميزات جهاز الحكم وذلك نتيجة لملئه بالمسـلمين الذين لايمكن السيطرة عليهم ، بل أيضـا لكون الدفشرمة قد ربطت بين الجماعة الاسلامية وبين أكثر جمـاعات الذميين عددا

وأهمية ، ومن ثم توفيرها بديلا لما كان يمكن أن يكون خيرا من ذلك وهو دمج الاثنين معا · وفى الواقع أن الاسلام وقع بين نارين فقد أدى التسامح الذى أبداه السلاطين السابقون عن قناعة تجاه الذميين الى تحقيق أهدافه التى كان يمكن كذلك أن تتحقق بارغامهم على التحول عن دينهم وهو ما كان يرغب فيه سليم الأول ولو أن معارضة العلماء قد حالت دون محاولة تحقيق ذلك · الا أن نصف التسامح المزرى الذى عوملت به الجماعات الذمية خلال القرون المتأخرة جعل أى تعاون حقيقى ونمو أى شعور بالوحدة أمرا مستحيلا · وحتى حين بدا الولاء الدينى أكثر أهمية من الولاء القومى فان احتواءهم على جماعات غير مندمجة كان على الأقل يشكل باستمرار خطرا محتملا بالنسبة الى الدول الاسلامية (١) · وازداد هذا الخطر فى العصور الحديثة حين نما الشعور القومى · وأصبح مسلمو الولايات « الأصلية » ، الداخلة فى نطاق الامبراطورية العثمانية ، الذين كان قليل منهم تحتوى عروقهم على كثير من الدماء التركية فى حين أن معظمهم لم تدخل دمه قطرة تركية ، يعتبرون ، على الأقل فى نظر أوروبا والذميين أتراكا

---

(١) مما تجدر ملاحظته أن تاريخ الدول الاسلامية السابقة فى آسيا وافريقيا قد وفر أكثر من مثل على هذا ـ ومن ذلك على سبيل المثال الربط بين المردة واليونانيين فى سوريا خلال القرن السابع وبين الموارنة والصليبيين خلال القرن الحادى عشر وبين النساطرة والمغول فى بلاد ما بين النهرين خلال القرن الثالث عشر · ولهذا اضطرت السلطات الاسلامية ، أرادت أو لم ترد ، الى اتباع سياسة تقوم على الضغط المتصل على الجماعات غير المسلمة ، وهو ضغط أدى رغم ندرة كونه تطرفا يصل الى حد الاضطهاد ، الى عزل معظمهم فى مناطق نائية تقع فى المناطق الجبلية بوجه عام · وهكذا فما حل زمن الفتوح العثمانية حتى كان غير المسلمين القاطنين بالفعل فى أوساط المسلمين فى آسيا ومصر يمثلون فى معظم الأحوال هيئات صغيرة من « مخلفات » الهيئات القديمة بحيث كان لا يمكن الاستغناء عن جهودهم ، أو على الأقل كانوا لازمين للنشاط الاقتصادى للمجتمع الاسلامى ·

اذا ما تخلوا عن لغاتهم المحلية وتكلموا اللغة التركية وبالتالى كان يفصلهم عن الأوروبيين والذميين حاجز « عرقى » ودينى • وقد أدى هذا التمييز الجنسى الذى لم يستند الى أى أساس الى ازدياد التعارض بين الحكام المسلمين والذميين المحكومين ، وهو التعارض الناتج عن الاستيلاء على جهاز الحكم وما تلا ذلك من ابطال الدفشرمة •

وكان المللت الأرثوذكسى يضم يونانيين وصربيين وبلغار ورومانيين (١) وبشناق وسكان جنوبى ألبانيا • الا أن الحكومة العثمانية لم تهتم كثيرا بهذه الفروق القومية والعرقية ، ان كانت قد اهتمت بها على الاطلاق ـ فهم جميعا يعتبرون فى نظرها « روم مللتى » ، ولما كانت كلمة « روم » تعنى كذلك يونانى (٢) ، فقد جرى اعتبارهم يونانيين بصورة أو أخرى • وبالاضافة الى ذلك فان منح البطريرك المسكونى سلطة على الكنيسة كلها قد أدى فى الواقع الى طبع السلاف بالطابع اليونانى ـ ففى بلغاريا على سبيل المثال احتكر كهنة القسطنطينية المراكز العليا فى الكنيسة وملئوا الأبروشيات بالقسس اليونانيين • وبالاضافة الى ذلك كانت لا تدرس الا اللغة اليونانية فى المدارس التى كانت تنفق عليها الملل مما ترتب عليه أن اللغة اليونانية سرعان ما أصبحت لغة علية القوم البلغاريين الذين كانوا يتلقون دراساتهم فيها • وأخيرا فقد ألغيت الطقوس الدينية السلافونية ـ ورغم أن هذه الطقوس لم تكن مفهومة لدى البلغارى الأمى ، شأنها فى ذلك شأن

---

(١) يعن فى ذلك أولئك الذين عرفوا باسم الكوتزوفالك Kutzovalks الذين كانوا يسكنون خارج ولايتى الدانوب فى مناطق مختلفة من شبه جزيرة البلقان ، وبخاصة فى جنوبى مقدونيا • ستين ، ص ١٩٤ وما بعدها •

(٢) أطلق الأتراك على اللغة اليونانية التى كان اليونانيون ذاتهم يعتبرونها رومية Romaic اسم Rumca دائرة المعارف البريطانية = art. Orthodox Eastern church; art. Montenegro

الطقوس اليونانية التى حلت محلها ، فان الغاءها قضى على تمييز « قومى » آخر • ويبدو أن تطورات مشابهة جرت فى الأراضى التى كان يسكنها الصربيون • على أن استمرار استغلال أمراء ـ أساقفة الجبل الأسود الذين كان ينصبهم بطاركة ايبك قد شجع الذميين الصربيين على أن يعتبروا أنفسهم شعبا متميزا • ولم يحدث الا فى المناطق التى كان المسلمون يتميزون فيها باسم اقليمى ـ كالبوسنة وألبانيا ـ أو فى المناطق التى كان يطبق فيها نظام خاص ـ مثل ولايتى الدانوب ـ أن جرى الاعتراف بالذميين باعتبارهم جنسا يختلف عن اليونانيين • أما فيما يتعلق بالبلغاريين ، فان استيعابهم فى المللت اليونانى كان كاملا بحيث لم تجر الاشارة اليهم بالاسم فى الوثائق الرسمية العثمانية الا بعد فترة دراستنا (١) وذلك باستثناء لقب فوينوقات (٢) ، كما أن وجودهم باعتبارهم شعبا كان لايكاد يعرف فى أوروبا ، حتى من جانب دارسى الأدب السلافونى ، قبل أوائل القرن التاسع عشر (٣) •

أما اليونانيون الحقيقيون فقد استغلوا وضعهم الممتاز • وعلى حين أن الذميين الأرثوذكس الآخرين ظلوا موضعا لتجاهل أوروبا التام ، فانهم استرعوا الانتباه باعتبارهم مسيحيى الامبراطورية بمعنى الكلمة ، على حين أنهم ظلوا من جانبهم على صلة بالتطورات التى كانت تتم فى الغرب وبخاصة فى مجال الدين ، وهو ما كان

---

(١) أحمد رفيق : تورك ادار سنده بلغارستان •

(٢) انظر الجزء الأول •

(٣) دائرة المعارف الاسلامية : مادة بلغاريا • ولم تخترع الأبجدية البلغارية فى ذلك الوقت ، انظر ستين ، ١٥٣ •

أمرا طبيعيا في الوقت ذاته • ومن الأمثلة البارزة الهامة على هذا الاهتمام ما نستشفه من حياة سيريل لوكاريس Cyril Lucaris الكريتي الذى تجول في ايطاليا وزار جنيف ثم أصبح بطريركا للاسكندرية والقسطنطينية على التوالى (وقد تولى بطريركية الأخيرة في عام ١٦٢١) ، وفي جنيف وقع لوكاريس تحت تأثير كلفن وعاد الى المشرق تحدوه رغبة في اصلاح الكنيسة الإرثوذكسية وفقا لما قام به كلفن ، ولتحقيق هذا الهدف أرسل عددا من دارسى اللاهوت من اليونانيين الشبان لكى يتلقوا دراساتهم في سويسره وهولنده وانجلترا وفي عام ١٦٢٩ نشر « اعترافا » عرض فيه وجهات نظر كلفنية مستترة تحت مسوح أرثوذكسية ـ وقد أثار هذا الكتاب غضبا ليس فقط في المللت الأرثوذكسي ، بل أيضا في أوروبا حيث ترجم في أسرع وقت الى عدة لغات • وكان لوكاريس ، باعتباره بطريركا في وضع قوى وان يكن قد فشل في التأثير على كثير من مرءوسيه وكان عليه بالاضافة الى ذلك أن يواجه معارضة بعض ارساليات الجزويت الذين كانوا يفضلون خطأ الأرثوذكس الوحيد على كتيبة من البروتستانت ، وفي عام ١٦٢٧ اتهم لدى مراد الرابع بتدبير مؤامرة بهدف تحريض القوزاق على القيام بالثورة وأعدم • ورغم ذلك فان مسألة اصلاحه المقترح ظلت تثير الخلافات في الكنيسة الأرثوذكسية طيلة القرن السابع عشر (١) •

وأخيرا أدينت عقيدته بصفة نهائية في عام ١٦٩١ ، ولو أن الجدل الذى أثارته قد أثبت جدواه غير المحدود بالنسبة الى المذهب الأرثوذكسي . فمن ناحية أرغم الأرثوذكس على اعادة النظر في موقفهم

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : art. Orthodox Eastern church يورجا ، جـ ٤ ، ص ٢٣ ـ ٣١ •

وبذلك عادت الحيوية الى عقيدتهم ، ويقال ان « الاعتراف » الذى أصدره مجمع القدس فى عام ١٦٧٢ متضمنا مقولات لوكاريس التى تم الرد عليه مادة مادة ، قد أصبح أهم بيـــان أدلت به الكنيسة الأرثوذكسية طيلة ألف عام (١) • ومن ناحية أخرى فانه حول عن المذهب الأرثوذكسى ذاته قدرا من الهجوم الذى شـــنته روما فى أوائل القرن السابع عشر وكان أغلبه صادرا عن الجزويت • كما أنه أدى من ناحية ثالثة ـ الى قيام تعاون أوثق مما كان قائما حتى ذلك الوقت بين هيئة رجال الدين فى الامبراطورية وفى روسيا (٢) • أما الهجوم الكاثوليكى فسنتناوله بالتفصيل فيما بعد حين نعرض لوضع الذميين الكاثوليك • ونكتفى هنا بالقول بأنه رغم أنه لم يلق سوى نجاح قليل جدا فى تحقيق هدفه الرئيسى ، فانه أدى الى تغلغل الأفكار الأوربية فى الشريحة العليا من المجتمع اليونانى ، مما ترتب عليه بدء « تغريب » اليونانيين قبل تغريب العثمانيين المسلمين الذى تلقوا قســـطا أكبر من التعليم بحـوالى قـرن من الزمان (٣) • وهكذا فمنذ الفترة الجديدة التى بدأها صلح قارلوفجه (١٦٩٩) كان اليونانيون على استعداد لأن يلعبوا دورا تزداد أهميته فى أسلوب حكم أملاك السلطان •

---

(١) دائرة المعارف البريطانيه

art. : Lucaris, Cyrillos — art. Jerusalem, Synod of

(٢) انظر يورجا ، جـ ٤ ، ص ٣٠ عن اجتمـــاع رجال الدين اليونانيين والرومانيين والروس فى عام ١٦٤٤ للاشتراك فى اعتراف بيتر موفيلا Movila ولتحديد موقف الكنيسة الروسية فى كييف وبطريركية موسكو • انظر أيضا نفس المصدر ص ١٧٣ فيما يتعلق باتصالات أخرى •

(٣) أصبح من المالوف بالنسبة الى الطلبه اليونانيين أن يلتحقوا فى القرن السابع عشر بالكليات التى أنشئت لهم فى كل من روما والبندقية • وتلقى آخرون دراســـاتهم فى بادوا ونابولى والجزر الأيونية • انظر يورجا ، جـ٤ ، ص ٢٠ عن البعثات التى أرسلها لوكاريس الى ألمانيا وسويسرا وانجلترا ـ انظر ما سبق •

ويسجل صلح قارلوفجه نقطة تحول بالنسبة الى التاريخ العثمانى · فلم يقتصر أمره على أنه نص للمرة الأولى على التنازل لدولة مسيحية عن مساحات شاسعة فى أوروبا ، بل انه جعل الامبراطورية العثمانية ، التى استطاع حكامها حتى ذلك الوقت أن يفعلوا ما يحلو لهم ، تركن فى المستقبل الى التغييرات التى كانت تحدث فى السياسات الأوروبية · وكانت كل هذه التطورات من الأهمية بمكان بالنسبة الى الذميين وبخاصة الأرثوذكس - اذ تضمن أول هذه التطورات أن كل العالم الأرثوذكسى (باستثناء روسيا على طول الخط) لم يعد عثمانيا فى حين أرغم التطور الثانى الباب العالى على بحث السياسة الخارجية على ضوء جديد وعلى أن يلجأ الى رعاياه الأكثر فهما للشئون الأوروبية لكى يقدموا له المساعدة (١) · حقيقة ان اليونانيين الذين طلب منهم أن يمدوا يد المساعدة فى أجراء المفاوضات مع الدول الأوروبية كانوا ينتسبون الى فئة صغيرة جدا تسكن حى الفنار فى استنبول (٢) وأن الوزراء والموظفين المسلمين اعتبروا الخدمات التى كانوا يضطلعون بها ، باعتبارهم مترجمين ، من النوع المهين بحيث لا نكاد نحس بوجودهم حين نقرأ الحوليات التركية ، الا أن أهمية الفناريين المتزايدة قد تحققت الى حد ما على حساب الملل ككل ، ثم كان من دلالاتها أن قررت الحكومة منذ عام ١٧١٦ تعيين فناريين هسبودارات لولايتى الدانوب ·

---

(١) وحتى قبل الحصار الثانى لفينا لعب يونانى هو بانايوتس نيكوسيوس Panagiotes Nikussios دورا هاما فى السياسة الخارجية العثمانية · الا أن اسكندر مافروكورداتو Mavrocordato الذى اعتاد الصدر الأعظم رامى باشا أن يستشيره فى أوائل القرن الثامن عشر كان أبرز الفناريين الأول · انظر يورجا ، ج ٤ ، ص ٢٨١ - ٢٨٣ وما بعدها ·

(٢) انظر يورجا ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ ، أيضا ص ٢٨٢ · وكان ما لا يزيد على حوالى خمسين أسرة من الثراء بحيث أمكنها أن تؤكد ذاتها · وكانت تعتمد على النشاط البنوكى فى تكوين ثرواتها ·

ويصلح قاروفجة فقد السلاطين المجر وترنسلفانيا وبودوليا الى الأبد ، ولكن استيلاء البندقية طبقا للصلح على المورة لم يدم طويلا فقد ظل قائما حتى عام ١٧١٨ حين قضت عليه معاهدة بساروفتز • على أن البندقية كانت لا تزال تضع يدها على أراض فى ألبانيا ودلماشيا كانت قبل ذلك تابعة للدولة العثمانية • يضاف الى هذا أن نفس هــذا الصلــح منح النمسا منطقة بلغراد وولاشيا الصغرى وهما المنطقتان اللتان فقدتهما بدورها فى صلح بلغراد الموقــع فى عــــام ١٧٣٩ • ولكن ما حل ذلك الوقت حتى كانت الكارثة قد حلت من وجهة النظر العثمانية : فقد ذاق اليونانيون والصربيون والرومانيون حلاوة الحكم الأجنبى (١) ، ورغم أنهم لم يستجيبوا له بوجه عام بأى شكل فان التجربة كانت تثير القلق : اذ تراءى لهم احتمال الاستقلال (٢) • وكان هذا شيئا جديدا ــ فباستثناء ما حدث خلال سنوات الفتح الأولى لم تبذل الشعوب البلقانية على الاطـــلاق أى محاولة جدية للتحرر من الحكم العثمانى • ولم يحدث هذا لمجرد كونهم خلال فترة ازدهار الدولة وقوتها من الضعف بحيث لا يمكنهم

---

(١) يورجا ، ج ٤ ، ص ٣٢٦ وما بعــــدها • كان كل من يونانيى المورة ورومانيى ولاشيا الصغرى يكرهون الحكم البندقى والنمساوى على التوالى ــ فكان كره يونانيى المورة للحكم البندقى راجعا الى حد كبير الى نشاطات البنادقة الخاصة بفرض المذهب الكاثوليكى وتدخلهم فى العلاقات التجارية راسخة القدم والى الضرائب العالية الكاثوليكى وتدخلهم فى العلاقات التجارية راسخة القدم والى الضرائب العاليــة التى كانوا يفرضونها والى سياساتهم الخاصة بالاستيطان ــ أما كره رومانيى ولاشيا للحكم النمساوى فمرجعه أن النمسويين فرضوا ضرائب منتظمة كانت تثقل كاهل السكان • ومن ناحية أخرى فان الصربيين انتعشوا فى ظل الحكم النمساوى خلال هذه الفترة ورحبوا به •

Miller, The Ottoman Empire and its Successors, p. 24.

ويعترف ملر بأن الحكم النمسوى كان مكروها خلال الفترة التى اســـتمر فيها ، ولكنه يسجل أنه كان أحسن بالفعل من الحكم العثمانى •

القيام بذلك : اذ يبدو فى الواقع أنهم رضوا بقدرهم على نحو ما لأنهم كانوا يلقون معاملة عادلة . ولكن حدث خلال القرن السابع عشر أن حلت الفوضى المتزايدة بادارة الولايات فى كل أجزاء الامبراطورية. فالباشوات ومرءوسوهم الذين كانوا يرغمون على دفع مبالغ كبير لشراء مناصبهم ، قاموا بالضغط على الفلاحين ، من المسلمين والمسيحيين على حد سواء محاولين تعويض ما دفعوه .

كما عانت الولايات الأوروبية كثيرا من المتاعب في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر نتيجة لأعمال التخريب التى كانت ترتكبها الجيوش العثمانية التى كان نظامها بحلول ذلك الوقت قد اضطرب الى حد كبير . وينطبق هذا بوجه خاص على بلغاريا التى كانت القوات المتجهة شمالا من استانبول تضطر الى عبورها . وحين عاد الحكم العثماني الى المورة حاول الباب العالى من جديد أن يعيد اسكانها بعد أن كانت قد فقدت أعدادا كبيرة من سكانها خلال الحروب ، فجلب اليها ألبانيين ثبت أنهم جيران لا يكنون ودا لليونانيين (١) . ومن النتائج الهامة لمختلف هذه الأحداث تشجيع الذميين الأصلب عودا على اللجوء الى اللصوصية وقطع الطرق ، وهو أسلوب حياة كانت جغرافية المنطقة تشجع باستمرار على ممارسته . وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء اللصوص اسم Klefts وأطلق عليهم السلاف اسم Hayduk (٢) . وكان هدفهم الرئيسى هو اللصوصية ، الا أنهم واجهوا أعداء طبيعيين تمثلوا فى القوات العثمانية التى كانت ترسل بين وقت وآخر لوضع حد لنشاطاتهم التى كان من محركاتها تشجيع الدول الأجنبية ـ وبالتدريج اتخذت هذه النشاطات طابعا سياسيا : فأعمال السطو والعنف التى كانوا

---

(١) دائرة المعارف البريطانية : art. Greece

(٢) دائرة المعارف البريطانية art. Bulgaria — Haydut فى اللغة التركية

يقترفونها كانت تعتبر فى ذلك الوقت من أشكال الثورة الشرعية ، بل المقدسة ، ضد طغيان سادتهم العثمانيين • وطبقا لنظام الملل كان السلاطين قد سمحوا للذميين المحليين بقدر كبير من الحكم الذاتى ، وكان رؤساؤهم الذين يمثلونهم يعرفون باسم الخوجة باشيه (كبار المسنين) الذين يبدو أنهم كانوا يمارسون عملهم بالتعاون مع الصوباشية • ولكى يواجهوا اللصوص (الكلفت والهايدوك) اتبعوا أسلوبا مماثلا ، اذ كانوا يجندون عصابات من الذميين الموالين الذين كان يتم جمعهم من القرى التى تكون قد عانت من المغيرين • على أن بعض رجال هذه العصابات المسلحة كانوا ، اذا ما واجهوا قليلا من الاستفزاز ، على استعداد مستمر للانضمام الى اللصوص الذين خرجوا لقمعهم ، وحين تحرك الشعور « القومى » لدى الشعوب الذمية ازداد ضعف الثقة فيهم •

ويتضح من عرضنا السابق أنه لا يمكن اعتبار الملت الأرثوذكسى هيئة منسجمة بأى حال من الأحوال ، فبالاضافة الى الخلافات الجنيسية التى جرى تجاهلها من الناحية العملية كان الفناريون اليونانيون الذين تولوا رئاسته يختلفون فى وضعهم تماما عن أعضائه الآخرين • ومنذ حوالى أواسط القرن السابع عشر ، وبخاصة بعد صالح قارلوفجه ، تصدوا بوجه عام لأى محاولة للقضاء على الحكم العثمانى لصالح دولة أجنبية ، اذ استهدفوا بدلا من ذلك تحسين وضعهم فى داخل الدولة والسيطرة عليها فى نهاية الأمر وتحويلها الى امبراطورية بيزنطية بعثت من جديد • ولتحقيق هذا الهدف سعوا الى تعزيز مكانة كل من الكنيسة الأرثوذكسية وولايتى الدانوب والى تسخير نفوذهم فى مجال الدبلوماسية العثمانية لتحسين توجيهها (١) • ولقد بذل الفناريون خلال القرن التاسع عشر كثيرا

---

(١) ، جـ ٤ ، ص ٢٨٠ وما بعدها •

من الجهد لتحقيق هذه الأهداف • على أنهم لم يتابعوها باخلاص : فقد اتجهوا أحيانا الى المشاركة فى الخطط الأجنبية ، وبخاصة الروسية ، الخاصة بالتوسع كما استهدف القياصرة احياء الامبراطورية البيزنطية بشرط أن يعتلوا هم عرشها دون منازع (١) ـ ولما كان الأرثوذكس العثمانيون ورجال الدين الروس قد استبقوا هذه العلاقات فقد مال الفناريون الى هذه الخطة أحيانا بهدف تحسين أحوالهم وذلك بدلا من محاولتهم تنفيذ خططهم الخاصة ، مما أدى الى القضاء على مكانتهم لدى المسلمين • ورغم ذلك فقد حسن اليونانيون وضعهم الى حد كبير خلال القرن الثامن عشر داخل كل من الحكومة العثمانية والمللت اليونانى ، وبالتالى عمل منهم فى الادارة العثمانية عدد يفوق من عملوا فيها من قبل ، وتعززت قبضتهم على المللت الى حد كبير نتيجة لتعيين كهنة يونانيين فى كل مكان (٢) • فقد ألغيت بطريركيتا ايبك وأوخريدا بالفعل فى عامى ١٧٦٦ و ١٧٦٧ (٣) بحيث لم تبق حينئذ سوى بطريركية

---

(١) تشكل هدف القياصرة هذا خلال القرن السابع عشر ، وقد لفت أحد البولنديين نظر الباب العالى اليه • يورجا ، ج ٤ ، ص ١٧٥ ـ ٥ •

(٢) دائرة المعارف البريطانية : art. Greece

(٣) نفس المرجع السابق art. Orthodox Eastern Church وقد تنازل آخر بطاركة أوخريدا من تلقاء نفسه ، سنتين ١٤٧ • وألغى كرسى ايبك بالقوة فى مقابل أن يدفع البطريرك المسكونى ٦٥٠٠٠ أقجه للباب العالى ـ نفس المرجع ، ص ١٧٦ ـ ٧ • وقد استلزم الغاء هذه الدائرة الكنسية أن يتقدم فلاديكات Vladikas الجبل الأسود بطلباتهم الى بطريركية قارلوقجة ـ وبعد ذلك كان عليهم أن يقدموا الى بطرسبورج وفى النهاية الى بلغراد • نفس المرجع ، ص ١٨١ • وفى ذلك الوقت أيضا اعتاد بطاركة الاسكندرية أن يقطنوا استنبول وكان يعينهم البطريرك المسكونى دون الرجوع الى رغبات رعاياهم (الاسميين) ـ نفس المرجع ، ص ١٣٠ • كما كان بطاركة أنطاكية يختارون من بين كهنة القسطنطينية فيما بين عامى ١٧٢٨ و ١٨٥٠ • نفس المرجع ، ص ١٣٤ • ومن ناحية أخرى كان بطاركة القدس يقومون عادة بتعيين من يخلفونهم • نفس المرجع ، ص ١٣٧ •

أرثوذكسية واحدة فى الولايات الأوروبية وهى البطريركية المسكونية ·

ولو أن الفناريين تابعوا باصرار سياساتهم الخاصة بالتوصل الى السيطرة التدريجية على الامبراطورية ولو تصرفوا بنزاهة تمكنهم من احراز ثقة المسلمين ومن ادخال اصلاحات ملموسة فى الادارة لربما أمكن تحقيق آمالهم · أما فيما يتعلق بالنزاهة فقد كانوا يحصلون على نفوذهم بالرشوة المعقولة ، أما فيما يتعلق بالمتابعة فلم يكونوا يستطيعون باستمرار أن يقاوموا توددد الدول الأجنبية · وحتى تاريخ نهاية فترتنا لم يكن الشعور القومى الذى ثبت فى نهاية الأمر انه يلحق الضرر بسياستهم قد تغلغل كثيرا فى الملت ككل · الا أن الادارة المحلية تدهورت بصورة منتظمة بحيث أصبحت الثورات المحلية أكثر شيوعا ووفرت ظروفا مثالية للدعاية الأجنبية التى كانت تحض على رفع لواء الثورة · ولهذا فطالما كان الفناريون ينحازون الى جانب الحكومة العثمانية فيما يتعلق بجهودها الساعية الى السيطرة عليهم فانهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن التفاهم مع الذميين القاطنين فى الولايات الذين كان يغريهم عجزها أو طغيانها أو تحريض عملاء الدول الأجنبية أو كل ذلك برفع لواء الثورة · وكان الذميون الأكثر تأثرا بالتحريض الأجنبى هم سكان شمالى الصرب وبعض البلغاريين · وفى البداية كان هؤلاء يفضلون النمساويين رغم كونهم كاثوليك · ولكن حين جردت معاهدة بلغراد النمساويين من فتوحاتهم تحولوا الى روسيا التى كان بطرس الأكبر قد أعاد حيويتها فى الماضى القريب (١) · وعلى أى حال كانت دعاية القياصرة قد أصبحت أكثر جاذبية من دعاية النمسا نظرا لأن روسيا كانت أرثوذكسية ، وخلال فترتنا استطاعت أن تتغلغل كثيرا فى

---

(١) دائرة المعارف البريطانية · art. Bulgaria

أجزاء عدة من شبه جزيرة البلقان وبخاصة خلال السنوات الأخيرة من فترة السلام • على أن نجاحها ألحق ضررا شديدا بهدف الفناريين الخاص بتعزيز نفوذهم في الامبراطورية بالشكل الذى يمكنهم فى النهاية من السيطرة عليها • فلم يكن يتسنى لهم تحقيق هذا الهدف الا اذا جعلوا المسلمين لا يستغنون عنهم في وقت كان يتميز بالبغض الشديد للمسيحيين • وكلما ثبت عدم ولاء أعضاء الملت وجد هذا الكره ما يبرره كما وجد حافزا لتقويته • وكانت السياستان الخاصتان بالسيطرة على الامبراطورية وبالهرب منها أو القضاء عليها غير منسجمتين – وكان محكوما على أول هذين الهدفين بالفشل لأنه لم يلق متابعة خالصة •

وقد شهدت فترة اضمحلال الامبراطورية العثمانية ككل اضمحلال الملت اليهودى في داخلها • وكانت السنة الألف للهجرة نقطة تحول بالنسبة الى كلا الطرفين ، اذ كان كل منهما قد حقق أقصى درجة من الرخاء قبل هذا العام مباشرة • وهناك نموذج لهذا يتمثل فى حياة يهودى أسبانى (مارانو) هاجر من البرتغال اسمه جوزيف ناسى • وقد استطاع هذا الشخص فى أواخر عهد سليمان القانونى الحصول على حظوة لدى السلطان مكنته من طلب تدخله لدى البابا لصالح أبناء دينه (١) ولدى هنرى الثانى ملك فرنسا وأبنائه لصالح ناسى ذاته الذى كانوا مدينين له (٢) • وازداد نفوذ ناسى فى عهد خلف سليمان ، سليم الثانى ، اذ حين كان ارتقاء الأمير سليم العرش أمرا مشكوكا فيه سانده ناسى الذى كافأه سليم بمنحه ثقة لا حد لها (٣) بحيث أصبح موضع حظوة السلطان والتمس

---

(١) Gallanté, Turcs et Juifs, 13 : Graetz IV, 14-15, 633. Franco, 57

(٢) Franco, 60, 62-65; Gallanté, loc. cit.

(٣) Graetz, IV, 632 ff. 650 ; Franco. 55. 61. 62 65-66.

راجع دائرة المعارف الاسلامية art. Selim II

أهم عواهل أوروبا وساطته لدى السلطان • ونصب دوقا لناكسوس واثنتي عشرة جزيرة من جزر السيكلاد وكان من وراء اعلان الحرب على البندقية ، بل كان يأمل أن تؤدى هذه الحرب التى تمخضت عن استيلاء الدولة على قبرص ، الى تنصيبه ملكا على هذه الجزيرة • الا أن الصدر الأعظم محمد صوقوللى أجهض مشروعات ناسى دون أن يكون مدفوعا بمشاعر لا سامية ، خاصة وأن أحد اليهود ، وهو سليمان بن ناثان ، اكتسب حظوة لديه وأمكنه هو الآخر أن يحرز نفوذا قويا في الدولة حتى بعد وفاة راعيه (١) • كما كانت السيدات اليهوديات في ذلك الوقت موضع حظوة كبيرة فى الحريم السلطانى ، وذلك نتيجة لالمامهن بالطب (٢) • وقد ازدهر المللت نتيجة لرعاية هؤلاء الحماة ذوى النفوذ فى القصر • فما حل عهد سليمان حتى كانت التجارة بين البندقية واللفانت فى أيدى اليهود بمقدار ما كانت فى أيدى البنادقة (٣) ، وبحلول عهد سليم الثانى كان اليهود قد انتزعوا السيطرة على كل من تجارة الجملة فى الامبراطورية وتحصيل الجمارك (٤) •

على أن وفاة سليم الثانى وتولية مراد الثالث قد آذنتا بانتهاء نفوذ اليهود • ورغم سماح مراد لناسى بالاحتفاظ بمنصبه ورتبته فانه استبعده من الاشتراك بأى شكل في شئون الدولة (٥) : وحين توفى فى عام ١٥٧٩ صادر ثروته كما لو كان من القبوقولو (٦) •

---

(١) جراتز ، ج ٤ ، ص ٦٤١ وما بعدها •

(٢) نفسه ، ص ٦٤٧ ، ٦٦٩ ــ فرانكو ، ص ٧٢ ــ ٣ •

(٣) جراتز ، ج ٤ ، ص ٦١٦ •

(٤) نفس المرجع ص ٦٤٦ ــ ٧ •

(٥) نفسه ، ص ٦٦٥ ، ٦٦٨ ــ فرانكو ، ص ٦٦ •

(٦) دائرة المعارف اليهودية art. Turkey ، فرانكو ص ٧٢ •

كما تشدد السلطان فى طلب مراعاة القوانين الخاصة بتقليل النفقات وهى القوانين المستقاة من الشريعة والتى فسرت على أنها ترغم اليهود وغيرهم من الذميين على ارتداء ملابس خاصة (١) • وكان هذا دليلا على أنه كان مقيضا لليهود منذ ذلك الوقت أن ينحدروا الى الوضع الدونى المخصص فى نظر المسلمين المتشددين لغير المسلمين • وفى الواقع فما انتهى القرن السادس عشر حتى تزعزع رخاء المللت بسرعة بعد أن لم يتجاوز قيامه المائتى عام •

ولا شك أن هذا التصور كان مرتبطا بصفة جزئية باضمحلال نفوذ اليهود فى الدولة وهو النفوذ الذى كان أجدى فى هذه الأوقات التى شهدت ازدياد خراب الذمة منه فى أى وقت سابق • ولكن يبدو كذلك أنه كان مرتبطا بتغير طبائع اليهود ذاتهم • فالحرية والحظوة اللتان أحرزوهما فى ظل الحكم العثمانى لمدة تربو على قرن من الزمان قد أدتا الى انتعاش الروح القومى أو بالأحرى الى اشتداد ساعد التضامن اليهودى المعروف • وقد تمثل هذا بصورة أو بأخرى خلال القرن السادس عشر فى حركة كانت تسعى الى الاختيار المنتظم للحاخامات على يد هيئة مركزية لم يوجد لها مثيل منذ عدة قرون (٢) واحياء التقاليد الربانية والتلمودية على يد طبيب فلسطينى (٣) ، كما تمثل فى انتعاش الآمال بقرب ظهور المخلص (المسيح) وهى الآمال التى عززتها التعاليم النقلية التصوفية عند اليهود Kabbalistic (٤) • وقد استطاع النظام الصوفى

---

(١) نفسه ــ ويقال ان القانون قد صدر نتيجة لاستياء مراد من البذخ المفرط الذى كان يظهره اليهود الذين تراءى له ذبحهم فى بداية عهده •

(٢) جراتز ، جـ ٤ ، ص ٥٦٣ ــ ٧١ •

(٣) نفسه ص ٦٥١ •

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٥٦ وما بعدها •

السرى والرمزى لهذه التعاليم ، وهو النظام الذى نما كرد فعل ضد الأخذ العقلانى بالقانون الذى درج عليه الأصوليون من اليهود منذ القرن الحادى عشر ، أن يفى بشكل أو آخر بمتطلبات اليهود الدينية وهو ما حققه التصوف للمسلمين مما تمخض عن نفس المثالب : اذ أدى الى نمو مشابه للخرافات (١) • وظهرت فى النصف الثانى من القرن السادس عشر شخصيتان أعلن كل منهما أنه المخلص (المسيح) المنتسب الى بيت يوسف • وقد أثرا فى الناس بأعمالهما السحرية على نمط ما كان يفعله الأولياء الدراويش — وأدت تعاليم أحدهما المدعو اسحاق لوريا ليفى Isaac Luryalevi الى اعطاء دفعة قوية للاتجاه الصوفى المرتبط بقرب ظهور المخلص والتى أصابت نجاحا كبيرا وبخاصة فى المشرق (اللفانت) خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر والنصف الأول من القرن السابع عشر — ولم يقتصر أثرها على جماهير اليهود بل تعداهم الى المتعلمين • وقد أعلن لوريا أنه سيخلفه هو ورفيقه مخلص (المسيح) من آل داود ، وركز من تمرسوا بالحب القبالى على عام ١٦٤٨ باعتباره عام حدوث اعلان المبادىء (٢) • وخلال هذه الفترة ، وبالتحديد فى عام ١٦٢٦ ، ولد فى ازمير يهودى من أصل أسبانى اسمه شبتاى كان وهو شاب ، بعد أن درس تعاليم لوريا وفرض على نفسه انضباطا قاسيا ، قد أصبح على قناعة بأنه المسيح المنتظر • ومما يدعو الى الدهشة أن مما شجع شبتاى على التوصل الى معتقداته قناعته بأنه على علم بالأفكار السائدة فى انجلترا فى ذلك الوقت حول قرب حلول العدالة والسعادة على وجه الأرض — وكان والده قد عمل فى بيت تجارى

---

(١) كانت أهم مراكز الدراسة القبالية خلال هذه الفترة توجد فى سالونيك وصفد — جراتز ج ٤ ، ص ٤٣٢ •

(٢) نفس المرجع ص ٦٦ وما بعدها — فرانكو ، ص ٨٢ وما بعدها وص ٨٨ •

انجليزى مقره ازمير (١) • ولهذا جاهر بدعوته فى عام ١٦٤٨ ـ وبادر عدد من الناس الى الالتفاف حوله ولكنه لقى بعض المعارضة وان لم يحرز شهرة واسعة الا بعد أن زار مصر وفلسطين على أثر قيامه بعدة جولات • حقيقة لقد أعلن حاخامات الارض المقدسه حرمانه من الغفران ، الا أنه قوبل بعاصفة شديدة من الحماسة بعد أن عاد الى ازمير في الوقت الذى انتشرت فيه نبوءة مفادها أن العام التالى سيشهد قيام المملكة المنتظرة التى تنبأ بها سفر الرؤيا • وما حل ذلك الوقت حتى كانت شهرته قد انتقلت من المشرق الى بعض المراكز التجارية الكبرى في الغرب : البندقية ، امستردام ،هامبورج، لندن ، وحينئذ كانت شهرته قد ذاعت باعتباره صاحب معجزات بحيث اجتذب أتباعا من المسلمين ، مما أدى الى القبض عليه فى أوائل عام المصائب والموت وذلك لدى وصوله الى استانبول حيث احتجزته السلطات ثم نقلته الى جناق قلعة (٢) • وأخيرا ازاء عدم هدوء مشاعر العامة ، جىء به الى السلطان محمد الرابع فى أدرنة • ومن المؤسف بالنسبة الى آمال أتباع شبتاى أنه لم يكن بطلا : فقد خشى السلطات الاسلامية بحيث اعتنق الاسلام مما أدى الى سخط شديد فى الدوائر اليهودية التى انهار اعتقادها بقرب قيام المملكة الالهية الموعودة وهو الاعتقاد الذى كان قد سيطر عليها لمدة قرن من الزمان • ورغم ذلك فقد تشبث كثير من أتباع شبتاى بآمالهم ـ

---

(١) كانت الجالية الانجليزية أكثر الجاليات الأجنبية المقيمة فى ازمير نفوذا • وقد بذل أعضاؤها كثيرا من الجهود لتحسين الأوضاع الاقتصادية والثقافية فى المنطقة ـ انظر دائرة المعارف الاسلامية art. Izmir راجع يورجا ج ٤ ، ص ٢٦ ، ص ٣٦٥ •

(٢) كان هذا هو معنى الأبيدوس فى الروايات المذكورة • وكانت أبيدوس قد أصبحت خرائب قبل حلول القرن السابع عشر بوقت طويل ، وحلت محلها جناق قلعة باعتبارها المدينة الرئيسية على الساحل الآسيوى للدردنيل ـ انظر :
I'lam Ansiklopedi art. Çanakkale.

وبعد وفاته فى عام ١٦٧٦ حولوا ولاءهم الى صهره الشاب واسمه يعقوب ، الذى أدعت أرملته أنه ابنه • وكانت سالونيك هى مركز انتعاش الحركة وكان يعيش فيها يعقوب الذى كان هو الآخر يقوم بنشر مبادىء النظام الصوفى السرى والرمزى الذى جاء به لوريا بحيث لقى التقديس باعتباره المسيح بل وباعتباره تجسيدا لله • على أن الفضائح الناتجه عن مبدئه الخاص بالطلاق أدته الى تعرضه لاجراء السلطات العثمانية تحقيقا معه ، واقتدى يعقوب بسلفه فى اعتناق الاسلام بهدف تجنب العقوبة • ولكنه يختلف عن شبتاى فى افادته من اعتناق الاسلام وسيطرته على أتباعه بالصورة التى جعلته يجتذبهم الى آرائه • وهكذا خرجت الى حيز الوجود فرقة دينية جديدة نصفها يهودى ونصفها الآخر اسلامى ، وهى الفرقة التى قيض لها البقاء ، وعرفت فى التركية باسم الدونمة (بمعنى المتحولين عن دينهم) • وكانت عقيدتها قبالية وان تكن طقوسها الدينية ذات ملامح اسلامية ويهودية فى نفس الوقت ، مع تردد أتباعها على المساجد وعلى أماكن عبادتهم ومراعاتهم للعطلات الاسلامية واليهودية • وقد نظم أتباع العقيدة الجديدة أنفسهم فى مللت لم يتم الاعتراف به ــ ومما يدل على ذلك أن أكبر موظفيهم الدينيين كان يقوم بتطبيق القانون عليهم ، وحتى فترة دراستنا كانت توجد جماعتان رئيسيتان احداهما فى سالونيك والأخرى فى ازمير • على ان أعدادهم لم تكن كبيرة فى أى وقت (١) •

وهكذا أدى انتعاش الآمال بقرب ظهور المخلص (المسيح) فى أوساط اليهود الى ظهور طائفة جديدة لم تحرز أى أهمية فى المستقبل • الا أن هذا لم يكن أهم ما تمخضت عنه ، وحتى مجىء

---

(١) فرانكو ص ٩٤ ــ ١١٤ ، دائرة المعارف البريطانية art, Sabatai Sebi دائرة المعارف الاسلامية • art. Dönme. •

الوقت الذي انهارت فيه هذه الآمال يبدو أن تعزيز التصوف القبالي الذي قامت عليه قد أدي الى زعزعة توازن المللت ككل • ولا شك أن ازدياد تزمت المسلمين وفساد نظمهم هما اللذان أديا الى فقدان اليهود للنفوذ وما ارتبط بذلك من رخاء وهو ما تمتعوا به خلال القرن السادس عشر • ولكن يبدو أن الاعتقاد بقرب ظهور المخلص هو الذي أدى الى ذلك بحكم أنه ركز انتباههم على آمال وهمية وشجع على نمو الخرافات على حساب الثقافة • وعلى أي حال فانهم لم يعودوا يتمتعون بالازدهار الذى تحقق فى السابق (١) • كما أن اضمحلال رخاء الامبراطورية في الوقت الذى تحسنت فيه أوضاع اخوانهم فى الدين فى بعض أجزاء أوروبا مما جعلهم غير راضين عن سكنى أملاك السلطان (٢) • ورغم ذلك فحتى فترة دراستنا كان أفراد من اليهود يتمتعون أحيانا بنفوذ كبير فى استانبول (٣) ، ويبدو أن الطائفة

---

(١) فرانكو ، ص ١١٨ ـ جراتز ، ج ٤ ، ص ٦٧٠ • يذكر ريكو فى معرض كلامه عن اليهود العثمانيين (أواخر القرن السابع عشر) أن الأتراك كانوا يعتبرونهم فى ذلك الوقت نفاية العالم ، وكان احتقارهم من الشدة بحيث يستبعد اليهود الذين تحولوا الى الاسلام من الدفن فى مقابر المسلمين • ولكن يحتمل أنه استقى وجهات نظره من المسيحيين المحليين الذين لم يكن بينهم وبين اليهود أى حب مفقود • عن بعض المؤامرات المسيحية ضـــد اليهود راجع جالانتى ، ص ١٦ وما بعدها •

(٢) كانت توجد هجرة الى أماكن منها النمسا وبخاصة بعد معاهدة بساروفتز الموقعة فى عام ١٧١٥ ، وذلك رغم أن المهاجرين كانوا يحتفظون أحيانا بالجنسية العثمانية ـ فرانكو ، ص ١١٩ •

(٣) على سبيل المثال فونسيكا **Fonseca** طبيب أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ٣٠) ـ انظر فرانكو ، ص ١١٧ ـ ويهودا باروخ كبير الصيارفة فى عهد مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ٧٣) ـ نفس المرجع ، ص ١٢٠ •

ككل ظلت تحتكر قسطا طيبا من الصناعة والتجارة (١) ولم تعان الا من المهانة التى كان يتضمنها التطبيق المتقطع للقوانين الخاصة بتعديل النفقات وهى القوانين التى ارتبطت بوضعهم الدونى باعتبارهم ذميين . والحق أنهم احتلوا مكانة هامة بصورة غير عادية دلالين للمعادن الثمينة ، وفى خلال النصف الأول من القرن الثامن عشر احتكروا التزام الجمارك ولو أن اتاوات على بك ألحقت بهم ضربات شديدة أهمها تلك التى نتجت عن استيلاء المسيحيين السوريين على ادارة الجمارك فى عام ١٨٦٩ (٢) .

ولا يوجد لدينا الكثير مما يستحق الذكر خلال فترة الاضمحلال فيما يتعلق بملت الأرمن وكل الطوائف المسيحية الأخرى (سواء أكانوا لا يزالون يعتبرون منتسبين اليه أم لا) . وذلك باستثناء ملاحظة التقدم الذى أحرزته احدى الطوائف وهى الطائفة الكاثوليكية على حساب معظم ، ان لم يكن كل ، الطوائف الأخرى . وكان هذا التقدم مرتبطا بعاملين هما : (أولا) النفوذ الذى حصلت عليه فرنسا فى الدولة العثمانية منذ أول اتفاقية للامتيازات الأجنبية

---

(١) فرانكو ، ص ١١٥ - يروى عن راهب فرنسسكانى اسمه ميشيل فيبر Febvre كان قد أقام ثمانى عشرة سنة فى الامبراطورية العثمانية خلال النصف الأخير من القرن السابع عشر أن اليهود كانوا يوجدون فى أيامه فى كل المراكز الكبرى بصفتهم بنوكيين وبائعى نقود وساكى عملات ومقرضين وغازلى خيوط الذهب وتجارا للسلع المستعملة وموظفين ودلالى أسواق وأطباء وصيادلة ومترجمين . وقد وضعوا أنفسهم فى موضع جعل التجار من كل لون عاجزين عن الاستغناء عنهم بمن فى ذلك منافسوهم اليونانيون والأرمن وكانوا من التضامن بحيث لم يجرؤ أحد على محاولة الانتقام ممن لا يتصفون بالأمانة وذلك حتى لا يقاطعه الآخرون .

(٢) انظر ما يلى :

بين فرنسوا الأول وسليمان (١) ـ (ثانيا) قيام البابا جريجورى الخامس عشر فى عام ١٦٢٢ بانشاء « هيئة الدعاية للعقيدة » Congregatio de propaganda Fide التى كان الهدف منها ارشاد البعثات التبشيرية الكاثوليكية · ولولا فرنسا لكان الكاثوليك من الضعف فى مواجهة العداء الذى كان يثيره التحول الى المسيحية بحيث لا يغرى بمتابعته بنجاح ، ولم يحدث حتى انشاء « هيئة الدعاية » أن نظمت نشاطاتهم التبشيرية واتسع نطاقها · وكانت الهيئات الدينية التى قامت بالكثير هى الجزويت والفرنسسكان وبوجه أخص الكابوشيون (٢) · ويبدو أن الجزويت كانوا نشطين بوجه خاص فى العاصمة حيث قاموا بنشاط كبير فى أوساط سكان غلطة وبيرا الذين كانت تزداد أعدادهم باستمرار (٣) وذلك رغم طردهم بصفة مؤقتة نتيجة لضغط سفراء الدول البروتستانتية (٤)·

---

(١) على أن حماية ملك فرنسا للمسيحيين اللاتين فى الامبراطورية العثمانية لم ينص عليها بصورة نهائية للمرة الأولى الا فى امتيازات عام ١٦٧٣ وتلت ذلك حقوق حماية مشابهة للمسيحيين بوجه عام منحت لانجلترا فى عام ١٦٧٩ ، كما منحت النمسا حماية المسيحيين الكاثوليك فى صلح قارلوفجه فى عام ١٦٩٩ ـ جراف ، جـ ٣ ، ص ٢٢ · وكان النمسويون نشطين بوجه خاص فى حماية الكاثوليك السوريين ـ (نفسه ، ص ٥٧) والأقباط الموحدين (نفسه ، ٧٥) هذا فضلا عن كاثوليك البلقان ·

(٢) فى عام ١٦١٩ تم الاعتراف بالفرع الكابوشى من الفرنسسكان وهو الفرع الذى أنشىء فى أوائل القرن السادس عشر ، باعتباره تنظيما منفصلا ـ عن دعايتهم التبشيرية انظر جراف جـ ٤ ، ص ١٩١ وما بعدها وعن الدعاية التى قام بها الجزويت انظر نفس المرجع ص ٢٠٦ وما بعدها ·

(٣) فى عام ١٦٢٨ ـ يورجا ، جـ ٤ ، ص ٢٧ ·

(٤) ازداد عدد الجالية بعد الفتح بوقت قصير وذلك نتيجة لتدفق اليونانيين واليهود والأرمن · وفى أوائل القرن السادس عشر بدأ المسلمون هم الآخرون يستقرون هناك ويحولون الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية على حد سواء الى مساجد · دائرة المعارف الاسلامية art. Constantinople يورجا جـ ٤ ، ص ٢١

وفى البوسنة والبانيا (حيث وصل بهم الأمر الى حد اثارة تمرد فى عام ١٦٣٨) (١) وعلى طـــول نهر الدانوب حيث كان يحـابيهم هسبودارات ولاشيا وملدافيا الذين كانوا لا يزالون من أبناء البلاد ، كان الفرنسسكان هم الذين يتزعمون هذا النشاط (٢) · كما وجه الفرنسسكان اهتمامهم الى بوجوميل جنوبى بلغاريا الذين تخلى عدد كبير منهم عن اخطائهم في عام ١٦٥٠ (٣) ، في حين أحرز الكابوشيين نجاحا كبيرا فى جزر الأرخبيل (٤) · وحتى ذلك الوقت كان معظم هؤلاء المبشرين من الايطاليين الذين انتسب معظمهم الى دويلات وسط ايطاليا وجنوبيها · الا أن لويس الرابع عشر سعى الى خلع الزعامة على الأعضاء الفرنسيين فى تنظيمى الفرنسسكان والدومينيكان · وحتى ذلك الوقت كانت السياسة الفرنسية ، فيما يتعلق باهتمامها بالشئون الدينية ، تتجه بوجه خاص الى ضمان حصول فرنسا على حماية كل الكاثوليك القاطنين فى الامبراطورية أيا كانت جنيساتهم · الا أن « الملك العظيم » الذى كانت قضية الجزويت ذات أهمية خاصة بالنسبة اليه ، وبخاصة فى أواخر حياته ، أبدى رغبته فى أن يسهم فى اجتذاب المنشقين الى المذهب الكاثوليكى · ولم يكن من السهل التوفيق بين هذه السياسة وبين الاتجاه الى استدامة علاقات الصداقة الخاصـــة مع الباب العالى وهى العلاقات التى كان يتوقف عليهـا الاعتراف بحق فرنسا فى حماية كل الأوربيين الذين لا يشملهم أى تمثيل دبلوماسى · فالمذهب الكاثوليكى كان يعتبر باستمرار الدين « الأجنبى » بمعنى الكلمة · ولـــكن توخيت العناية فى تجنب أبرز

(١) يورجا ، نفس المرجع ·

(٢) خلع هسبودار ملدافيا منصب أسقف على يونانى موحد ·

(٣) يورجا ، جـ ٤ ، ص ٢٠ ـ ٢١ ·

(٤) نفسه ، ص ١٩ ، وفر اعتناق كبير أساقفة رودس الأرثوذكسى للاسلام فرصة طيبة للدعاية الكاثوليكية ·

أسباب الاثارة : اذ صدرت التعليمات الصريحة للمبشرين لكى لا يسعوا الى تنصير المسلمين • وكان عليهم أيضا أن يسعوا سرا الى تنصير الأشخاص بدلا من السعى الى تنصير الطوائف بأسرها • وقد أمكن النص على هذه المبادىء بالتشاور بين الحكومة الفرنسية ورؤساء الهيئات الدينية فى فرنسا وممثل البابا •

وكان المذهب الكاثوليكى « أجنبيا » بوجه خاص : (أولا) لأنه حين تشكلت الملل كان أعضاؤها الوحيدون تقريبا فى الامبراطورية هم الأجانب من أمثال جنويى غلطة (ثانيا) لأنه كان حينئذ دين كل « الفرنجة » الذين شكلوا أبرز الأعداء التقليديين للاسلام • وظل السلاطين يكنون له كرها خاصا تمثل فى السياسة التى أتبعوها فى أقاليم الامبراطورية التى انتزعوها من الحكام «اللاتين» ، كالمورة والجزر وقبرص ، حيث انحازوا الى الأرثوذكسية على حسابه ، كما تمثل فى التشجيع الذى خلعوه على الكنيسة القبطية لكى تقطع علاقاتها بروما • وحين أقام الباب العالى علاقات مع الدول البروتستانتية قرب نهاية القرن السادس عشر سخر نفوذ هذه الدول بطبيعة الحال لتعميق هذا التحيز مما أدى الى حد كبير الى ابطال مفعول الميزات التى حصلت عليها فرنسا باعتبارها أولى الدول الأوروبية التى تحالفت مع الباب العالى (١) • ولم يحدث الا بعد ذلك بوقت طويل ــ بعد فترة دراستنا ــ أن باشرت مختلف الكنائس البروتستانتية نشاطا تبشيريا فى الامبراطورية العثمانية • وترتب على ذلك عدم تأثر علاقات الدول البروتستانتية بالباب العالى بهذا

---

(١) ظلت معظم الأسقفيات المرتبطة بها سرية ولم توجد أى خلافات بين البطريرك والأساقفة المساعدين الموحدين • وكان هذا راجعا الى الأسلوب الذى اتبعه الجزويت للحصول على أكبر عدد من الموافقات السرية بهدف اقامة حركة جدية فى الوقت المناسب : Dict. de Theologie Cath., Vol. X col. 519. (فيما يتعلق باليونانيين الموحدين) •

الصدد ، بالصورة التى تأثرت بها فيما يتعلق بفرنسا ، خلال الفترة التى كان فيها السلاطين لا يزالون سادة على أملاكهم لا ينافسهم فى سلطتهم أحد • على أن الدبلوماسية الفرنسية كانت تتميز بدرجة من المهارة أتاحت للمبشرين الكاثوليك فرصا واسعة لمتابعة أهدافهم بحيث ازدادت أعداد من أمكنهم اجتذابهم الى مذهبهم • ومن الصعب أن نقدر مدى قيامهم بتحويل الأفراد عن دينهم ، ولكن مما لا شك فيه أن من تخلوا عن دينهم قد جرى ضمهم فى كثير من الحالات الى الكنيسة « اللاتينية » المعتادة • على أنه حينما كانت توجد كنائس موحدة لها طقوس أخرى كانت عمليات التحول تتم فى كثير من الأحيان على حساب الجماعة المنشقة المعنية • وبالاضافة الى ذلك فرغم أن السياسة التى يفضلها المبشرون الكاثوليك بوجه عام كانت أميل الى تجنب العلنية الشائكة الخاصة بتحويل جماعات عن دينها ، تشكلت كنائس موحدة جديدة عن طريق الانشقاق عن الكنائس الأرثوذكسية والنسطورية واليعقوبية • وكان الأسلوب الأكثر اتباعا هو تشجيع تشكيل حزب من رجال الدين موال لروما وضمان انتخاب أحد هؤلاء لشغل كرسى بطريركية خالية (برغم عدم مصادقة السلطات المدنية على الانتخاب) ثم جعل الطائفة الموحدة الجديدة تلتف حول البطريركية الكاثوليكية الجديدة (التى لم تكن قد انتظمت بعد) •

ولن نحتاج الى أن نعرض هنا بالتفصيل للسخط الذى أثارته هذه السياسة فى الكنائس التى أصابها مثل هذا الهجوم وما ترتب على ذلك من صراعات بين رجال الدين وأنصار الشيع المتناحرة • وكانت ردود فعل البطريرك الجريجورى شديدة بوجه خاص وهو ما كان متوقعا فى حالة التحول الى الكنيسة الأرمنية الموحدة • وكانت وظيفته باعتباره مللت باشى تمكنه من مباشرة أشكال مختلفة من

الضغط على من تحولوا عن دينهم (١) · وقد ضمن له نفوذه فى الباب العالى قدرا كبيرا من الدعم الرسمى فى صراعه مع المبشرين الكاثوليك (٢) · حقيقة أن البطريرك الجريجورى أفديك Avedik استطاع فى عام ١٧٠٢ أن يتوصل ليس فقط الى طرد الموحدين الذين تخلوا عن عقيدتهم من أرمينيا الى فارس ، بل انه توصل كذلك الى اغلاق مدارس الجزويت فى الآستانة · ومن قبيل الانتقام جرى اختطافه على يد الوزير الفرنسى ثم وضع فى مركب فرنسى وجرى نقله الى فرنسا حيث توفى بعد خمس سنوات (٣) ·

وظل الأرمن الموحدون المقيمون فى القسطنطينية والأناضول والروميلى طيلة فترتنا يخضعون للادارة الروحية للقس الرسولى اللاتينى المقيم فى القسطنطينية · وفى عام ١٧٤٠ تم اختيار الأسقف الموحد لبطريركية سيس وكيليكيا ، ورغم أن البطريرك الجريجورى القانونى طرده وأرغمه على أداء مهامه من مقره فى لبنان فقد اعترفت به البابوية باعتبـاره رئيسـا لكل الأرمن الكاثوليك فى الولايات العربية وفى مصر (٤)· ومنذ ذلك الوقت تم تنظيم الكنيسة الأرمنية الموحدة بصفة رسمية وذلك رغم عدم اقرارها باعتبارها مللت الا فى عام ١٨٣٠ (٥) ·

---

(١) لأن الموحدين الذين تحولوا عن دينهم ظلوا فى آسيا واوروبا خاضعين للسلطة المدنية للبطريركية الجريجورية ·

(٢) عن موقف الحكومة العثمانية من تخلى الأرمن عن عقيدتهم فى عامى ١٦٣٠ ، ١٧٣٤ انظر جودت ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ·

(٣) قاموس اللاهوت الكاثوليكى ، جـ ١ ، عامود ١٩٠٩ فى مناسبة تالية فى عهد السلطان محمود الأول (١٧٣٠ ــ ٥٤) قام السفير الفرنسى بتهدئة غضب الجريجوريين بصورة أكثر حذقا De Rausas, i, 89

(٤) قاموس اللاهوت الكاثوليكى ، جـ ١ ، coll. 1911-12.

(٥) جراف ، جـ ٣ ، ص ٦٠ ·

ويشبه ذلك انبثاق الكنيسة اليونانية الموحدة ببطء من ثنايا المجادلات التي أثارها مجمع فلورنسه وجهود المنظمات الكاثوليكية في سوريا · ويبدو أن أول هيئاتها (١) الكنسية لم تتشكل الا في أواخر القرن السابع عشر · واستهلت أولى بطريركياتها أعمالها بمحاولة شغل الكرسي الخالي في أنطاكية في عام ١٧٢٤ ، وهو ما لقى الاعتراض الفوري من جانب المجمع في القسطنطينية ثم اشتبكت خلال السنوات المائة التالية في صراع مرير مع الأرثوذكس الذين حصلوا من جديد على مساندة الباشوات · ورغم ذلك فقد تمخضت المناقشة التي استندت الى مؤلفات جدلية نشطة والى العنف العلني ومعارك الشوارع عن نتيجة طيبة واحدة على الأقل من حيث أنها أثارت بعض النشاط الذهني لدى كلا الفريقين اللذين أنشأ كل منهما مطابع عربية في سوريا خلال القرن الثامن عشر ·

وقد بدأ انفصال الموحدين عن الكنيسة النسطورية في عهد سليمان وذلك لخلافات ثارت حول تولي منصب الجاثليق في عام ١٥٥١ (٢) · وقد اعترف البابا يوليوس الثاني في عام ١٥٥٣ بالبطريرك المنشق باعتباره بطريركا للكلدان ولكن قبض عليه بعد أن عاد الى ديار بكر وتوفى في السجن · وعلى أثر هذه النكسة أعيدت بطريركية الكلدان في ديار بكر في عام ١٦٧٢ واعترف بها

---

(١) استخدم المصطلح congregation هنا فيما يلي بالمعنى الانجليزي « مجموعة من الناس يجتمعون سنويا للعبادة » لا بالمعني الروماني : « جماعة دينية أو نظام order ديري » ·

(٢) انظر قاموس اللاهوت الكاثوليكي ، جـ ١١ ، عامود ٢٢٨ · وكانت جماعة كلدانية قد تشكلت قبل ذلك في قبرص خلال القرن الخامس عشر · نفس المصدر عامود ٢٢٦ ·

البابا ، ولكن بالرغم من الجهود التي بذلهـا مبشرو الكنيسـة الكاثوليكية الكلدانيـة فقد ظلت هيئة دينية صغيرة تشرف على مجموعات صغيرة متناثرة فى بغداد والموصل وشعيره (الواقعة جنوب الحلة) وحلب (١) ٠

وقد أصاب انفصال الكنيسة الموحدة عن الكنيسة اليعقوبية السورية ، التى كان أتباعها يعرفون باسم « الكاثوليك السوريين » قدرا أقل من النجاح واقتصرت الحركة فى معظمها على حلب حيث قامت بطريركية فى عام ١٦٢٢ بموافقة الباب العـالى ٠ على أن المعارضة القوية والناجحة بوجه عام التى بذلها اليعاقبة قد أدت الى اضمحلال الكنيسة الجديدة بحيث ظلت تعتمد الى حد كبير على مساندة الموارنة (٢) ٠

ورغم الجهود التى بذلها الفرنسسكان فى القاهرة والصعيد (٣) فان قيام فرع موحد من الكنيسة الكاثوليكية لم يصب سوى قدر قليل من النجاح خلال هذه الفترة ٠ وفى خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر جرت مفاوضات متكررة بين البابوية والبطاركة الأقباط الذين أبدى الكثيرون منهم (ربما نتيجة لسخطهم على الوضع ذى الأهمية المتزايدة الذى حصلت عليه البطريركيـة اليونانية فى

---

(١) نفسه ـ أيضا جراف ، ج ٣ ، ص ٦٤ ـ ٩ ، ج ٤ ص ٩٥ ـ ١١٠ ٠

(٢) توفى البطريرك الثانى فى السجن فى أطنة عام ١٧٠٢ وتوفي الثالث فى روما فى عام ١٧٢١ ثم تدهورت بطريركية حلب الاسمية ٠ وفي عام ١٧٨٣ قام الأسقف ميخائيل جروه اليعقوبى الذى تحول عن دينه بمحاولة للاستيلاء على بطريركية أنطاكية ، ولكن أرسل فرمان السلطان الى المرشح المنافس اليعقوبى ، الأرثوذكسى » مما أدى الى نقل قاعدة البطريركية غير المستقرة الى لبنان ٠ انظر قاموس اللاهوت الكاثوليكى ، ج ١ ، عامود ١٤٣٠ وما بعده ـ جراف ج ٣ ، ص ٥٦ ـ ٥٨ و ج ٤ ص ٤١ ـ ٦٤ ٠

(٣) انظر ما سبق ٠

الاسكندرية فى أعقاب الفتح العثمانى) رغبة شخصية فى اعادة التوحيد (١) وان لم يلقوا فى ذلك مساندة من جانب رجال دينهم وشعبهم • وفى القرن الثامن عشر كانت توجد بالفعل هيئات صغيرة سرية ، بالرغم من أن المعارضة المحلية قد دفعت كهنتها الى الاستنجاد بروما أحيانا - ولم يحدث حتى القرن التاسع عشر أن أخذت تتشكل هيئة موحدة (٢) •

ومن ناحية أخرى تكللت جهود المبشرين الكاثوليك فى أوساط موارنة لبنان بالنجاح ، ورغم أن بطاركة الموارنة (الذين تمتعوا بكل حقوق السلطة فى المللت سواء بموافقة السلطات أم بدونها) كانوا يرتدون الملابس الكهنوتية التى كانت ترسلها اليهم روما طيلة قرنين من الزمان فان قدرا من الغموض كان يكتنف وضع الكنيسة المارونية ككل (٣) • ولكن جرى تنظيم كل ذلك نهائيا طبقا للدستور الجديد الذى تم بحثه ثم قبوله فى مجمع كهنوتى قومى انعقد فى عام ١٧٣٦ ولا يزال يعمل به (٤) •

ويرتبط هذا النجاح (الذى قيض له أن تكون له نتائج سياسية وثقافية هامة الى حد كبير) بمساندة الزعيم الدرزى فخر الدين (المعنى) للمبشرين الكاثوليك خلال سعيه الى تحقيق استقلال لبنان الذاتى فى أوائل القرن السابع عشر ، وقد أدت الحماية التى خلعها لويس الرابع عشر بعد ذلك على الموارنة ، وهى الحماية التى

---

(١) جراف ، ج ٣ ، ص ٧٠ • بوتشر : كنيسة مصر ، ج ٢ ، ص ٢٥٤ - ٥ •

(٢) جراف ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ - ٨ •

(٣) راجع نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٦٦ - ٨ •

(٤) وقد لعب الباحث المارونى يوسف سيمونيوس السمعانى دورا هاما فى هذا المجمع باعتباره مندوبا بابويا • وقد أدى اصراره الى قبول المشروع البابوى للدستور وذلك رغم المعارضة الشديدة • قاموس اللاهوت الكاثوليكى ، ج ١٠ ، ٧٩ - ٨٥ ، جراف ، ج ٣ ، ص ٤٤٥ •

وصلت الى حد التخابر مع أساقفتهم والتدخل النشط لدى الباب العالى لصالحهم ، الى تمكين المبشرين من المحافظة على نفوذهم وتعزيزه (١) • وقد أسس الكابوشيون والجزويت واللعازاريون عددا من المدارس فى لبنان وسوريا الداخلية تعلم فيها أبناء الموارنة القراءة والكتابة وأرسل عدد كبير من الشباب الى روما بين آن وآخر لتلقى تعليمهم اللاهوتى فى الكلية المارونية التى كانت قد افتتحت هناك فى عام ١٥٨٤ • على أننا لا يجب أن نبالغ فى أهمية هذا التأثير خلال فترتنا الحالية • وقد لاحظ فولنى أن شباب الموارنة لم يفيدوا خلال اقامتهم فى روما من الفنون والأفكار الأوروبية برغم دراستهم للغة الايطالية (٢) ، ولقى المبشرون الأوروبيون قدرا ضخما من الحسد والمعارضة من جانب رجال الدين المحليين وأتباعهم (٣) •

على أن جهودهم التبشيرية فى حلب أدت الى انتعاش ملحوظ فى تعليم المسيحيين السوريين خلال القرن الثامن عشر • فخلال القرون السابقة جرت هجرة مارونية مطردة الى حلب حيث عملوا فى معظم الأحوال فى الصناعة وتجارة القطاعى وفى بعض الأوقات حصلوا على ثروة ما (٤) وقد خرجت من الجماعة فى أواخر القرن السابع عشر شخصيات بارزة تمثلت فى جرمانوس فرحات الذى لم يقتصر أثره على كونه قد لعب دورا بارزا فى الحركات الدينية فى ذلك الوقت بل فى كونه قد أحدث يقظة أدبية عربية فى أوساط الموارنة

---

(١) قرامى ، ج ١ ، ص ٨٢ — Joulplain, 154-6.

(٢) فولنى ج ١ ، ص ٤٢٧ •

(٣) ويتضح هذا حتى فى كتابات البطريرك ستيفن الدويهى (المتوفى فى عام ١٧٠٤) • انظر جراف ، ج ٣ ، ص ٣٦٧ •

(٤) الغزى ج ٣ ، ص ٤٨٣ — أوليفييه ج ٢ ، ص ٣٠٧ • الأوقاف التى رصدها الموارنة فى حلب وبخاصة المبانى الدينية فى حلب وشمالى لبنان — الغزى ، ج ٣ ، ص ٥٤٠ — ٤١ وص ٤٦٤ وغير ذلك •

نتيجة لاحتكاكه بالدوائر الأدبية الاسلامية فى حلب (١) . الا أن هـذه النشـاطات أدت فيما بعد الى اثارة عداء الأرثوذكس الذين استنجدوا باستنبول وان تكن السلطات العثمانية قـد أصدرت فرمانات لصـالح كلا الطرفين وانتهزت الفرصـــة للضغط عليهما جميعا (٢) . وسنتناول بعد قليل نتائج هذا الضغط بالنسبة الى أحوال المسيحيين السوريين فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر وبوجه أخص بالنسبة الى الطوائف الكاثوليكية .

وهكذا لم يؤد مضى الزمن الى تخفيف حدة عداء الأرثوذكس للكاثوليك وهو العداء الذى لعب دورا كبيرا فى تســـهيل الفتح العثمانى للبلقان (٣) ــ ونشير على سبيل المثال الى حادثة جرت فى أواخر القرن الخامس عشر : فالحاكم الكاثوليكى للسكان الأرثوذكس ــ دوق الجزر الأيونية ــ اتعظ بأحداث البلقان حيث أحيا أسقفية سفالونيا الأرثوذكسية لكى يقلل من العوامل التى ترجح سيادة السلطان على سيادته فى نظر رعاياه (٤) . ولكن لم يجر اتباع هذا النموذج الا فى النادر ــ ومثال ذلك أنه خلال احتلال البنادقة للمورة فى أوائل القرن الثامن عشر استفزوا السكان حين فرضوا هيئة رجال دين كاثوليك وحرموا على رجال الدين الأرثوذكس أن يتصلوا باستنبول . وقد سبق أن رأينا أن الحكومة العثمانية كانت تميل

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (القسم الاضافى) مادة **Farhat** . جراف

(٢) قراءلى جـ ١ ، ص ٨٣ ــ حيدر جـ ١ ، ص ٥٧ . جـ ٣ ، ص ٤٠٦ ــ ٢٨ .

(٣) فى عام ١٦٤٠ أعلن البطريرك بارثينوس رغبته فى الاتحاد مع روما وطالب بحماية الامبراطور له ولكنيسته . ولكن يحتمل أن هذا يوفر دليلا على خشيته للباب العالى لا على حبه للبابا ــ يورجا جـ ٤ ، ص ٣٠ .

(٤) **Miller, Latins in the Levant, 484.**

الى محاباة الأرثوذكس (١) وتعتقد أن من الممكن أن يتحول الشعور الطائفي لمصلحتها • وهكذا لعب كوبريللي محمد باشا بمهارة على وتر عداء سكان كريت للكاثوليك وعلى مشاعر البروتستانت فى المجر (٢) • كما أن ميل الباب العالى المعروف الى الدفاع عن ذمييه « الوطنيين » فى مواجهة التعديات الكاثوليكية قد أتاح له مجالا للمساومة : على الكاثوليك أن يدفعوا أموالا فى مقابل التنازلات • وربما كانت أبرز مناسبة هى شراؤهم (بالمعنى الحرفى) القبر المقدس (٣) الذى كانت حراسته حتى ذلك الوقت ميزة حصل عليها الأرثوذكس الذين تعرضوا نتيجة لذلك لنكسة كانت مثارا للسخط الشديد (٤) • وكانت هذه الميزة بمشابة نصر دبلوماسى لم يتم احرازه الا نتيجة للمساندة الفرنسية لادعاءات الكاثوليك • ولكن صدر خط شريف جديد فى عام ١٧٥٧ أبطل امتلاك اللاتين لكنيسة

---

(١) بمعنى ضد الكاثوليكية • ولم تتردد فى انتزاع مبالغ أكبر من المتطلعين الى البطريركية المسكونية أو فى فصل ونفى وشنق البطاركة حين كان كل ذلك يتمشى مع اتجاهاتها المالية • أنظر يورجا ، ج ٤ ، ص ٢٢ - ٢٣ •

(٢) ، ج ٤ ، ص ١٣٨ ، كما أثار العداء بين الكاثوليك والأرثوذكس فى خيوس والقدس نفسه ، ص ١٦٩ •

(٣) كانت المنافسة بين الكاثوليك والأرثوذكس حول حراسة الأماكن المقدسة قد بدأت فى القرن الثانى عشر حين تحالف الامبراطور اسحاق انخيلوس فى عام ١١٨٨ مع صلاح الدين لكى يتسنى له ذلك • انظر دائرة المعارف البريطانية : art. Crusaders

(٤) يورجا ، ج ٤ ، ص ١٩ • فى عام ١٣٠٥ اشترى روبرت حاكم صقلية للكنيسة الكاثوليكية جزءا من القبر المقدس وقاعة العشاء الأخير ، وان بقى القبر ذاته فى أيدى الأرثوذكس • دائرة المعارف الاسلامية art. al-Kuds ولكن انظر يورجا ج ٤ ، ص ٢٣٥ حيث يشير الى ما قيل من أن الفرنسيين كانوا عاجزين عن الحصول على ملكيته فى عام ١٦٩٣ •

المهد فى بيت لحم ولقبر العذراء فى القدس كما أبطل حراستهم للقبر المقدس ، ولم يبد ازاءهم أى تسامح الا فيما يتعلق بالعبادة فى كل من هذه الأماكن • وازداد ابتهاج الأرثوذكس حين اضطهد الكاثوليك من جديد خلال الثورة الفرنسية ، مما أدى الى تدمير معظم ملاجئهم الخيرية وبعض كنائس الفرنسسكان الواقعة فى فلسطين • وهكذا أصبحت للأرثوذكس اليد العليا فى سوريا فى أوائل القرن التاسع عشر ، وحين دمرت النار كنيسة القبر المقدس فى عام ١٨٠٨ كان اليونانيون هم الذين سمح لهم باعادة بنائها (١) • وبوجه عـــام لم تصب جهود الكاثوليك التبشيرية سوى نجاح ضئيل ، برغم كل مساعيهم فى هذا المضمار • وربما يكون مرجع معظم هذا الفشل النسبى هو الطبيعة التعاونية للمجتمع الاسلامى • وكان الكاثوليك يرون ، من وجهة النظر السياسية ، أن تحويل الأفراد عن دينهم أمر مرغوب فيه رغم أن تعبير دين الأشخاص كان يعنى اجتثاث جذورهم وجعلهم عاجزين أحيانا عن اعادة ادماجهم فى جماعة محلية • وكان العمل التبشيرى عن طريق انشاء كنائس موحدة يشكل عملية أقل قسوة ولو أنه كان من المتوقع أن يواجه معارضة حكومية أقوى • وفى كلتا الحالتين كان من الطبيعى أن تجىء المعارضة من جانب الجماعة المعرضة لفقد أتباعها • وكانت الحكومة ذاتها تعارض من حيث المبدأ أن يحول الذمى ولاءه من جماعة الى أخرى على اعتبار أن ذلك كان ماسا بتقرير وتحصيل الضرائب الخاصة المفروضة على الذميين على حد سواء ، ولهذا كانت كل جماعة تتعاون وحدها مع موظفى الحكومة المعنيين •

وقد سبق أن أشرنا الى أن الشريعة كانت تفرض على الذميين ضريبتين خاصتين هما الجزية (ضريبة الرأس) والخراج (ضريبة

---

(١) Finn, Stirring Times, i, and 7, 38.

الأرض) وأن هاتين الضريبتين كانتا تختلفان عن الضرائب المفروضة على المسلمين • وكان العلماء العثمانيون يذهبون الى أن كلتا الضريبتين لا تزالان ساريتين ، ولكن لما كان قد أعلن أن كل الأراضي الزراعية في الامبراطورية تابعة للدولة فان الخراج أصبح بالفعل غير قابل للتطبيق لأنه قد يفرض على الأملاك الخاصة • وقد سبق أن عرضنا لمختلف الضرائب والرسوم التي كان يخضع لها الفلاحون طبقا لهذا التفسير • ولهذا يكفي أن نلحظ هنا أنه لم يكن يوجد تمييز بين المسلم والذمي فيما يسمى بالعشر (بمعنى أدق الخراج مقاسمة) رغم أن النسبة المتحصلة كانت تختلف من ولاية الى أخرى . وأنه رغم أن الناس قد اعتادوا أن يطلقوا على الضريبة التي تحدد سنويا ، وهي التي أطلقت عليها التسمية الصحيحة (خراج موظف) : أسماء مثل جفت أقجه سي فيما يتعلق بالمسلمين واسبنجة فيما يتعلق بالذميين ، فانه يبدو بوجه عام أنها كانت نفس الشيء بالنسبة الى كلا الطرفين بصورة أو بأخرى • ومن ناحية أخرى كان كثير من الرسوم المفروضة على الفلاحين والتجار أشد وطأة على الذميين منه على المسلمين : ومن ذلك على سبيل المثال الرسوم الواجب على الفلاحين الذين يملكون أرضا أن يدفعوها ، سواء أكانوا متزوجين أم عزابا ورسوم المرور والجمارك • الا أن ما ظل أكثر غرابة ان لم يكن بالضرورة أثقل هذه الضرائب عبئا وأدلها على عجز الذميين هو خضوعهم لدفع الجزية (١)•

وكان قد بطل العمل بدفع الخراج القانوني في وقت مبكر جدا من التاريخ الاسلامي وذلك للتفرقة بين المسلمين والذميين ، وبالتالي أصبحت الجزية وحدها هي التي تمثل المقابل أو الثمن الذي تدفعه الجماعات الذمية ، طبقا لعقدها مع الحاكم المسلم في مقابل عفوه

(١) كما كان اليهود والمسيحيون ، طبقا للقانون ، عرضة لأن يدفعوا لدى تنصيب سلطان جديد ضريبة خاصة تقدر رسميا بعشر وخمس اقجات على التوالي • (مطر ، ج ١ ص ٢٢٤) •

وحمايته • وفى خلال القرن التاسع عشر اتجه الساسة العثمانيون الى تطوير نظم الامبراطورية بحيث تتمشى مع المبادىء السياسية الأوروبية فى ذلك الوقت • ولكى يقللوا أنواع التمييز المفروض بين الذميين والمسلمين ، أكدوا أن الذميين لم يستعملوا كجنود فى حين كان المسلم ملزما بحكم عقيدته بأن يخوض غمار الحرب دفاعا عنها ــ وكان هدفهم من ذلك جعل الجزية تبدو وكأنها بديل للخدمة العسكرية (١) • الا أن هــذا التفســير لم يكن يستند الى أســاس تاريخى بل الى أساس جزئى • فعلى حين أن اضطرار المسلم للقتال لم يستند الا الى الضمير فان اضطرار الذميين الى دفع الجزية كان يستند الى القانون • ومن ناحية أخرى فانه كان يستند الى الحقيقة الخاصــة بأن الذميين الذين كانوا فى العهود القديمـة يعتبرون « جنودا » ــ ومثال ذلك الفوينوقات البلغاريون ــ كانوا يعفون من من دفع الجزية (٢) • وكان جوهر وضــع الذميين ، وفقا للفلسفة الاسلامية التقليدية ، أنه أدنى مكانة ــ وباستثناء ما كان يحدث حين كان الذميون يشتركون فى الحرب وحين كان المسلمون يعتبرون حماة لهم ، لم تكن لدفع الجزية صــلة باعفــاء الذمى من الخدمة العسكرية •

ومن الممكن أن نلحظ هنا أنه بحلول القرن التاسع عشر على الأقل ، حــين كانت مسألة الجزية تطل برأسها فى السياســات العثمانية بين وقت وآخر ، كان يبدو أن المصــطلح ذاته لم يعد

---

(١) وهكذا فحين تقرر فى عام ١٨٤٧ اصدار قانون يطلب من المســيحيين العثمانيين الانخراط فى الخدمة البحرية العسكرية اقترح أن يعفى المطلوبون من دفع الجزية • (انظر أنور ضيا كرال : عثمانلى تاريخى ، جـ ٥ ، ص ١٨٤ ــ ف ــ انقره ١٩٤٧) • وحين ألغيت الجزية نهائيا بعد ثمانى سنوات كان على الذميين بدلا من ذلك أن يدفعوا ضريبة خاصة بدلا من الخدمة العسكرية • دائرة المعارف الاسلامية • art. Tanzimat •

(٢) دائرة المعارف البريطانية : art. Bulgaria

مستعملا من جانب الجماهير . ومما يسبب الارتباك أن اصطلاح « خراج » قد حل محله بوجه عام (١) . ويبدو أن هذا الاستعمال الخاطىء قد طبق في وقت سابق ، دون أن يرد في الحوليات أو في الوثائق الرسمية . كما حل محل اصطلاح « ذمى » هو الآخر في الاستعمال الشعبى اصطلاح رعية (رعيت) رغم أن الاصطلاح الأخير كان يستعمل استعمالا صحيحا للاشارة الى المسلمين هم الآخرين . وترتب على ذلك أننا نسمع كثيرا في الكتابات الأوروبية عن دفع الرعايا للخراج حين كان المقصود هو دفع الذميين للجزية (٢) .

وكانت الشريعة تنص على عـدم فرض الجزية الا على الرجال الأحرار القادرين على كسب قوتهم ، وبالتالى لم يعف منها من الذميين الا النساء على اختلاف أعمارهن وأحوالهن والذكور من العبيد والأطفال والمرضى أو المسنون . كما كان يعفى من دفعها القادرون على كسب قوتهم دون أن يصيبوا في ذلك نجاحا كبيرا بحيث لا يمكنهم دفعها الا بصـعوبة وكذلك الرهبـان الذين كانوا يعيشـون في أديرة

(١) تعرضت كلمة « خراج » (وأصلها يونانى ــ انظر دائرة المعـارف الاسلامية) لتغييرات عدة في معناها فقد كانت في البداية تعنى الجزية ثم استعملت في القرن الأول الهجرى للاشارة الى ضريبة الأرض التى كان يدفعها الملاك الذميون الذين احتفظوا بأراضيهم ثم حين تقرر أن تتعرض كل ولايات الخلافة ، باستثناء ولايتين تضمان أراض عرضة لفرض الخراج عليها أيا كانت عقيدة ملاكها ، أصبحت تعنى ضريبة الأراضى بوجه عام (بحيث فقدت مؤقتا كل علاقة بألوان التمييز على أساس دينى) ثم حين صدرت قوانين نامات العثمانية استعملت للاشارة الى نوعى ضريبة الأراضى التى لا تنص عليها الشريعة وان لم تتعارض معها وهما النوعان المفروضان على الفـلاحين حائزى كل الأراضى الزراعيـة في الامبراطورية . انظر ما سبق . وفى نهاية الأمر أعيدت هذه الضرائب الى معناها الأصلى وميزت باضافة اصطلاح « شرعى » وقد نتج هذا عن كون الجماهير قد خلعت عليها بالفعل أسماء أخرى .

(٢) على أننا نعثر في فرمانات أواخر القرن الثامن عشر على اصطلاح رعايا الذى طبق على الذميين تمييزا لهم عن المسلمين . انظر على سبيل المثال فرمان ١٧٩٥ الذى نظم حقوق المسيحيين الشوام في دمياط في قراءلى ، جـ ١ ، ص ٢٠ ، ص ٤٣ .

لا تخصص لها أوقاف كافية (١) • وفى العهد العثمانى كان هـذا الشرط الأخير يتسع بحيث يشمل كل رجال الدين على اختلاف دياناتهم ، وفى فترة متـأخرة على أى حال كان كثير من الذميين المستخدمين فى الحكومة يحصلون على اعفـاء لهم ولأسراتهم (٢) • لهذا كانت الجزية تستحق الدفع من جانب ما يقل كثيرا عن نصف السكان الذميين وبنسبة لا تتعدى الثلث •

وكانت دخول الأشخاص الذين تفرض عليهم الضريبة تقدر وفقا للقانون ليس فقط بحسب قدرتهم على الدفع بل بحسب الكمية التى يطلب من كل فرد أن يدفعها • وكان من الواجب تقسيمهم الى ثـلاث طبقات : الأغنياء ومتوسطى الحال والفقراء وكل طبقة تتحدد من الوجهة العملية حسب الاسم الذى يطلق على كل شخص : فملاك الأراضى والصيارف وبعض التجار كانوا يندرجون فى قائمة الأغنياء وكان الحرفيون والكندرجية يندرجون فى قائمة الفقـراء ، بل لقد جرى النص على جدول للدفع : فقد كان على الأغنياء أن يدفعوا سنويا ٤٨ درهم (فضة) وكان على متوسـطى الحال أن يدفعوا ٢٤ والفقراء ١٢ • وكان القانون كما كان الحال بالنسبة الى مسائل كثيرة ، يتضمن بهذا الصدد ما طبقه العباسيون الأول أو ما لا يتجاوز موقفهم من الناحية النظرية • وعلى فرض أن هذا الجدول كان يراعى خلال الفترة التى تقرر فيها ، فان التغييرات التالية التى طرأت على قيمة النقود أدت الى اهمـال الحكام المسلمين لمراعاته فى كثير من الأحيان • وفى أوائل الحكم العثمانى كان الجدول الذى تفرض

---

(١) دوسون ، ج ٧ ، ص ٢٣٦ « رجال الدين "Ministres du Culte" — سيد مصطفى ، ج ٣ ، ص ١٠٠ « مأموريتى روحانية = الموظفون الروحانيون » ومن المفهوم أن هذا المصطلح يشمل رجال الدين العلمانيين تمييزا لهم عن رجال الدين القانونيين •

(٢) دائرة المعارف الاسلامية art. Djizya

الجزية على أســـاسه يتغير من ولاية الى أخرى · ولم يطبق عليه التماثل الا فى القرن السابع عشر وذلك على يد كوبريلى مصطفى باشا الذى اعتبر الجدول القانونى لا يزال ملزما · ولقد سن قانونا نص على ضرورة أن تدفع الطبقات الثلاث من الذميين على التوالى : ٤ ، ٢ ، ١ عملة ذهبية من النوع المسمى شريفى الذى كان حينئذ يساوى ١٢ درهم (فى الوزن) من الفضة (١) · وفى القرن الخامس عشر كانت الجزية قد قدرت فى مصر وسوريا على نفس الأساس وقدره قطعة ذهبية (بالاضافة الى جزء صغير لتغطية نفقات التحصيل) على كل سكان كل منزل · ويبدو أن هذه الممارسة ظلت سارية فى العصر العثمانى على الأقل فى سوريا (٢) حتى القرن السادس عشر · ويبدو أن الجدول المصرى لم يتعرض للاصلاح الا فى عام ١٧٣٣ وذلك حين طبقت النسب العامة على مصر بدورها (٣) · ولم يحدد

(١) سيد مصطفى ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، انظر الفصل الرابع فيما سبق · ويذكر يورجا (ج ٤ ، ص ٢١٦٨) أن كوبريللى فاضل أحمـــد باشا (صدر أعظم من ١٦٥٦ الى ١٦٧٦) كان قد زاد فى نسب الجزية · ومن ناحية أخرى يقال ان كوبريللى حسين باشا (صدر أعظم من ١٦٩٧ الى ١٧٠٢) قد أنقصها ، بل لقد أبطل دفعها بالمرة (دائرة المعارف الاسلامية · (art. Koprulu)

(٢) ١١ ـ ١٥

B. Lewis, Notes and Documents from the Turkish Archives (Jerusalem, 1952), 10-11.

(٣) حددها فرمان صدر فى عام ١٧٣٣ ـ ٤ بما مقداره ٤٢٠ و ٢٧٠ و ١٠٠ بارة على التوالى وهو ما يتمشى الى حد كبير مع النسب القانونية بالاضافة الى رسوم التحصيل (الجبرتى ج ١ ، ص ١٤٦) ، (ج ٢ ، ص ١٠) · وكانت نســـبة التحـــويل السارية هى ١٤٨ بارة عن الفندقلى و ١١٠ عن الزرء محبوب (انظر ما سبق) ، ولكن كانت تفرض أحيانا مبالغ اضافية (الجبرتى ج ٢ ، ص ١٢٠/ ج ٤ ، ص ٢٢١) · وفى عام ١٧٩٨ كانت النسب هى : ٥٥٣ ـ ٢٨٣ ـ ١٤٣ بارة تحصل من ٩٫٠٠٠ و ١٨٫٠٠٠ و ٦٣٫٠٠٠ شخص على التوالى ـ ومجموع ذلك هو ١٤٫٨٥٠٫٠٠٠ بارة من ٩٠٫٠٠٠ شخص · وكان الأغا الذى يتولى التزام الجزية فى مصر يدفع ميرى الى ٢٫٥٠٩٫٠٨١ بارة عن وظيفته ·
(استيف ، ٣٦٥ ـ ٧)

بعد الوقت الذى دخلت فيه النسب المعدلة الى سوريا (١) ٠

ويبدو أن الاشارة الى الدرهم القانونى قد ظلت سارية حتى تاريخ نهاية فترتنا ـ اذ يذكر الفارس دوسون أن ما كانت تدفعه الطبقات الثلاث فى أيامه قد تحدد على الوجه التالى : ١٠ قروش ، ٥ ½ قرش ، ٢ ¾ قرش (٢) ٠ ولكن حدث خلال القرن الثامن عشر ، حين خفت قبضة الحكومة المركزية على كثير من الولايات ، أن استغل الحكام المحليون الحرية التى ترتبت على ذلك لكى يزيدوا دخولهم بتحصيل أكثر مما كان على الذميين أن يدفعوه باعتباره جزية ٠ وقد نفذوا ذلك فى المورة ، على سبيل المثال ، حيث أرغمت الحكومة التى كانت تسعى الى اعادة النظام فى هذا المجال ، على الاعتراف بحق الولاة فى أخذ قرش واحد عن كل ايصال للدفع (٣) ٠ وهكذا جرى اهمال العدالة التى كانت الأساس الذى بنيت عليه قواعد فرض الجزية فى الأصل ولكن كان أشد ظلما من ذلك التخلى عن مبدأ تقدير مبالغ الجزية بالنسبة الى كل طائفة تبعا لعدد من كانوا عرضة لدفعها ٠ فقد طلب من كل طائفة فى كل مقاطعة أن تدفع

---

(١) وبحلول القرن الثامن عشر كانت النسب الرسمية فى سوريا هى ١١ ، ٥ ، ٢ قرش عن الرأس ولكن فولنى يذهب (جـ ٢ ، ص ٢٢٥) الى أنها كانت تزيد أحيانا بصفة غير قانونية لتصل الى ٣٥ أو ٤٠ قرشا ٠

(٢) يذكر النص « ثلاثة وثلاثة أرباع » ولكن لما كان أكثر الناس فقرا فى كل الأحوال الأخرى يشار اليهم باعتبارهم يدفعون نصف ما كان يدفعه متوسطو الحال فاننا نعتبر ذلك خطأ بديلا « لاثنين وثلاثة أرباع » ٠ وكانت معظم القطع الذهبية فى هذه الفترة تساوى حوالى ثلاثة قروش على كل قطعة وفى عام ١٧٨٨ ، على سبيل المثال ، كان درهم الفضة يساوى ١٠ بارة بحيث أن ٢١ كانت تساوى ثلاثة قروش على اعتبار أن القرش كان يساوى ٤٠ بارة
See Belin, Hist. economique in J.A., 1864, tome III, p. 452.

(٣) جودت ، جـ ٤ ، ص ٦٠ ٠

مبلغا محددا سنويا حتى ولو نقصت أعداد السكان الذميين وهو ما حدث فى الامبراطورية بوجه عام وفى معظم المناطق فى مرات عدة • يضاف الى ذلك أن تحصيل الجزية شأنها فى ذلك شأن ضرائب عثمانية أخرى ، عهد به الى ملتزمين (١) مما ترتب عليه أن السلطات الكهنوتية فى كل مللت فقدت ما كانت تتمتع به فى الأصل من سيطرة جزئية عليه ، وهو ما نستشفه من العرض الذى يقدمه دوسون • ففى أيامه كانت طريقة الجباية تتم على الوجه التالى ، كان القسم الثامن من الخزانة ـ الجزية محاسبة سى (٢) أو حسابات الجزية تصدر قرب نهاية كل سنة قمرية ٠٠٠ر٦٠٠ر١ شهادة خالية من الكتابة ملفوفة فى ١٨٠ حزمة وبعد ذلك كانت الحزم ترسل الى كل قضاءات الولايات وتفتح فى محكمة القاضى فى أول المحرم من السنة القمرية (٣) • ثم يبدأ موظفو الملتزمين التحصيل ويزودون كل ذمى ، بعد أن يقوم بالدفع ، بشهادة سجل عليها تاريخ السنة و « طبقته » وأسماء الدفتردار ورئيس القسم الثامن من الخزانة والملتزم المعنى • وكان هدفهم الرئيسى من ذلك ألا تبقى معهم أى شهادات ذات وضع غير محدد • ولهذا كانوا يبذلون كل ما فى وسعهم طيلة عدة أسابيع قبل بداية السنة الجديدة لمنع الأشخاص الملزمين بالدفع من مغادرة مساكنهم وربما الهرب منها ، وبعد ذلك بعدة أشهر كانوا يوقفون أى ذميين يلقونهم ويطلبون منهم ابراز شهادتهم كدليل على الدفع وأحيانا ما كانوا يستفيدون مما أصبح لا يعدو كونه أمرا نظريا : أن تشرف سلطات المللت على فرض

---

(١) ويبدو أن هذا الاجراء قد تقرر فى عهد القانونى الذى خلع على الضباط الذين عرفوا باسم الملازمين ، الذين شكل منهم قوة خاصة ، الحق فى تحصيل الجزية فى بعض المقاطعات • انظر سيد مصطفى ، جـ ٢ ، ص ٩٢ •

(٢) انظر ما سبق •

(٣) انظر ما سبق •

الجزية على أعضائها بأن تطلب من هذه السلطات أن تدفع فى مقابل الشهادات التى عجزت عن تحديد من يدفعونها ، ومن المفهوم أن هذه السلطات كانت فى هذه الحالة تعوض ما تدفعه على حساب طوائفها • ومن الواضح أن التحصيل كان يوفر فرصة مغرية للملتزمين المغامرين وذلك نتيجة للفرص التى كان يوفرها الاجراء ككل • وظل دليل على الاهتمام بالعدالة الذى توخته القواعد الأصلية يتمثل فى القاعدة التى كانت تحتم عدم فتح حزم الشهادات قبل بداية المحرم وهى القاعدة التى كانت تستهدف الحيلولة دون ازعاج الذميين بحيث لا يدفعون الا فى هذا الوقت من السنة • وكان التشدد فى مراعاتها فى ظل المساوىء التى لحقت بتحصيل الجزية من مشخصات الأساليب الادارية العثمانية فى الوقت الذى تعرضت فيه للاضمحلال •

ولم تكن طريقة التحصيل التى أشرنا اليها ، سواء حين تقررت فى الأصل أو حين حل بها الفساد فى أوقات متأخرة ، شائعة فى ولايتى الدانوب أو فى المقاطعات التى كان يتولى فيها التحصيل نائب عن الملتزم ، ومنها لبنان التى كانت تدفع جزية سنوية لباشا صيدا وطرابلس • وكانت ولايتا الدانوب ، وفق ما سبق أن ذكرنا ، تدفعان جزية سنوية للباب العالى شأنهما فى ذلك شأن جمهورية راجوزا • على أن هذه الضريبة كانت من الوجهة العملية تشكل نوعا من الجزية فقد كان بامكان أهل الكتاب فى دار الحرب ، طبقا للشريعة ، أن يتفقوا مع المنتصرين فى ظروف معينة على دفع مبلغ محدد باستمرار بدلا من أن يفرض عليهم دفع جزية الرءوس • وكانت الجزية المعنية تدفع داخل هذا الاطار •

وكان الذميون يرتبون فى الاسلام بحسب ديانتهم ، وهو ما نتج بطبيعة الحال عن كونهم يختلفون عن المسلمين ذاتهم وعن كون ذلك يتمشى مع اتجاه هؤلاء الأخيرين • ولكن هذا كان لا يتمشى

مع تضامن المجتمع العثمانى ككل بحكم أنه أضعف لدى أعضائه الشعور بكونهم رعايا السلطان قبل أى شيء آخر ، وهو ما كان من مصلحته أن يشجعه ، اذ أنه أخضع هذه العاطفة للارتباطات المحلية ٠ ففى بعض المناطق الريفية حيث كان المسلمون والذميون يعيشون جنبا الى جنب ، كانوا متحررين نسبيا من الميول الطائفية لارتباطهم بالمصالح المشتركة وبتشابه أساليب الحياة ولأن المواطنين المعتنقين لكلتا الديانتين كانوا ينزعون الى التحرر فى تفسير مسائل العقيدة (١) ٠ ولكن فى المدن وحيثما كانت الخلافات الدينية أكثر احتداما بفعل الخلافات الجنسية كانت الفواصل بين المسلمين والذميين ومختلف الطوائف الذمية ذاتها ملحوظة الى حد كبير ٠ ذلك أن اشتراك المسيحيين على اختلاف مذاهبهم - ممن سبقت الاشارة اليهم - فى وضع أدنى لم يؤد الى نمو نوع من الحب الأخوى بينهم أو بين أى من طوائفهم وبين اليهود - اذ كانت كل طائفة منهم على استعداد لطلب مساعدة المسلمين ضد الأخرى اذا اقتضى

---

(١) فعلى سبيل المثال كانت تربط ذميى البوسنة علاقات طيبة بوجه خاص بمواطنيهم المسلمين وما لبثوا عقب انتهاء فترة دراستنا أن تعاونوا معهم فى مقاومة تحرشات النمسا ولم يكن عليهم الا أن يدفعوا جزية قدرها قطعة ذهبية واحدة عن كل منهم ٠ فهل كان معنى هذا أنهم كانوا يعتبرون من أكثر الطبقات فقرا أم أن ذلك كان يشكل ميزة ؟ ومما تجدر الاشارة اليه أن نسبة المسلمين الى السكان كانت تزيد فى البوسنة عنها فى أى مكان آخر فى أوروبا ٠ ولا شك أن هذا يرتبط الى حد كبير بكونهم ، رغم وضعهم « الحدود » ، أقل خوفا من جيرانهم الذميين وبالتالى كان موقفهم منهم أحسن من موقف غيرهم ٠ انظر جودت ، ج ٤ ، ص ١٠٥ ٠

الأمر (١) ومن ناحية أخرى فانهم لم يكونوا فى الواقع رعايا مخلصين للسلطان • حقيقة ان بعض المسيحيين رحبوا بالحكم العثمانى فى البداية وفضلوه على أن يحكمهم أتباع كنائس أخرى ، ولكن كان لا يمكن لأى طائفة أن تظل على رضاها بوضعها الذمى • وعلى أحسن تقدير كان يمكن تحمل هذا الوضع لارتباط فرضه بضرورة قصوى • وفى المجتمعات الاسلامية السابقة كانت أعداد تتناقص ببطء ترزح تحته : وقد حلت المشكلة بشكل أو آخر حين انخرط الذميون بالتدريج فى الجماعة الاسلامية بحيث لم يبق منهم سوى بقايا قليلة الأهمية • الا أن هذا الاستيعاب لم يلبث أن توقف فى الامبراطورية العثمانية وخلف فيها أقلية كبيرة من هؤلاء الساخطين الطبيعيين اذا جاز لنا القول ، وذلك بعد أن كان يمضى بخطى سريعة فى البداية • وكانت الفترة السابقة التى ازدادت فيها اجراءات التحول عن الدين هى التى شهدت الانشقاق النسبى وسعة الأفق لدى أغلب المسلمين العثمانيين • وحينئذ جرى تصوير الاسلام بصورة سمحة ومألوفة بحيث بدت الهوة الواجب اجتيازها ضيقة ، وأهم من هذا أن الطوائف الذمية لم يكن قد جرى تنظيمها بعد تحت اشراف

---

(١) انظر على سبيل المثال الوصف الحى الذى قدمه ميخائيل الدمشقى (ص ٣) فيما يتعلق بالنزاع بين الأرثوذكس والملكانيين (اليونانيين الملكانيين) فى دمشق فى عام ١٧٨٦ • فقد جىء بثلاثة قسس ملكانيين متهمين بقتل قس يونانى الى دمشق حيث تعرضوا يوميا للضرب • وأخيرا تدخل كاخيا الباشا لدى اليونانيين لاطلاق سراحهم ـ وحين تساءل بقوله : « هل القانون فى دينكم ينص على تعذيب هؤلاء الرجال الذين هم مسيحيون مثلكم ؟ » تلقى الاجابة المذهلة الآتية : « لا صلة لهؤلاء الرجال بنا • نحن لا نعرفهم وان عقيدتنا تتيح جعل ثروتهم ودمهم غنيمة قانونية لنا » • وقد غضب الكاخيا غضبا حقيقيا ورد قائلا : « أنتم كفار ملعونون ولا دين لكم على الاطلاق » ، واطلق سراح الملكانيين بعد ذلك • انظر أيضا ميخائيل الدمشقى ، ص ٣٩ ـ ٤١ ص ٤٦ وحيدر ج ١ ، ٥٧ • والمنازعات بين الفرق الدينية المتصارعة فى فلسطين معروفة جدا بحيث لا تحتاج الى ايضاح •

الدولة • ولكن بازدياد التشدد السنى لدى الطبقة الحاكمة التى خلعت على العلماء أهمية متزايدة انطبع الاسلام بطابع أكثر دعاة للنفور فى الوقت الذى عزز فيه انشاء « الملل » قبضة رجال الدين الذميين على أبناء دينهم • ويبدو أن تشدد تنظيم « الملل » فى اطار الادارة العثمانية هو الذى يفسر فى الواقع الى حد كبير فشل الاسلام التدريجى فى اجتذاب أغلبية ذميى الأناضول والروميللى بالشكل الذى مكنه فى السابق من اجتذاب ذميىسوريا والعراق(١) • فلم يتحمس زعماء الملل لتناقص أتباعهم ليس فقط لاعتبارات عقائدية ، بل أيضا لاعتبارات اقتصادية • فرغم أن الجزية لم تفرض فى الأصل الا على أعضاء كل طائفة ممن تفرض عليهم أحكام الشريعة دفعها ، فقد جرى تجاهل مثل هذا الفرض السنوى فيما بعد ، بحيث طلب من كل طائفة أن تدفع مبلغا محددا بغض النظر عن أى زيادة أو نقصان فى أعداد أتباعها • ولهذا ازداد العبء المفروض على من يظلون مخلصين لطائفة ما اذا ما قلت أعداد منتسبيها نتيجة للتحول الى الاسلام (٢) •

وقد سبق أن رأينا أن الشريعة لم تخير الكفار من أهل الكتاب بين الاسلام والسيف ، رغم ما ألصق بها بهذا الصدد ـ فقد كانت توفر لهم خيارا ثالثا هو أن يصبحوا ذميين ، ولو أنها كانت تطبق ذلك على كره منها ، اذ كانت تعتبرهم مخطئين وتصر على تذكيرهم بذلك • والقرآن ذاته يفرض الذلة على الذميين لدى دفعهم

---

(١) راجع يورجا ج ٤ ، ص ٢٤ فيما يتعلق بتحريم تحول زعماء الطائفة اليونانية عن دينهم •

(٢) ولكن لا يوجد الكثير الذى يحملنا على الاعتقاد بأن السلطات العثمانية قامت حتى القرن الثامن عشر بضرب طائفة بأخرى تحقيقا لأهدافها ربما باستثناء ما حدث فيما يتعلق بمسائل اقليمية قليلة الأهمية •

للجزية (١) · ولقد أصر « آباء » الشريعــة بصورة أو أخرى على أساليب فرض هذه الروح وهو ما كانت تدعو اليه القواعد الخاصة بتعديل النفقات والتى فرضها السلاطين بين وقت وآخر · ولا شك ان أشــد محصلى الضرائب تعصبا ووحشية كانوا ينفذون تعــاليم القانون التى تنص على أن يمسكوا الذمى ، الذى يأتى أمامهم ومعه الفروض السنوية ، من رقبته ويطلبــوا منه الدفع صـــائحين : « ادفع يا عدو الله » (٢) ·

وكانت هذه المعاملة وتلك المعوقات التى كان يواجهها الذميون بوجه عام تستهدف فيما استهدفته اغراءهم بالتحول عن دينهم · ولكن حين كان يتم الضغط عليهم ، فى الوقت الذى وضعت فيه عراقيل لم يسبق وجودها فى المجتمعات الاســـلامية السابقة أمام تحولهم عن دينهم ، قنعوا باثارة الخلافات المتبــادلة بين المسلمين والكفار · يضاف الى هذا أن وضع الذميين العثمانيين اختلف عن وضع سابقيهم بطريقة أو بأخرى : فقد كانت أعداد كبيرة منهم فى كل المراكز التجارية فى الامبراطورية على علاقة بالأجانب أقوى من علاقة مواطنيهم المسلمين بهؤلاء الأجانب : فقد مال المسيحيون بطبيعة الحال الى أن يتعاملوا مع أبناء دينهم وشجعهم على هذا دبلوماسيو أوروبا وتجارها فى حين لم يتحمس المسلمون لاقامة علاقات وثيقة معهم ، أما اليهود فقد شجعهم على ذلك نشاطهم الكبير فى مجال تجارة الامبراطورية وبخاصـــة التجارة الخارجية · ولكن ازدياد النشاط التجارى الأوروبى فى المشرق ، وهو النشاط الذى أدى الى نمو هذا الاحتكاك بين الذميين والتجار الغربيين ، تزامن مع ازدياد قوة الدول التى كانت ترعى هذه التجارة ومع الفساد الذى حل

---

(١) السورة التاسعة ـ آية ٢٩ : « حتى يؤتوا الجزية عن يد وهم صاغرون » ·

(٢) Belni, La Propriété Foncière, in J.A, Serie V. tome XVIII.

بالنظم العثمانية • وبازدياد ضعف الدولة نتيجة لهذا الفساد أصبح المسلمون العثمانيون يخافون الأوروبيين وبالتالى يكرهونهم بدلا من اقتصارهم على احتقار الأوروبيين وهو ما كان يحدث فى الماضى . وبالتالى فان نمو علاقات وثيقة بين الذميين والأجانب قد أدى الى الامعان فى اضعاف الاحترام القليل الذى لاقوه من جانب المسلمين • وفى الأماكن التى لم تتغلغل فيها المؤثرات الأوروبية والسنية ظلت العلاقات الوثيقة نسبيا بين المسلمين والذميين كما هى • ورغم ذلك فيمكن القول بأن الكره المتبـــادل الذى كانت تكنه قطاعات من الفريقين ، وهو كره أقل وان يكن أكثر أهمية من الوجهة السياسية ، قد جعل المشكلة التى واجهت الحكام المسلمين نتيجة لقيود الشريعة أمرا لا يوجد له حل حتى ذلك الوقت ـ فقد كانت الشريعة تدعو الى التسامح مع الكفار من أهل الكتاب مع تأكيد وضعهم الأدنى •

وفى مصر ، وفى سوريا بدرجة أقل ، أضيفت مشكلة جديدة الى مشكلة الذميين خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر وذلك نتيجة لتزايد نفوذ المسيحيين السوريين ، وبخاصة الموارنة والملكانيين (الكاثوليك) ، فى التجارة والادارة • فالأقباط واليهود ، وهم من طوائف مصر المحلية ، كانوا قد تكيفوا وقتا طويلا مع اطار المجتمع الاسلامى الذى تمتعوا فيه ببعض المهام والامتيازات التقليدية • فاليهود كانوا تجارا وممولين وملتزمى جمارك ، وباستثناء عدد قليل نسبيا من الفلاحين الأقباط فى مصر العليا والفيوم ، كان الأقباط يلعبون كذلك دورا نشطا فى الصناعة (١) • الا أن أبرز ما حدث هو النجاح الذى أصابوه ، طيلة أكثر من ألف سنة من السيطرة الاسلامية ، فى مجال احتكار المهمة الهامة الخاصة بتسجيل الأرض وتحصيل الضرائب (٢) • وكانت خدماتهم ضرورية بالنسبة الى مصر

---

(١) الجبرتى ، ج ٣ ، ص ١٨٦ •

(٢) راجع ما سبق •

الادارة مما يفسر سر بقائهم والثروات الطائلة التى استطاع بعضهم أن يكدسوها • فقد كان على كل حاكم أن يعتمد على قبطى : فعلى بك كان يساعده المعلم رزق وابراهيم ومراد كان يساعدهما المعلم ابراهيم الجوهرى (١) • وهكذا فالى جانب تنظيم الملل والتنظيم الدينى الخاضعين لرئاسة بطريرك الاسكندرية كانت توجد الى جانبه وتوازنه ليس فقط هيئات الصناعات الصغرى بل أيضا هيئة الكتبة الأقباط التى كانت شديدة التنظيم والترابط من أعلاها الى أسفلها (٢) • وكان رئيس هذه الهيئة من أغنى رجال البلاد وأكثرهم نفوذا ، ويحتمل أن الكنيسة القبطية لم تتمكن من المحافظة على مؤسساتها الا عن طريق الهبات والأوقاف التى كان يرصدها أمثال كبار الموظفين هؤلاء (٣) •

وبالاضافة الى الأقباط واليهود كانت توجد طائفة صغيرة تضم اليونانيين المقيمين فى البلاد ، يتكون معظمها من البحارة وصغار التجار والحرفيين ويشرف عليها بطريرك الاسكندرية الأرثوذكسى من الناحيتين الروحية والمدنية • وكان معظمهم يقيمون فى الموانى الشمالية وفى القاهرة حيث كانت لهم حارة فى المدينة وأخرى فى

---

(١) انظر فيما يتعلق بالناحية الأخيرة : توفيق اسكاروس : نوابغ الأقباط (القاهرة ١٩١٠) جـ ١ ، ٢ ص ٢٠٦ ــ ٣٦٨ وجراف جـ ٤ ، ص ١٣٦ •

(٢) راجع الجبرتى ، جـ ٢ ، ص ٢٦٢ ولانكريه ص ٢٤٢ •

(٣) وتبدو الرقابة اليقظة على نشاطات هؤلاء الأقباط فى نتائج المحاولة التى بذلها لوروز ، رئيس الهيئة فى عام ١٧٥٢ أو عام ١٧٥٣ لتنظيم الحج القبطى الى القدس • ورغم توخيه الحيطة بالحصول على فتوى تقر هذا الحج فقد هاجم رعاع المسلمين القافلة فى الوقت الذى كانت فيه على وشك الاقلاع (الجبرتى جـ ١ ص ٨٧ •) ــ عن الصدقات وغير لك مما قدمه الموظفون الأقباط انظر توفيق اسكاروس ، المرجع السابق •

مصر القديمة (١) • وكانوا يتكلمون اللغة العربية ويعتبرهم معظم الكتاب من بقايا الجالية اليونانية التى كانت تقطن مصر قبل الفتح العربى الذى جرى فى القرن السابع ولو أن هذا الرأى موضع لبعض الشك (٢) • ونحن نستشف من انخفاض أعدادهم التى تقدرها المصادر التي تورد معلومات صحيحة بما لا يزيد كثيرا على ٥٠٠ ، ومن فقر البطريركية المدقع فى القرن الثامن عشر ، أنهم لم يلعبوا دورا هاما فى حياة البلاد • وقد تشكل قطاع أكثر نفوذا على أيدى مجموعة غير ثابتة من التجار والمستوردين اليونانيين الذين كانت لهم وكالات فى القاهرة (٣) • وقد انشـــغل هؤلاء بالاتجـار مع استانبول وبحر ايجه وكريت (التى كانت حينئذ مركزا هاما لصناعة الزيت والصــــابون) وكذلك مع ســوريا حيث لعبت الطائفـة الأرثوذكسية ، التى كان معظم أعضائها يتكلمون اللغة العربية ، دورا ما فى التجارة والصناعة •

ومن نتائج الانتعاش المارونى واجراءات القمع التى اتبعتهـا السلطات العثمانية فى سوريا حفز الهجرة التدريجية للمسيحيين السوريين (وبخاصة من دمشق وحلب) الى مصر خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر • وكانت لا تمثل المللة الكاثوليكى حتى ذلك الوقت سوى مجموعة صغيرة من الرهبان الفرنسسكان

---

(١) A. G. Politis, L'Hellenisme et L'Egypte Moderne, 90-101.

ويستنتج بوليتيس أنه كان من الممكن كذلك العثــور على عدد قليــل من اليونانيين فى المدن والقرى الصغرى فى الداخل ـ ولكن كثيرا من مصادر القرن الثامن عشر لا تؤيد استنتاجاته •

(٢) راجع بوليتيس ، ص ٧٧ ـ ٧٩ •

(٣) نفس المرجع ص ١١٢ • الأوقاف اليونانية فى حلب : الغزى ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ وما بعدها •

والأقباط الموحدين (١) بالاضافة الى عدد قليل من الموارنة (معظمهم من حلب) الذين انضم اليهم القادمون الجدد • على أنهم أفادوا من عاملين • فمن واجبنا أن لا يغرب عن بالنا أن على بك ، فى محاولته الدءوب للحصول على الاستقلال ، سعى الى تشجيع التجارة الأوروبية مع مصر وأن الولاكات الأوروبية كانت فى العادة تجد أن من الأسهل بالنسبة اليها أن تجرى معاملاتها بوساطة السوريين الحاصلين على الحماية الأجنبية • ومن ناحية أخرى نجد أن علاقاته الوثيقة مع ظاهر العمر قد حققت أهدافها بحكم أن هذا الأخير اعتمد عليهم كثيرا فى ادارته • وعلى أى حال فقد حدث فى عهد على بك أن انتزع المسيحيون السوريون احتكار ادارة الجمارك من اليهود (٢) واستغلوا وضع أيديهم على هذه المراكز الرئيسية فى مضاعفة نشاطهم التجارى وشغل الوظائف الادارية ــ التى كانت فى أيديهم ــ بمواطنيهم (٣) • ولقد عززوا مراكزهم بتزاوجهم مع القناصل والتجار الأوروبيين(٤) مما أدى الى اطراد وازدياد أعدادهم • ومن الأرقام التى توصل اليها الأب قراءلى من سجلات الفرنسسكان يتبين لنا أنه كانت توجد بالفعل بحلول عام ١٧٦٠ حوالى ٢٠٠ أسرة سورية فى القاهرة

---

(١) انظر ما سبق •

(٢) حنا فخر فى موانى البحر المتوسط : استيف ، ٣٥٠ ، ميخائيل فرحات فى مصر القديمة (الذى حل محل يوسف بن لاوى اليهودى) قراءلى ج ١ ، ص ١ ، ص ٨٥ • راجع أيضا فولنى ، ج ١ ، ص ١٩٠ ــ ١ عن ملتزمين سوريين للجمارك فيما بعد ، انظر قراءلى ج ١ ، ص ١ ، ص ٨٦ ، ١١٠ ، ج ١ ، ٢ ، ١٢ • ومن هؤلاء يوسف البيطار وهو يونانى كاثوليكى من حلب أعيد الى منصبه نتيجة لالحاح ابراهيم الصباغ وزير مالية ظاهر العمر (انظر ما سبق) • وبعد وفاته (فى عام ١٧٧٤) تزوجت أرملته كارلو روسيتى •

(٣) قراءلى ، ج ١ ، ص ١ ، ص ٨٥ •

(٤) نفس المرجع ، ص ٩٩ ، ص ١٠٧ •

و ٤٠٠ أسرة بحلول نهاية القرن (١) ، هذا بالاضافة الى طائفة كبيرة في دمياط وأخرى أصغر في رشيد (٢) • وبحلول عام ١٧٧٢ نسمع بالفعل عن وجود « شيخ مسيحى لكل السوريين » في القاهرة (٣) ، مما يحتمل أنه يدل على تشكيلهم هيئة مستديمة • ولا تقدم المعلومات المتوفرة لدينا اجابة عن تساؤلنا الخاص بمدى تأثير تدخل المسيحيين السوريين هذا في زعزعة البناء الاقتصادى القديم في مصر • ولكن من الواضح أنهم هم أيضا قد عانوا كثيرا من عنف وفوضى حكومة مراد وابراهيم (٤) الى أن أدى وصول الفرنسيين الى فتح باب أوسع للفرص أمامهم •

---

(١) نفسه ، ص ١١٥ ، ١٣٢ ولكنه في ص ٨٥ يقدر عدد السوريين في القاهرة عند انتهاء حكم على بك بحوالى ٣٠٠٠ ، وهذا يتضمن مغالاة على حين أن تقدير فولنى لهم بحوالى ٥٠٠ في القاهرة في عام ١٧٨٥ يتضمن انتقاصا لأعدادهم (جـ ١ ، ص ١٩٠) •

(٢) يقدر أوليفييه (جـ ٢ ، ص ٥١) أعداد هؤلاء الأخيرين بثلاثين أسرة • وكان يوجد بالاسكندرية في ذلك الوقت عدد قليل جدا من السوريين المسيحيين (قراءلى جـ ١ ، ص ١ ، ص ١١٩) •

(٣) قراءلى ، جـ ١ ، ص ١ ، ص ١٠٦ ــ راجع أيضا جـ ١ ، ص ٢ ، ص ٤٨ • ويبدو خلال العقد التالى أن الكاثوليك اليونانيين قد انفصلوا عن الفرنسسكان والموارنة ليشكلوا جالية منفصلة (قراءلى جـ ، ص ، ٣ ، ٢٦) •

(٤) نفسه ، ص ١٩ ، ٤٤ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٣ ــ أوليفييه ، جـ ١ ، ص ٥٩ •

فهـرس

● صدر من هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل في محكمة التاريخ
د. عبد العظيم رمضان

٢ ـ على ماهر
اعداد : رشوان محمود جاب الله

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة
اعداد : عبد السلام عبد الحليم عامر

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة
د. محمد نعمان جلال

٥ ـ غارات أوربا على الشواطىء المصرية في العصور الوسطى
علية عبد السميع

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ ١
لمعى المطيعى

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى
د. عبد المنعم ماجد

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية
د. على بركات

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل
د. محمد أنيس

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية
محمود فوزى

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية
شكرى القاضى

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير
د. نبيل راغب

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان
د. عبد العظيم رمضان

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة
د. سيدة اسماعيل كاشف

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى
د. على حسن الخربوطلى

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر
د. حلمى أحمد شلبى

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى
د. محمد نصر فرحات

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية
د. على السيد محمود

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين
د. أحمد محمود صابون

٢٠ ـ المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى
د. محمد أنيس

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ١
توفيق الطويل

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر
جمال بدوى

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢
توفيق الطويل

٢٤ ـ الصحافة الوفدية
د. نجوى كامل

٢٥ ـ المجتمع الاسلامى
ترجمة : د. عبد الرحيم مصطفى

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة
د. سعيد اسماعيل على

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ج ١
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ج ٢
ترجمة : محمد فريد أبو حديد

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين
د. سيدة اسماعيل كاشف

٣٠ ـ الموظفون فى مصر
د. جلمى أحمد شلبى

٣١ ـ خمسون شخصية وشخصية
شكرى القاضى

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر
لمعى المطيعى

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى
د. خالد الكومى

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية
د. يونان لبيب رزق

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة
عبد الحميد توفيق زكى

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٥٩/١٩٩٠

ISBN 977 — 01 — 2992 — 7

يكاد يكون هذا الكتاب أهم الأعمال العلمية التى تناولت أحوال مصر والمشرق العربى فى ظل الحكم العثمانى حتى أواخر القرن الثامن عشر . وهو يختلف عن الدراسات التاريخية السابقة فى أنه يقدم دراسة عضوية لحياة المجتمعات الإسلامية فى مصر والمشرق العربى من ناحية أحوالها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإدارية ، فى ضوء النظم والتشريعات والقوانين التى أرستها الدولة العثمانية . وبالاستناد إلى مجموعة هائلة من المصادر التركية والعربية ـ وهو بالتالى ـ مرجع هام لا يمكن الاستغناء عنه عند دراسة تاريخ مصر والمجتمعات العربية فى المشرق العربى فى تلك الفترة . وقد قام بتأليف الكتاب عالمان كبيران هما البروفسور هاملتون و البروفسور هارولد بووين ، والأول من الأسماء اللامعة فى مجال الاستشراق ، وله عدة مؤلفات فى تاريخ الأدب العربى والحضارة الإسلامية . ويعد خاتمة جيل المستشرقين الرواد وأستاذ المدرسة المعاصرين فى إنجلترا والولايات المتحدة ـ هذا بالاضافة إلى أنه شغل عضوية المجمع اللغوى بالقاهرة . أما الثانى ، وهو هارولد بووين فقد عرف بدراساته فى دائرة المعارف الإسلامية وكتابه عن الوزير على بن عيسى .

٢٢٥ قرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب